سلسلة الجوائز

٦

أنيس منصور

عاشوا في حياتي

الهيئة المصرية العامة للكتاب

سلسلة الجوائز

٦

أنيس منصور

عاشوا في حياتي

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مقدمة

سؤال : هل تعرف فلاناً ؟
جواب : نعم أعرفه !
سؤال : هل سافرت معه ؟
- لا ..
- إذن أنت لا تعرفه !

• • •

وقال أوسكار وايلد الأديب الساخر : أنت لا تعرف امرأة ، قبل أن تعرف جسدها !

• • •

سؤال : هل تعرف فلاناً ؟
جواب : لم أعرفه .. لأننى قريب جداً منه !

• • •

سؤال : هل تعرف فلاناً .
جواب : لا أعرفه .. فأين أنا وأين هو .. إنه بعيد جدا حتى لا أكاد أراه !

ومن الصعب أن تعرف إنسانا جيدا ، إذا كنت تحبه .. فأنت تراه ولا تراه .. وإذا كنت تكرهه أيضا .. فأنت لا تحب أن تراه ، فكيف تعرفه وأنت لا تراه .. وأنت قد أسقطته من عينيك .. أو سحقته بعينيك .. أو أغمدت في قلبه رموشك ..

فالذى يحب كالذى يكره : لا يرى بوضوح !

ولكن لابد أن تحب ولابد أن تكره .. ولذلك فأنت لا تعرف الناس جيدا .. وإنما تعرفهم بالتقريب .. أو تعرفهم بعض الوقت .. وتحبهم بعض الحب .. وبعض الكره .. فأنت تعرفهم إلا قليلا !

والقرد في عين أمه : غزال .. إذا أحبته ! وفي عينيها : قرد إذا كرهته !

ولكل إنسان عدة صور :

صورتك كما ترى نفسك .

وصورتك كما تحب أن ترى نفسك .

وصورتك كما يراها الناس ..

فإن كنت أديبا أو فنانا فأنت تساوى ما تقدمه للناس . فأنت تساوى كتبك أو لوحاتك أو موسيقاك أو تماثيلك ..

ولا توجد وسيلة أخرى لكي يعرفك الناس غير هذا الذى أبدعته ، أو عجزت عن إبداعه .

ولكنك لست في كل الأحوال قادرا على الإبداع .. فأنت تتعب وأنت تضيق .. وأنت تحب .. وأنت تمل .. وأنت على أعصابك كاتباً وقارئاً .. ولذلك فليست لك صورة واضحة لا عن نفسك ولا عن الناس .

وإذا أنت نظرت في المرايا .. فهناك مرآة تجعلك صغيراً ، وأخرى تجعلك كبيراً .. وثالثة تجعلك مقعرا .. ورابعة تجعلك محدبا .. وخامسة تجعلك أصفر اللون .. أبيض .. أحمر ..

ورأى الناس مثل هذه المرايا .. فأنت متعدد الألوان والأحجام والأوزان والأهمية والقيمة والأثر عند الناس .

وإذا سألت الناس . فأنت مثل الذى يسأل جميع المرايا .. فماذا لو نطقت جميع المرايا معاً ؟

سوف تسمع ضجيجا من النظريات ، وضوضاء من العواطف .. وترى تلوثا من الأمزجة .. وكلها هي : أنت في عيون وآذان وأنوف وعقول وقلوب الآخرين !

وأنت لك وجهة نظر ، وأنا أيضا . وأنت على حق ، وأنا أيضا . والذى يعجبنى فيك ، هو الذى أحبه لنفسى .. والذى لا يعجبنى فيك ، هو الذى لا أحبه لنفسى ..

والذى أقبله بالعقل ، أرفضه بالقلب .. والذى أستريح إليه وجدانياً أنفر منه عقليا !

قال الفيلسوف الألمانى كارل ماركس : أنا آكل ، إذن أنا موجود ..

وقال الفيلسوف الفرنسى ديكارت : أنا أفكر ، إذن أنا موجود .

وقال الشاعر بايرون : أنا أحب ، إذن أنا موجود !

وقال الأديب كافكا : أنا خائف ، إذن أنا موجود !

وقال تولستوى : لن أكون حراً ، حتى تموت زوجتى !

وكل واحد من هؤلاء يريدك أن تعرفه على هذه القاعدة . فهذا هو مفتاح الدهليز إلى أفكاره وأعماقه النفسية .

• • •

وفى حياة الواحد منا ألوف الناس .. قريبون وبعيدون .. يمرون دون أن يتركوا أثرا ، كما تمر الرياح على أوراق الشجر ، أو على رمال الصحراء .. أو يتركون أثراً كما تمر السيارات فى الوحل .. أو كما تنفذ أشعة الشمس إلى الغرفة المظلمة .. أو كأعواد الحديد الساخن على بشرتك .

وقد يكون أقرب الناس إليك ، أبعدهم عنك .. ويكون أبعدهم عنك أقربهم إليك ..

وقد يكون الشخص متواضعا ، ولكنه عميق الأثر ، أمى وأمك مثلا !

وقد يكون أكثر ثقافة وأوسع إدراكا : المدرسون مثلا .. ولكن لا أثر لهم .

وقد تقرأ كتابا قديما فيهزك .. وتقرأ كتابا حديثا ، كما تقرأ صحيفة يومية لا تهزك ..

وقد يكون الكاتب الذى تقرأ له جميل العبارة عميق النظرة مسايراً للعصر ، يلقى الضوء فى كل مكان .. ولكنه لا يثيرك .

فقد يكون قد جاء فى الزحام ، أو يكون قد جاء فى الوقت غير المناسب ..

فعندما كنت مشغولا بالأستاذ العقاد ، لم أكن أقرأ لسواه .. لدرجة أننى لم أعرف أن هناك أدباء آخرين غيره فى مصر .. ولما قرأت مقالا لطه حسين بعد سنوات من متابعتى للعقاد ، أدهشنى أن هناك أدباء آخرين .. ولكن طه حسين جاء فى غير أوانه .. جاء بعد أن امتلأ عقلى بالعقاد ، فلم أجد له مكانا .. ولم أقفل عقلى دونه .. وإنما أجلسته على بابى سنة .. وعشر سنوات .. وأحزننى أننى لم أعرف طه حسين والحكيم والمازنى والرافعى وشوقى وابن المقفع والجاحظ وابن خلدون والحريرى وزكى مبارك إلا بعد ذلك بوقت طويل ! تماما كما تتوفر كل الظروف المناسبة لنمو بذرة من البذور : الأرض والماء والهواء والشمس .. وسلامة البذرة ، ولكنك ألقيتها فى غير أوانها ..

ويوم قرأت رواية « الحب والدسيسة » للشاعر الألمانى شيلر ، لم أكن أعرف أن هناك قصصا وروايات مصرية أو عربية ..

ويوم عرفت الأديب الإيطالى البرتو مورافيا ، وقابلته وصادقته وقدمته إلى اللغة العربية ، لم أكن أعرف نجيب محفوظ ولا قرأت له ..

عندما حفظت القرآن الكريم كنت فى السابعة من عمرى ، وأنا لا أعرف معنى كلمة واحدة مما أقول .. وانتقلت من القرآن الكريم إلى قصائد المتصوفين وإلى مدائح الرسول .. فحفظت « البردة » للبوصيرى ، وأنا لم أسمع بشوقى أمير الشعراء ، ولا عرفت قصيدته « نهج البردة » إلا بعد عشرات السنين ..

وقرأت مئات الروايات المترجمة فى سلسلة « كتاب الجيب » من ترجمة الأستاذ عمر عبد العزيز أمين ، ولم أقرأ رواية عربية واحدة ، ولا عرفت أن هناك روايات عربية ..

عرفت تولستوى ودستويفسكى وبروست وشيللى وبيراندللو وديكنز وبلزاك ، قبل أن أعرف أسماء الأدباء المصريين . وكنت فى الثانية عشرة من عمرى . هل كنت أعى ما أقرؤه ؟ لا أعرف .. ولكنى أقرأ واستمتع .. وأطلب المزيد . ويجىء المزيد فى صناديق وحوالات .. فقد كانت هذه الروايات رخيصة الثمن وتباع فى كل مكان ..

وعندما كنت طالبا فى الجامعة ، وكانت قوات الانجليز فى مصر ، أثناء الحرب العالمية الثانية .. اشتريت عربة عليها مئات من الكتب الصغيرة الحجم التى كانوا يطبعونها للقوات البريطانية فى مصر .. وكانت هذه العربة تباع بمائة قرش ـ كل الحضارة الغربية بهذا المبلغ التافه !

وعرفت الفيلسوف الألمانى أوزفالد اشبنجلر ، فيلسوف الحضارة الغربية . وقرأت ما كتبه أستاذنا عبد الرحمن بدوى عنه ، قبل أن أقرأ سطرا واحدا للمؤرخ المصرى عبد الرحمن الرافعى ..

وقرأت للمؤرخ الإنجليزى توينبى ، قبل أن أقرأ لأستاذنا المؤرخ شفيق غربال وأستاذنا على ابراهيم وأستاذنا ابراهيم نصحى ..

وعبد الرحمن بدوى أستاذنا فى الفلسفة قد قدم لنا عشرات الأسماء فى الفلسفة والأدب والفن والموسيقى .. وفى زحمة هذه الأسماء الباهرة ، ضاع هو ، فلم نعرف أثره وقدره ، إلا بعد عشرات السنين ..

وقرأت للأديبة الوجودية سيمون دى بوفوار ، قبل أن أقرأ سطرا واحداً للآنسة مى زيادة أو حتى للخنساء ..

وعندما قدمنى الأستاذ إحسان عبد القدوس على أننى ، فيلسوف المستقبل ، وأديب الوجودية الشاب فى سنة ١٩٥٠ ، لم أكن أقرأ لإحسان عبد القدوس إلا ما كتبه فى السياسة ، ولم أقرأ له رواياته إلا بعد ذلك بسنوات .

وعندما حفظت ديوان ، أغانى الكوخ ، للشاعر الرومانسى محمود حسن اسماعيل ، لم أعرف مصطفى صادق الرافعى .. مع أنهما من مدرسة واحدة .. هذا رومانسى فى الشعر ، وذلك رومانسى فى النثر ..

ولا أعرف إن كان الشاعر محمود حسن إسماعيل قد تأثر بما كتبه مصطفى صادق الرافعى فى كتبه : السحاب الأحمر وأوراق الورد ورسائل الأحزان ..

ولم أحفظ لمحمود حسن إسماعيل بيتا واحد من دواوينه الأخرى . وقد أذهلته مرة عندما جمعنا لقاء أدبى أننى أسمعته معظم الديوان ..

وأنا لم أعرف الشعراء الرومانسيين محمود حسن إسماعيل والهمشرى وصالح جودت إلا عن طريق الشعراء الرومانسيين فى أوربا : لرمنتوف الروسى ونوفالس الألمانى وليوبردى الإيطالى ودى ميسيه الفرنسى وشيللى

الإنجليزي .. قرأت لهم .. ووجدت عندهم ما أريد واتجهت إلى أمثالهم في لغتنا العربية .. فأحببت الأوروبيين ، وأصبحت مكتبة في بيتي للمصريين ..

ولم أستطع أن أحب ابن الرومي ، رغم إعجاب العقاد به ..

وإنما أحببت وأعجبت بالشاعر العظيم في كل العصور : المتنبي .. فهو عبقرية أفسدتها الأخلاق .. أو فساد الأخلاق .. وهو لا يقل احتقارا للناس عن احتقار أبو حيان التوحيدي والجبرتي والجاحظ والفيلسوف الألماني نيتشه والشاعر الإيطالي بترارك والأديب الفرنسي رابليه .. والحق معهم .. فهم أعظم من عصورهم ، وأكبر من سفهاء زمانهم !

ويهزني عدد من المؤرخين الأجانب .. يهزني الأديب الفرنسي أندريه موروا ، وقدرته الفذة على تحليل الشخصيات .

إن العقاد أبرع منه في معرفة ملامح الشخصية التي سوف ندرسها .. ولكن العقاد بارع في صناعة مفاتيح الشخصية .. إنه يعطيك مفتاحاً صغيراً جداً .. في عبارة واحدة .. وبسرعة تنفتح لك أسرار هذه الشخصية وإذا بك في أعماق أعماقها .. فالعقاد مهندس إلكتروني .. لا يطلعك على سر اهتدائه إلى هذا المفتاح .. وهو يفضل أن يبهرك .. أن يقوم بدور الحاوي الذي نصفق له .. لأنه يجب أن يكون شخصا معجزا .. فيجعلك تراه خارقا للعادة !

ولكن أندريه موروا يعطيك مفاتيح كثيرة .. ومداخل عديدة .. وهو يصطحبك معه .. ويدور حول الشخصية ويستمع إليها .. وإلى الناس حولها .. ومن كلام الشخصية وحديث الناس .. وبين محبتهم له ، وكراهيته لهم .. وبين القصص .. والنوادر .. والفواجع تعرف الطريق إلى القلب وإلى العقل ..

وإذا كان العقاد مهندسا ، فأندريه موروا قارئ كف .. قارئ فنجان .. ضارب ودع .. قصاص أثر .. مفسر أحلام .. ولذلك فأندريه موروا أروع وأجمل وأمتع ..

وشخص آخر أسعدني أن أعرفه إنه الكاتب الأمريكي الرائع : ول ديورانت ..

فليس في اللغة الانجليزية كلها شخص له عظمة وجمال وسحر هذا الرجل وزوجته .. فقد اشتركا معا في مؤلفاتهما الأخيرة .. ولكن ول ديورانت انفرد

بالأعمال الرائعة وحده : قصة الفلسفة الحديثة .. وقصة الحضارة بأجزائها الأحد عشر .. ومناهج الفلسفة .. ودروس في التاريخ .. ثم ترجمة حياتنا .. في حبتهما الاثنين معاً .

فهذا الرجل ديورانت قد أوتى من العلم والأدب والذوق ما لم يؤته أحد في عصره .. ولذلك فهو مثل أعلى في الكتابة .. ومثل أعلى في اتساع النظرة وفي القدرة الفذة على الصياغة الأدبية .. فأنت عندما تقرأ لا تعرف إن كان هذا الذى تقرؤه أدبا أو تاريخاً أو فناً أو رسماً أو موسيقى . إنها جميعا .

وكثيرون غيره كانوا هداة صادقين بارعين لكل أبواب ودروب وأغوار وقمم الحضارة الغربية .

وعندما قرأت لمؤرخنا عبد الرحمن الرافعي بعد ذلك ، وجدت أنه رجل رضى على خلق . ولكنه ليس أديبا ولا فناناً ولا فيلسوفاً ..

وعندما اتجهت إلى التأليف المسرحي ، لم تكن عندى دراية واضحة بفنون الكتابة المسرحية .. وكان مزاجى أن أكتب المسرحيات الكوميدية .. وكتبت .. وظهرت مسرحيات على المسرح وعلى الشاشة .. ووجدت أن مزاجى يميل إلى السخرية .. بل هو أقرب إلى الواقع الحديث .. فنحن في عصر المتناقضات .. عصر الانهيارات المذهبية .. عصر الانحلال الحضارى .. فالإنسان هو الذى يدعو إلى السخرية .. إنه لا يصدق ما يقول .. ولا يؤمن بما يكتب .. ولا يعمل على إنقاذ نفسه من نفسه .. وهو في كل الأحوال يبعث على الإعجاب : فهو يكذب ببراعة ويصدق بعبقرية .. وهو يخترع وسائل الدمار بذكاء ، ووسائل العلاج والحياة بإصرار . فكيف لا نضحك من زماننا .. من أنفسنا ؟

وقبل أن ألتقى بمؤلف مسرحى واحد قابلت الأديبين : ديرنمات وفريش .. زرتهما في سويسرا ..

وترجمت لديرنمات مسرحيات : زيارة السيدة العجوز .. وزواج السيد مسيسبى .. وهبط الملاك في بابل .. والشهاب .. وظهرت كلها على المسرح ..

وقابلت فريش في بيته وترجمت له مسرحيتين : مشعلو النيران .. وأمير الأراضى البور .. وظهرت الاثنتان على المسرح ..

وأناس عظماء لقيتهم لحظات .. بعضهم كان عميقا .. وكذلك عدد من الجميلات ..

فعندما رأيت مارلين مونرو في هوليوود . وبعد ساعة من الانتظار قالت لى : ازيك يا إنت !

وهى لا تعرف من أنا .. ولا من هو أى أحد .. فهى جميلة فقط . ويوم انتحرت مارلين مونرو ، كتبت عنها وبكيت أيضا . فقد رأيت فيها نموذجا معذبا للعذاب الإنسانى .. كيف يكون الجمال نقمة .. كيف يكون اليتيم مسكينا .. كيف هى تجارة الرقيق الأبيض .. ويوم تزوجها الأديب أرثر ميللر ، كرهت هذا الرجل .. ويوم ترجمت له مسرحية « بعد السقوط » التى بها صفحات عن مارلين مونرو ، ازددت كراهية له ..

وبقيت مارلين مونرو صورة جميلة ذهبية بارقة لامعة أمام عينى ، وهى وغيرها من الشقراوات ، طريقى إلى دراسة طويلة عن عذاب الجمال ، أو جمال العذاب ، أو عن « جهنم الشقراء » .. ولم أنسها ، ولا تركت كتابا واحدا ظهر عنها .. حتى تجمع لدى مائة كتاب !

ويوم قابلت الرئيس الجزائرى هوارى بومدين ، وهو رجل رقيق ، هامس الصوت مهذب ودود قال لى : لو اشتغلت بالسياسة ؟

فقلت : يكون ماذا يا سيادة الرئيس !

قال : تكون السياسة أدبا يقرؤه الناس !

ونسيت هذه العبارة ، فلم تكن لها ضرورة أو صدى فى نفسى .. فأنا لست سياسياً ، ولا أحب العمل السياسى . وإن كنت قد اشتغلت بالفكر السياسى أو الفلسفة السياسية . وكنت أقوم بتدريسها فى الجامعة ، كجزء من تاريخ الحضارة الإنسانية ..

وفوجئت بعد ذلك بسنوات بالرئيس السادات يقول لى : لو كتبت فى السياسة !

فقلت : يكون ماذا يا سيادة الرئيس ؟

فأجاب : تكون أكثر إيجابية فى عملك الوطنى !

ودارت هذه العبارة وترددت وتخبطت فى رأسى مترنحة ، ذهابا وإيابا :

أكون .. أكثر .. إيجابية .. في العمل الوطني .. وهل الذي أقوم به أقل إيجابية .. أو هو أكثر سلبية من العمل الوطني ؟!

تدحرجت إلى الكتابة السياسية ، ولست نادماً على ذلك . ولكنها أبعدتني عن البيئة الصحية الصحيحة ، التي تناسبني .. عن الأدب والفن والفلسفة .. أي الإنسان وعلاقاته بنفسه وبالآخرين ..

وعندما زرت الأديب السويسري ماكس فريش في البيت الذي يسكنه عند سفح أحد الجبال ، سألته سؤالاً تقليدياً : كيف حال صحتك !

أجاب إجابة غير مألوفة : أنا في صحة جيدة جداً .

وكأنه لم يقل شيئاً غير عادي ، فمضى يشرح ذلك : أنا أعمل ثلاثة شهور في السنة .. وأسافر وأتجول بقية السنة .. وأسكن هنا .. وقد اخترت الارتفاع النموذجي .. فالبيت يقع على مستوى ١٨٠ متراً من سطح البحر .. والهواء أكثره أوكسجين .. ودرجة الحرارة معتدلة .. وقوة الجذب على هذه المنطقة معقولة تناسب وزني وسني ..

إذن هناك درجة حرارة وارتفاع وجاذبية وأوكسجين لابد أن تكون مناسبة للعقل .. وعلى الأديب أو المفكر أن يختارها . ولم أكن أعرف ذلك ..

وإذا كنت لا أعرف السباحة ، فإنني أمارس سباحة المسافات الطويلة والغوص في أعماق الكتب ، أصعب الكتب وأطولها وأعقدها في ثماني لغات .. أنزل البحر ولا أخاف الغرق ..

وعلمني حب السفر ، متعة التنقل .. ولذة التغيير .. وجمال الحركة .. أنا الذي أتنقل خفيفاً ، من مكان إلى مكان ، من كتاب إلى آخر ، ومن مفكر إلى أديب إلى موسيقار إلى كاهن إلى راهب إلى قسيس إلى شيخ إلى حاخام إلى إمام إلى ، جورو ، بوذي .. وكما يقلب الإنسان الكتب بأصابعه ، فإن كتاب الكون ، أقلبه بقدمي ، أو بعيني .. فأنا على سفر دائم .. وأنا أتغرب في بلاد غريبة .. لا انتهت دهشتي ، ولا أحسست بأني قريب لأحد أو من أحد .. وإنما غريب في كل مكان وزمان ..

وإذا كان أستاذنا أرسطو قد علمنا : أن الدهشة هي بداية المعرفة .. فأنا ما أزال في مرحلة الدهشة فلا نهاية للمعرفة !

وقديما سئل الشاعر الألماني جيته : ما هو الكتاب الذى أثر فى حياتك ؟ ..
فهز رأسه بأنه لم يفهم .
فأعيد السؤال : ما هو الشخص الذى هز حياتك ؟
فهز رأسه كأنه يرفض السؤال . فقيل له : ما هى البلدة التى أثر أدباؤها ومفكروها فى حياتك !

ولم يهز رأسه . كأنه لم يسمع شيئا . فقيل له : إذن ما هو الشيء أو الأشياء فى الأدب والموسيقى والتاريخ التى تركت أثرا فى حياتك .. أى أثر .. وليس من الضرورى أن يكون عميقا أو هامشيا ؟

فاعتدل الشاعر وأسند ظهره إلى الحائط ، فمن عادته أن يكتب واقفا لأوجاع فى مصرانه الغليظ وقال : أفضل أن أجيب عن هذا السؤال كتابة !

وكتب جيته يقول : كما أن أحداً لا يعرف نوعية الطعام والشراب الذى يجعل أظافرك وعينيك لامعة ، فإن أحداً لا يعرف بالضبط ما الذى أثر فيك أدبياً وفلسفياً !

ولما قيل للشاعر جيته : ما رأيك فى هذه العبارة : لا يقدر على الوحدة إلا حيوان أو إله ؟
فأجاب بسرعة : أو .. هما معاً !
أى الحيوان المبدع الخلاق .. أى الإنسان الأديب أو الفنان أو المفكر أو الموسيقار . فقط هو الذى يطيق أن يظل وحده يبدع كل مقدمات وعناصر الحضارة الإنسانية !

وأديب فرنسا مالرو هو الذى قال : إن الموسيقار لا يتعلم الموسيقى من خرير المياه .. وإنما من موسيقى الآخرين .. والرسام لا يتعلم كيف يرسم ، إذا نظر إلى غروب الشمس وشروقها ، وإنما من لوحات الفنانين الآخرين .. يرى عملية تركيب الألوان ، ويرى حركة الفرشاة .. والأديب لا يتعلم مما يسمعه من قصص وحكايات ومن حكمة الشعوب ، ولكن من الذى يقرؤه للأدباء الآخرين ..

إذن .. سوف أحكى لك حكاية من عرفت وكيف عرفت .. كثيراً أو قليلا .. ولا نهاية للذين عرفت عنهم وقرأت لهم .

ولكني سوف أكتفي بالذين عرفتهم عن قرب .. بالمعايشة والصداقة والحب والتأمل والتأثر ..

ولن أدعي شيئاً من الحكمة ، ولكن سوف أدعي حرصي الشديد على أن أعرف وأفهم : وتقديرى العظيم لكل من حاول أن يقول جديداً .. أو يعرض جديداً فكراً قديماً .. ويكون « العرض » هو الجديد .. أى الأسلوب هو الجديد .

والأدب والفن : أسلوب .. وأنت تساوى أسلوبك !

وليس صحيحاً أن أحداً يستطيع أن يرى كل ما حدث وأن يسمع كل ما قيل ، ويلمس كل جسد .. لأننى لا أرى إلا من خلال « ثقب » فى الباب .. هذا الثقب هو « وجهة نظرى » . وهى ضيقة ، كما أن عينى : ثقبان فى وجهى .. وهما ثقبان ضيقان ، ولكنهما قادرتان على رؤية ملايين الملايين من الكيلومترات المربعة : السماء مثلا .. ورؤية ملايين النجوم التى تبعد عنا ملايين السنين الضوئية ..

و « ثقب الباب » أيضاً هو مجموع مشاعرى : حبى وكرهى .. ومبالاتى ولا مبالاتى .. وما يتفق مع مزاجى .. وما يناسب القارىء .. والمجلة التى تنشر لى ما أكتب . والمساحة الورقية .. والمساحة الزمنية .. ومدى احتمال القارىء لذلك . دعك من احتمال الكاتب أيضاً !



كل ما يولد في الريف
لا يموت في المدينة

كل ما يولد فى الريف لا يموت فى المدينة

صحوت مبكرا لأجد جلبابا أبيض مخططا بالأزرق وإلى جوارى حذاء جديد .. إذن هو يوم غير عادى سوف يبدأ فى حياتى . لقد تقرر أن أذهب إلى الكتاب . أى مدرسة القرية . والقرية اسمها « نوب طريف » مركز السنبلاوين . جاءها والدى من المنصورة ليشرف على الأرض الزراعية لعز الدين بك يكن . وواضح تماما أن والدى مختلف عن بقية الناس . فالبيت الذى نعيش فيه كبير من طابقين وحوله حديقة وملحق به اصطبل للجاموس والأغنام والخيول . وله باب خشبى ضخم . وأمام الباب يتمدد الخفير وزوجته إلى جواره نهارا . أما فى الليل فهو ينام وراء الباب . وفى كل ساعات الليل والنهار إذا ناداه والدى فانه يجيب : موجود ياحضرة المفتش .. أو نعم يا محمد أفندى ..

وقبلها بيوم سمعت والدى يقول : لاداعى لأن تذهب إلى السوق .. هات الحمار والبردعة الجديدة .. لأن صلاح سوف يذهب إلى الكتاب ..

أما « صلاح » فهو اسمى فى ذلك الوقت ..

وعندما صحوت وجدت أمى قد أعدت سندوتشا من الجبن الأبيض والخبز .. أما الجبن الأبيض فقد كانت تصنعه فى البيت .. وقد رأيتها كثيرا تضيف سائلا فى لون الشاى الحقيقى من زجاجة . وفى الصباح يتحول اللبن إلى جبن .. هذا الجبن هو الذى لم أعرف سواه سنوات طويلة .. أما بقية الأحداث فى ذلك اليوم فهى كثيرة ومتلاحقة وجديدة . جاء رجل ورآنى وقد ارتديت الجلباب الأبيض والحذاء الأسود اللامع وقرأ آيات من القرآن الكريم .. وجاءت أمى بالبخور ودارت به حولى .. ثم طلبت من الخادمة ، وهى سيدة كبيرة فى السن ، أن أدور حول النار وتقول هى : عين الحسود .. من عين الذى رأى ولم يرحم ، والذى نظر ولم يصل على النبى .. فى عين فلانة وفلانة .. وفلان وعلان ..

وفجأة وجدت شيئا يطقطق تحت قدمى .. لقد وضعت عددا من البيض الأزرق لكى أدوسه .. فاذا دسته ذهب مفعول الحسد و « العملات » إن كان أحد الحاسدين أو الحاقدين قد أعدها لمثل ذلك اليوم .. ولم يكد البيض يطق حتى زغردت الخادمة ، أن الله سبحانه وتعالى قد أذهب عنى الشر فى هذا اليوم ...

وأمام الباب وقف الحمار .. أبيض عال وحملنى الخفير إلى ظهره وأمسكنى حتى لا أقع .. وسبقت زوجته وراحت تنثر الماء يمينا وشمالا وتدعو الله أن يحمينى من عيون الحاسدين .. وأظن والدتى كانت تنظر من النافذة ولابد أنها هى تكرر الدعوات .. وانتقلنا من أمام البيت إلى الطرقات الضيقة المغطاة بالتراب والطين .. والتى يتزاحم فيها الناس والجواميس والحمير والأغنام وكنت وأنا فوق الحمار أرى ماذا يحدث فوق الأسطح .. أطفال كثيرون وأغنام وكلاب ودواجن .. ولا أدرى كم مضى من الوقت لكى أصل إلى « الكتاب » ولابد أنه وقت طويل . فلم أكن أدرى بالضبط ماذا حدث أو سوف يحدث .. ولكنه يوم غير عادى بل أكثر من يوم .. فأنا أسمع عن هذا اليوم منذ شهور .. وسمعت الناس يتحدثون إلى والدى ويقولون : آن الأوان .. أن أبدأ حياتى وأتوكل على الله ..

ولم يكن والدى يعارض .. وإنما هو يستعجل هذا اليوم وكذلك والدتى .. هل الذى أخر هذا القرار ان الكتاب به أطفال كثيرون . والمكان ضيق .. هل لأن « سيدنا » أى صاحب الكتاب والمدرس الوحيد مريض .. أو هل كان يتزوج هو ، أو يتزوج أحد أولاده .. هل كنت أنامريضا وكان لابد أن تخف متاعبى .. لقد عرفت فيما بعد أن أحد أصدقاء والدى من الذين يفهمون فى الطالع والنجوم والحسابات الفلكية هو الذى أختار هذا اليوم . كما يختار الأيام المناسبة للأزواج . أما هذا الرجل فهو شديد البياض أزرق العينين .. وله لحية صغيرة . وهو يحب الضحك .. والناس يحبونه . ولكن لاحظت أنهم لا يحترمونه بدرجة كافية .

وبعض الناس يضربه فى بطنه وبعضهم يشد لحيته . ولكنه موجود دائما ، ومسموع الكلمة . وهم يطلبون إليه أن يحكى الحكايات ويروى النوادر .. ويقولون : تركى .. ويقولون أفغانى .. ألبانى .. لبنانى .. طليانى ..

وأمام بيت صغير مكدس فوقه قش الذرة والقطن والأرز وتصايح الديوك والحمام والكلاب ، وقف بى الحمار ، ولما حاولت أن انزل منعنى الخفير . وتركنى . وهبط واختفى فى داخل البيت ليعود ويقول لى : أن سيدنا مريض اليوم . غدا إن شاء الله ..

وشعرت بشيء من الارتياح .. وعدنا إلى البيت . كان الشارع أعرض وأقصر .. وكان البيت خارج القرية .. ورأيت أصدقائي من الأطفال قد جلسوا على جانبي الطريق .. وكانوا ينادونني . ولكنى لم أكن أرد . أو أسمع ميقولون ولا أعرف ماذا يمكن أن يقال ..

وبعد لحظات وصلنا . لقد كان المشوار قصيرا جدا . ولم يكن فى حاجة إلى أن أركب الحمار . ولكنه فى مثل هذا اليوم لابد من اتخاذ إجراءات غير عادية ..

وفى اليوم التالى وجدت الجلباب والجزمة والسندوتش . ونزلت وحدى . وأمام البوابة وجدت الخفير . وفهمت أننى مادمت قد عرفت الطريق ، يجب أن أذهب وحدى على بركة الله .. ولم أجد أحدا لا أمام الباب ولامن النافذة . حتى والذى كان يتحدث إلى عدد من الفلاحين ، لم يلاحظ أنني فى طريقى إلى الكتاب .

وكان من الصعب أن أتوقف بين لحظة وأخرى وأمسح حذائي الذى تلوث بالطين ومخلفات البهائم . فلا نهاية لذلك ، ولا معنى للنظافة . كما أننى اعتدت على رائحتها ، فلابد أن اعتاد على آثارها فى حذائي وملابسى .. وكم مرة صدمتنى كل ذلك وأنا أمر بالقرب من جاموسة أو بقرة !

وأمام الكتاب وجدت عددا كبيرا من الأطفال .. قد ملأوا جيوبهم بالبلح والفول والخبز الساخن وقوالب السكر . ووقفنا جميعا أمام الباب . ولم يجرؤ واحد منا على الدخول . ومضت ساعة وساعة .. والباب مفتوح دون أن يطلب منا أحد أن ندخل .. وظهر طفل وقال لنا : غدا ..

وعدنا إلى بيوتنا ..

وفى اليوم الثالث وفى ساعة مبكرة لم أجد أحدا أمام الباب . كل الأطفال قد دخلوا البيت . ونظرت فوجدتهم جالسين على الأرض : ابن العمدة وابن

شيخ الخفر وابن البقال وابن الخولي وأطفال آخرون .. البيت من الداخل ككل الزرائب .. طين جاف فوقه تراب . وفوق التراب قش .. وتبن .. وقطة من هنا وكلب من هناك .. وحمام يطير داخلا وخارجا .. وكل شيء أسود .. كأننا دخلنا في بطن حيوان .. أو في قلب فرن .. أو أن الظلام قد اتخذ ملمس الطين والتراب .. وجاءت سيدة وشخطت في الأطفال .. ودفعت هذا وضربت ذاك .. وتكومنا في جانب .. ثم أشارت بيدها إلى كل الاتجاهات .. وفي كل الاتجاهات تفرق الأطفال .. واحد ينظف الحلل بالتراب والرمل .. وواحد يفرط كيزان الذرة .. وواحد يعلق الغسيل على حبل في السقف .. وواحد يمسك المقشة ويكنس أمام البيت .. وواحد يجمع الحطب ويضعه في الكانون . وأنا طلبت مني أن أرش الماء بعد أن يفرغ زملائي من الكنس . ولما أبديت دهشتي أو جهلي بذلك . فاذا بها تزغدني في بطني وتقول : تعمل كده .. أنت ابن مين ؟ فقلت لها .. وكان ردها : بكرة تتعلم .. كده ..

وراحت تضرب بيدها في جردل الماء ليخرج الماء هنا وهناك لكي يسكن التراب ..

ولا أعرف كم مضى من الوقت ، عندما قالت : غدا .

وخرجنا . وفي اليوم التالي عدنا ووقفنا أمام الباب . وجاءت نفس السيدة إنها متوسطة الطول والعمر .. ترتدي فستانا أسود ومن تحته قميص أحمر . ولها خلخال من الفضة . وفي يدها أساور من الفضة أيضا . وفي عينيها كحل أزرق . ومن أنفها يتدلى شيء مستدير . ولم تكد تراني حتى قالت : مالك ياواد .. انت بتبحلق لي كده ليه .. عينك في الأرض ياواد .. خد ..

وأعطتني المقشة . وأشارت إلى داخل البيت . إلى جانب من ركن مظلم تماما فيما عدا كوة تدخل فيها أشعة الشمس .. وفي هذا الركن نامت جاموسة صغيرة . ومطلوب أن أكنس تحتها دون أن أوقظها . ولابد أن بقية الزملاء لهم مهام أخرى .. ولكن عند الجاموسة يوجد مهام كثيرة .. فهناك ذباب يلسع .. وهناك أكوام من الطين والمخلفات .. ومطلوب أن أسوي ذلك كله بالأرض بالمقشة . ثم أن ألقي عليه بالتراب الجاف . وغدا لابد أن أنقل ذلك في مقطف خارج البيت ..

وفجأة سمعنا صراخا وبكاء . إنها تضرب ابن شيخ البلد . وفهمنا أنه وهو يحلب الماعز ، وقع منه اللبن فى الأرض .. ولم أكن قد رأيت حليب الماعز و الجواميس .. ووقفت وهى تعلمه كيف يسحب الماعز إلى الوراء وكيف يتلقى أثداءها فى حجره وفى الوعاء الفخار ـ الطاجن ..

وقالت لنا : غدا ..

وكنا قد تشجعنا قليلا . فنحن لا نجلس أمام الباب بالضبط .. ولكن كنا نلعب بعيدا عنه .. وكان هذا اللعب نوعا من التمرد ـ وسبب هذا التمرد ، أننا عرفنا بالضبط ما هو المطلوب وماهى العقوبة إذا لم ننفذ المهام اليومية التى تطلبها منا سيدنا أو زوجته ـ وحتى الآن لم نر سيدنا . ولا حتى عرفت أسمه ..

ولما سألنى والدى فى إحدى المرات : هه .. ماذا فعلت ؟ .. قلت له ..

وقال الرجل الألبانى أو الطليانى : إنه نوع من الانضباط .. تماما كالعسكرية .. فهم يذهبون فى الموعد المحدد ويتلقون التعليمات ..

وكان يحكى حكايات مما عرف هو فى طفولته .. وكان الجميع ينصتون إليه . ولم أفهم شيئا مما قال . ولكنه ، ولكنهم راضون .

وفجأة جمعونا من الحقول ، فقد ذهبنا نجمع الفول ونكومه . ونضعه فى شوال على ظهر حمار . ونادونا . وذهبنا . أنه سيدنا قد حضر .. أو قد قام من السرير . أو أن الدراسة قد بدأت .. ونزلنا إلى البيت . فالأرض تهبط وتهبط .. وفى جانب لم نره من البيت ، كانت غرفة . ضيقة . مظلمة . والأرض مغطاه بالقش .. وفيها حشرات تلسع .. والسقف اسود قريب جدا . و ضاه أول الأمر كذلك . ولكن بعد أيام عرفنا أننا إذا وقفنا فإن السقف لاصطدم برؤوسنا .. وكانت للغرفة نافذة . والنافذة مرتفعة . وهى ضيقة . ومنها تدخل الشمس . وفى أشعة الشمس ما لانهاية له من الذرات البيضاء التى نراها تسبح وتتقلب .. بعض الأطفال همس فى أذنى : إن هذه الذرات ملائكة ..

وتحت النافذة توجد مصطبة .. وعلى المصطبة توجد حصيرة . ومفروض أن يجلس سيدنا فوق الحصيرة ونحن أمامه على الأرض . وكنا نرى المسافة بيننا وبينه بعيدة .. هو فوق .. ونحن تحت .. والضوء فى عيوننا ، فلا نراه بوضوح ..

وجاء سيدنا الشيخ « سيد الزبلاوى » .. وقفز إلى المصطبة . ولا نراه بوضوح .. وإنما هو طويل عريض .. يسد عنا الضوء .. وله عمامة كبيرة ..وهو يهتز في جلسته .. ونادانا واحدا واحدا : اسمك إيه .. أبوك مين .. غدا تدفعون المعلوم .. كل واحد يسأل والده .. ويسلم عليه .. ويقول سيدنا معذور .. غدا .. توكلنا على الله .. حافظين الفاتحة ..

فقلنا جميعا : أيوه ..

قال : بسم الله الرحمن الرحيم .. توكلنا على الله .. اللهم افتح علينا أنا أقول وأنتم ترددون ورائي .. بسم الله الرحمن الرحيم .. قولوا ..

ونقول ..

ويقول : ألف لام ميم .. ذلك الكتاب لا ريب فيه .. الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه .. هدى للمتقين .. قول ياواد .. سمعنى صوتك .. قول ياواد .. دى اسمها سورة البقرة .. سورة إيه .. البقرة .. الم ذلك الكتاب لاريب فيه ..

ومضى اليوم الأول ونحن نردد طول الوقت ما حفظنا من سيدنا . وفي الليل سألني والدى : إن شاء الله تكون حفظت .. قل ما حفظت ..

وقلت : إنها سورة البقرة ..

- ما شاء الله

- هه ..

- الم . ذلك الكتاب ، لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون .

وطلب منى والدي أن أعيدها مرة وثلاث ، فلم يكن نطقى سليما ، ولا كنت أتوقف عند نهاية الآيات . وكان يطلب منى أن أنطق الحروف بوضوح وأن أتلو ذلك على مهل تام .. لأن القرآن مختلف عن كلامنا العادى . وأن القارىء يجب أن يؤدى ذلك في هدوء وخشوع ..

وبدأنا نرى سيدنا أوضح . وفي استطاعه الواحد منا أن ينظر إليه . وأن يلمسه أيضا . كان يصافحه ويقبل يده . وأن يشم رائحة السمن في يده ، ولكن لانجرؤ على التعليق .. أو رائحة الحطب المحروق .. أو رائحة نوع فظيع من

.. حضور يصعه سيدنا .. أما سيدنا فليس طويلا عريضا . إنه رجل قصير .. . لابد أنه فى مثل ارتفاعنا عن الأرض . فهو عندما يتحدث إلينا يكون .. موازيا لوجوهنا وفي يده عصا طويلة .. وهو يرتدى حذاء عاليا . ثم .. مصطبة قريبة من الأرض . وهو يتلو علينا الآيات ويتركنا نكررها .. .. إلى خارج البيت .. ويناقش .. ونظل نحن نكرر .. فإذا أرهقنا التكرار ، بأن انخفضت أصواتنا . سمعناه يقول أمام البيت : إنت ياواد إنت .. .. ياأولاد الكلب .. أنا سامعكم .

ومعنى ذلك أن نرفع أصواتنا بالآيات .. ونحن - عادة - جالسون على الأرض ، ونعطس من التراب ، ونمد أيدينا إلى ما تحت ملابسنا بسبب لسع البراغيث .. ونهتز إلى الامام وإلى الخلف ونحن جالسون .. وفجأة يظهر سيدنا ويهال علينا جميعا ضربا بالعصا .. جميعا . ونبكي ونكرر الآيات والدموع فى عيوننا .. ويهددنا إن لم نسكت سوف يقطع جلودنا ضربا .. وركلا وصفعا . وينتهى اليوم الدراسى فجأة . ونخرج من الكتاب .. وكأننا خرجنا من المقابر إلى وجه الحياة ، ونهلل . ونصيح .. ولا يجرؤ واحد منا أن يروى لأهله ماذا حدث . أو ماذا أصابه .. لا الضرب ولا الشتائم .. ولا غسل الأطباق ونشر الغسيل والكنس أمام البيت وداخله .. ولا تفريط كيزان الذرة وتنظيف الملوخية .. واحد منا فقط هو الذى اختارته زوجة سيدنا لكى يفليها - .. تجلس أمامه وتعطيه رأسها يقلب فى شعرها ويلتقط الحشرات !

وواحد آخر قد خصه سيدنا بأن يطقطق أصابع قدميه .. وفى نفس الوقت .. وراءه .. وإذا غفل لأنه لا يستطيع أن يعمل شيئين فى وقت واحد ضربه بالعصا ، ليبكى ويؤدى الاثنين معا !

• • •

وفى يوم تعالت الصيحات والصرخات فى شوارع القرية .. والناس يسرعون بالبلاليص والحلل التى امتلأت بالماء لإطفاء حريقة .. الحريقة فى بيت نمر عليه كل يوم .. بابه لونه أصفر وواجهة البيت عليها صور نخيل وطيور .. وله عتبة من الحجر الأبيض .. والناس يتدافعون داخلين خارجين ..

ومن الباب يرمون بورق .. بكتب محروقة .. وصناديق خشبية .. ومقاعد .. وحلل وأطباق . إنه بيت ذلك الرجل الطلياني .. والناس يطفئون النيران وهم يضحكون .. ففي البيت أحذية كبيرة وقباقيب .. وفيه ترابيزات .. وطبول . وفيه شيشة .. وحقائب خشبية .. وصور معلقة على الجدران .

وفي ذلك اليوم ملأت حجرتي بالكتب المحترقة .. بقايا كتب .. جثث كتب .. أو كأنها حمام أبيض احترق ريشه .. فلم يعد قادرا على الطيران .. لم اسمع من أحد تفسيرا لشيء .. كل الذي أدركته هو أن ألوف الكتب قد احترقت . ظننتها ألوفا في ذلك الوقت .. وأن الناس يلقون بها خارج البيت ..

ولم ينتبه أحد إلى عودتي إلى البيت .. ولا إلى الدموع على خدي .. ولم أكن فاهما لشيء . وإنما هو شعور غريب تولاني في هذه السن الصغيرة .. هل كانت للكتب أي معنى ؟ هل كان الحريق هو الذي أفزعني .. هل كنت أتمنى أن أقتني كتبا ، فوجدتها قد احترقت .. هل صحيح أن هذا الرجل قد وعدني ببعض هذه الكتب أو كلها .. هل صحيح ذلك .. أو أنني توهمت أنه وعدني يوما .. إن الكتب في بيتنا كثيرة جدا .. ولكني لم أكن أعرف القراءة .. فأنا أقلب فيها وأتوقف عند الصور .. وأحاول أن أفهم ..

وصحوت في ذلك اليوم على عيون تطل ناحيتي وتقول : بسم الله الرحمن الرحيم ..

لقد أخرجوني من تحت السرير .. فقد تسللت ومعي الكتب المحروقة . وغلبني النوم . ولم أر أنهم يبحثون عني في كل مكان .. وأنهم عند منتصف الليل وجدوني نائما على الأرض ويدي على هذه الكتب التي لوثت ملابسي ووجهي ..

وتعلمت أن أختفي تحت السرير كثيرا لأي سبب يغضبني .. وتعلمت أن أضع رأسي على الكتب .. وأن أنام وينزعونها من فوق صدري ، وقد أمسكت بها يداي .. ولم أنس هذا المشهد طوال حياتي . وكنت أرى أن إحراق الكتب هو أبشع جريمة .. ولم أهتد إلى سبب واحد يجعل إنسانا يحرق كتبه .. أو كتب غيره .. ولعلي قد رأيت في ذلك الوقت أن الكتب هي الحياة .. وأن حياة أي إنسان هي كتبه .. هي القراءة .. وأن الحياة من غير كتب ، حياة بلا حياة ..

بعد ذلك بسنوات كتبت مقالا في مجلة كلية الآداب تمنيت أن تكون وفاتي على هذا النحو : أن أدفن وسط الكتب حيا ، ثم يشعلون النار فينا جميعا !

هل تأثرت في هذه الصورة بما يحدث في بلاد الهند ، فهم يحرقون جثث موتى ، وكانت الزوجات يحرقن مباشرة بعد أزواجهن . حتى لا تكون لهن حياة بعد المرحوم .. أي بما معناه : نعيش معا ونموت معا . هل تصورت أن الإنسان إذا احترقت كتبه ، فلا حياة له بعدها .. مع أنه يمكن تعويض الكتب المحترقة .. ويمكن إذا احترقت أن تقرأ غيرها في المكتبات العامة .. أو أن الأحياء قادرون على شراء الكتب واقتنائها ، وأن الكتب عاجزة عن أي شيء .. فلابد أن يكون هذا الشعور هو تقديس للكتب أو وثنية ورقية . أنه حماس شديد لكل ما هو مطبوع !

ولما جاء الطلياني إلى بيتنا لم يكن قد تأثر بما حدث .. فهو يضحك .. والناس يتساقطون من الضحك .. ويهللون ويصفقون ويطلبون إليه أن يغني .. وكانوا يحسدونه على النعمة التي هو غارق فيها .. فلا عمل له .. ولا ساعات عمل .. وهو سلطان زمانه يصحو وينام ويجد الطعام في أي بيت .. وكل قصصه وحكاياته غير صحيحة .. ولكنهم يستمعون إليه .. إنه طراز من الناس يعيش على الحكايات وافتعال القصص والنوادر .. أنه مثل : أبو الفتح الاسكندري في مقامات بديع الزمان الهمذاني .. أو أبو زيد السروجي في مقامات الحريري .. ومثل الصعاليك والشعراء المشرّدين في أوربا .. ففي استطاعته أن يدق أي باب في أي وقت .. وأن يجلس فيجيء الطعام والشراب ، وليس من الضروري أن يلتقي بأصحاب البيت .. هو اعتاد على ذلك .. وهم أيضا ولما علم أنني بكيت وامتنعت عن الطعام يوم أحرقوا بيته . لا أحد يعرف من الذي فعل ذلك . أحضر لي عددا من الكتب .. وهو يقول : عندما تكبر ..

وكنت أضع هذه الكتب تحت مخدتي ، وأنا لا أفهم منها شيئا .. وكانت والدتي تنقلها من تحت المخدة كل ليلة ، وتضعها أمام السرير .. فأعود لنقلها تحت المخدة ..

وفي يوم لم أجدها لا تحت المخدة ولا أمام السرير .. ولا تحت السرير .. لقد جاءت الخادمة ووضعتها هي والكتب المحترقة التي أخفيها تحت السرير ، في الفرن ..

وعرفت أول « تقلص » في معدتي لأسباب عصبية .. وظل هذا الألم يصاحبني عشرات السنين !

* * *

كان لابد أن يجيء والدى إلى الكتاب . وكان غاضبا . ووقف بحصانه أمام البيت . ونادوا على سيدنا .. وسمعت صوت والدى . ونظرت من تحت إلى فوق .. كان والدى ومعه عدد من الخفراء .. وكان سيدنا واقفا .. والصفافير فى أذنى .. والأطفال يرددون دون أن يجرؤ واحد على أن يتوقف أو ينظر للخناقة التى أمام الباب .. وعندما غادر والدى المكان نزل عدد من الناس مع سيدنا وراحوا يعنفونه .. وهو يحاول أن يقول شيئا .. وقال .. ولم أفهم . وتركوه وعاد هو إلى مكانه من المصطبة .. وتركنا نكرر ونكرر : لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت .. ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين . وكانت آخر سورة البقرة . وقد مضى علينا فى الكتاب أكثر من شهر ..

وكان سيدنا فى حالة ضيق شديد .. ينظر إلينا ، ونحن نتلو ذلك . ولا ينطق بكلمة . حتى العصا عندما وقعت من فوق المصطبة ، انتفض واحد منا وكأنها ثعبان وقدمها له .. فلم يشأ أن يمد يده .. فتركها الطفل على المصطبة ..

وفجأة دخلت زوجته وقد حملت على رأسها طبلية .. ووضعت الطبلية على المصطبة . إن سيدنا لم يتناول إفطاره بعد .. ورائحة الفطير المشلتت الساخن تفوح وتشل القدرة على التكرار .. ورائحة القشدة وسيدنا يأكل على مهل وبشهية مفتوحة . وأكثرنا غير قادر على المضى فى التلاوة بسبب هذه الروائح الشهية . ولكن سيدنا مشغول عنا تماما . ولعله قد لاحظ ذلك .. فكان يلقى إلينا بقطع من الفطير .. وكنا نتزاحم عليها ، ونلتقطها من بين القش .. ونمسحها بأيدينا أو فى ملابسنا ..

ولم يقل شيئا .

ذهبنا بالأمس وشكونا ما فعله سيدنا .. فقد ضربنا على أقدامنا ضربا موجعا .. ثم على أيدينا .. وظهورنا .. وقد رأينا ، الفلقة ، لأول مرة .. فواحد يجلس على الأرض ويرفع ساقيه ، ويلف هو الساقين بحبل وينهال ضربا على القدمين .. ونحن نصرخ وهو لا يتوقف .. جميعا ..

فقد لاحظ سيدنا أننا صبغنا أيدينا وأرجلنا بالحناء ـ كما هي العادة في الريف عندما يكون زفاف . فالأطفال يحشرون أنفسهم بين الفتيات والسيدات ويطلبون أن يضعوا الحناء في أيديهم ، ويربطوها بالقماش حتى الصباح .. وكذلك أظافر قدميهم .. وفي الصباح تكون الحناء حمراء فاتحة الألوان .

فما كاد سيدنا يرى ذلك حتى انهال علينا ضربا وشتما وسبا لآبائنا وأمهاتنا : ... أن تحفظوا القرآن وتضعون الحناء .. يانسوان ياأولاد النسوان !

ولكن شكوى الآباء من هذه القسوة في الضرب ، لم تمنعه من أن يعيرنا بما فعلنا من حين إلى حين ..

ولم نكن نعرف كيف نمحو الحناء من أيدينا .. وقد حاولنا ذلك كثيرا مستخدمين الطين والحجارة والصابون ..

وكان يطلب إلينا جميعا أن نتوضأ قبل أن نقرأ القرآن .. وأن نتوضأ إذا وجب علينا ذلك ونحن نقرأ .. وكان الواحد منا يرفع يده ويقول : أريد أن أتوضأ يا سيدنا !

وكان يسمح لنا بذلك .. ونذهب إلى أقرب قناة أو ترعة ونتوضأ ..

وكنا نلاحظ أن سيدنا ينهض مرة واحدة ثم يطلب من واحد منا أن يرافقه لكي يصب عليه الماء لكي يتوضأ .. ولم نكن نفهم لماذا هو في حاجة إلى الوضوء .. كأن الوضوء من ضرورات الصغار .. ولا لماذا فقط مرة واحدة .. ويحدث ذلك عادة بعد تناول الفطير المشلتت كل يوم ..

وكنا نسمع شخيرا ينهال علينا من فوق المصطبة .. ولم يجرؤ مرة واحد على النظر إلى أعلى .. لقد نام سيدنا نوما عميقا .. ولكن يجب ألا نتوقف عن القراءة .. وكان يطلب من واحد منا أن يقف بيننا ممسكا عصا سيدنا حتى يراقب الأطفال وهم يرتلون الآيات وكان عليه هو أيضا أن يرددها معنا ، حتى يصحو سيدنا من النوم .. أو حتى يعود من أحد المشاوير ..

وفى إحدى المرات جاء سيدنا فوجد الطفل الذى أمسك العصا يبكى .. فأخذ منه العصا وانهال علينا ضربا : أنا عارف أنكم أولاد أبالسة .. أنا عارف أنكم طلعتوا عينه .. أنا سوف أربيكم ياأولاد ..

ورحنا نصرخ ونبكى . ثم سأله : عملوا فيك ماذا ؟

ولم يكن أحد قد ضايقه .. وإنما هو لا يستطيع أن يتخلص من زنقة البول المفاجئة !

* * *

كانت الحياة منتظمة .. أو رتيبة .. ولكن من حين إلى حين يجيء أناس إلى البيت .. ويسهرون ويتكلمون فى أشياء كثيرة .. بعضها أفهمه .. وأكثرها لا أفهمه .. يتحدثون عن بلاد بعيدة .. وعن أحداث .. قتل وذبح .. وعن الذئاب التى تهاجم القرى وتخطف الأطفال والأغنام .. وعن الذئبة التى لا تستريح إلا إذا أخذت بثأرها .. فاذا قتلوا زوجها ، ظلت تطارد كل الناس حتى تجد الرجل الذى قتل زوجها ، وعندها هذه القدرة الهائلة على معرفته .. وكذلك الأفعى التى إذا قتلوا زوجها ، ظلت تطارد القاتل حتى تجده وتلدغه .. وتقف عند رأسه حتى يموت !

وحوادث السطو .. اللصوص يجيئون من بعيد وفى الليل ينامون فى الحقول . وأحيانا يختفون تحت ماء الترع .. وأحيانا يغطون أجسامهم بالزيت والشحم حتى لا يستطيع أحد أن يمسك بهم . وإذا مسك بهم فإنهم يفلتون .. واللصوص الذين سطوا على بيت العمدة نفسه .. وكان موجودا .. وكان معه الخفراء وشيخ الخفر .. والمأمور أيضا .. فانتهز اللصوص هذا الجمع فى مكان واحد وسرقوا البهائم .. وبعض البهائم ذبحوها وتركوها فى مكانها .. وتشاجر اللصوص وبعضهم اعترف .. وفى إحدى المرات أمسك الخفراء أحد اللصوص واكتشفوا أنه كان امرأة . خرجت تأخذ ثأر زوجها الذى قتلوه من سنوات .. وأعجب بها الخفراء فأطلقوا سراحها لأنها قالت : رجال يلقون القبض على امرأة .. عار والله عار !

وعرفت الخوف . وعرفت أن الرعب يستولى على الريف كله من غروب الشمس .. فاللصوص والذئاب والأفاعى كلها تخرج بالليل .

وعرفت أن القطط بالليل ليست إلا عفاريت أو أرواحا وأشباحا .. وأنها ليست قططا .. وانما هى اتخذت شكل القطط .. ومن يتعرض لها ، فإنها قادرة على أن تصيبه بالشلل وفقدان النطق ..

وتحت كل ورقة فى شجرة ينام عفريت .. وهذه العفاريت تسقط على الناس كالأمطار ليلا .. ولذلك يجب ألا يخرج الطفل وحده .. أما الرجال فهم يحملون النبابيت والبنادق حتى إذا سقط عليهم عفريت قتلوه .. وإذا مات عفريت واحد ، هربت العفاريت كلها !

وعند منتصف الليل ، من كل ليلة تخرج « النداهة » .. وهى امرأة طويلة جدا .. تمشى بين البيوت وتنادى الأطفال .. فينهض الأطفال من نومهم وتضحك عليهم .. ويمشون وراءها .. وتذهب بهم إلى النيل .. ويغرقون ونبحث عن غيرهم .. والنداهة قادرة على أن تتشكل كما تريد .. فهى إذا وجدت فلاحا يعمل فى الحقل ، جعلت من نفسها حمارا .. فيراه الفلاح فيركبه .. وتظل ترتفع وترتفع .. وتلقى به من فوق ظهرها فينكسر دراعه أو ساقه .. وتهرب وهى تضحك !

أو إذا مات واحد من الناس فإن أهل الفقيد يتحدثون عنه طوال الوقت .. ويتخيلون أنه مازال حيا .. ولذلك تذهب النداهة إلى زوجة الفقيد .. وتقترب من نافذتها وتناديها بصوت زوجها .. فتنهض وتطل من النافذة فتجد رجلا مثل زوجها تماما .. وتمشى وراءه لأنه يريد أن يتحدث إليها لآخر مرة .. وأنه خرج من القبر لهذا الغرض .. ويطلع النهار عليها فتجد نفسها فى بلد آخر !

وبعض الأطفال يؤكدون أنهم مروا على الكتاب ليلا فسمعوا أطفالا يتلون القرآن .. إن بيت سيدنا « مسكون » بالعفاريت .. وبعض الأطفال يؤكدون أن سيدنا نفسه من العفاريت .. وآخرون يقولون : بل هو يعيش مع العفاريت .. وأنه متزوج من عفريتة .. وأن زوجته هذه ليست إلا عفريتة .. ولذلك فليس عندهما أولاد .. وأنها تمنعه من مغادرة البيت ليلا .. وإنها تضربه وهو يصرخ .. وأن إناسا كثيرين سمعوه يصرخ .. فلما دقوا الباب ليعرفوا ماذا

يحدث له .. خرج لهم هادئا مستنكرا .. ويقول الناس أنه « يخاوى » الجن ! وأن آباء الأطفال قد شاهدوا سيدنا في المنصورة .. وفي دمياط .. وعندما حاولوا أن يعرفوا ، اختفى .. فسيدنا من « أهل الخطوة » أى يستطيع أن يضع رجلا في القرية ورجلا أخرى في المركز .. وأن إناسا كثيرين رأوه في المنصورة فلما عادوا إلى القرية وجدوه في البيت .. وأن إناسا آخرين شاهدوه في نفس اليوم في دمياط .. وهو يصلى الفجر في « سيدى الباز » في دمياط وفي مسجد سيدى أبو أحمد الشربيني في شربين وفي سيدى البدوى في طنطا !

وفي إحدى الليالي وجدت والدى ووالدتي والخادمة يتسابقون على السلم .. وسمعت الخفير وزوجته والخفراء .. وكان ذلك عند منتصف الليل .. ولم أجرؤ على أن أسأل .. وترددت كلمة اللصوص وكلمة الذئب .. وعرفت أن أحد الذئاب أو أحد الثعالب أو أحد الضباع .. قد هجم على جاموسة وفتح بطنها .. أو على حمار .. أو أنه خطف طفلا كان نائما بين الخفير وزوجته .. وأنهم وجدوا الثعلب قد تسلل إلى بيتنا وخطف الدجاج من المطبخ ..

هل في ذلك الوقت تعلمت أن أنام وقد غطيت رأسي تماما ؟ ! هل الرعشة التي تصيبني كل ليلة وليس لها علاج هي بسبب هذا الخوف .. فلا أستريح إلا عندما أنام إلى جوار والدتي .. أو تجيء هي تنام إلى جوارى حتى أذهب في النوم .. هل عرفت في ذلك الوقت الغطاء الثقيل شتاء وصيفا .. إنني حتى هذه اللحظة أتغطى باللحاف والبطانية ، وبأضعافها شتاء .. ولا أشكو من الحرارة ولا أضيق بها .. بل إنني عندما أذهب إلى أى بلد استوائى ، فإنني أطفىء أجهزة التكييف وأبحث عن غطاء ثقيل .. حتى هذه اللحظة !

هل خوفي من الإصابة بالزكام صيفا وشتاء ، لهذه الأسباب القديمة ؟ !

لقد حاولت أمي أن تستمع إلى نصيحة طبيب من أقاربنا ، بأن تجعلني أعتاد على الغطاء الخفيف بالتدريج ، فكنت أتوهم أن العفاريت هي التي تعريني كل ليلة .. ولم أجرؤ على أن أصارح أحدا بذلك !

وفي ذلك الوقت كنت أجد الراحة الكبرى في رواية قصص العفاريت التي رأيتها من النافذة وفي دورة المياه والتي تمر بيني وبين الحائط ويكون لها مثل صوت الهواء يدخل من تحت الباب .. وكيف أنني رأيت القط يتحول إلى أرنب

والأرنب إلى عصفورة والعصفورة إلى نخلة والنخلة إلى ذبابة تدخل فى أذنى وتظهر كل ليلة .. فإذا صحوت فإننى لا أجدها ..

وعلمنى والدى أن أتلو آيات من القرآن كل ليلة .. وأظل أرددها حتى أنام .. وعلمنى والدى أن الله سبحانه وتعالى يحول حروف الآيات إلى جنود تحرسنى من العفاريت ، وكنت أنام بعمق ولا أرى ولا أتخيل شيئا ، ولكن بقى الغطاء ثقيلا جدا صيفا وشتاء !



حالة فزع في نصف الليل

حالة فزع فى نص الليل

وفى يوم استوقفنى سيدنا قائلا : سوف أذهب معك إلى والدك !

وتطلعت عيون الأطفال . فى رعب . ولكن أحدا لم يستطع أن يفهم . ولا أنا وتقدمنى سيدنا وسرت وراءه حانى الرأس . وفى الطريق يداعبنى الرجال ويقولون : الله يفتح عليك ياسيدنا الشيخ ..

وجاءت سيدة ودست فى جيبى قطعا من سكر النبات وهى تقول : سلم على ماما .. وقل لها هذه بركة من الشيخ عباس .. هى تعرف .. إياك أن تنسى !

ومررت على بيت الطلياني ودق سيدنا الباب . وسمعناه يقول : من الحمار الذى يرفس الباب .. إنطق ياحمار .. ألا تعرف إننى أستحم الآن ..

قال سيدنا : أنا الشيخ سيد

وجاء الصوت : إيه ياشيخ زفت !

ونظر سيدنا ناحيتى فى شىء من الخجل . ثم قال : محمد أفندى فى البيت ..

وجاءه الرد : اخطف رجلك إلى بيت محمد أفندى .. ولا انت على رجليك الحنة .. ولا شاطر تضرب العيال عندما يضعون الحنة على أرجلهم !

إنه يسأل عن والدى ، لابد أن لديه شيئا هاما .. خطأ قد صدر منى فى الكتاب ، لابد أنه سوف يشكو أو يتظلم ..

وأمام البيت هربت من سيدنا ، ووقفت وراء الباب أستمع إلى ما سوف يقوله .

وإذا سيدنا يقول : إن شاء الله تكون مبسوط .. إن « صلاح » يحفظ القرآن وينطقه على أحسن وجه .. وسوف يكون له مستقبل إن شاء الله .

ـ إن شاء الله .

ـ والله ياحضرة المفتش حدث شيء غريب النهارده .. وربنا يسامحني .. وصلاح هو السبب .. وأنا طالب إنك تتوسط .. وتكون واسطة خير .. بإذن الله ..

فقد ذهب معي إلى الكتاب ، مرقص ، زميلي وصاحبي .. وأبوه هو صراف القرية .. ولاحظ سيدنا أن مرقص لا يتلو القرآن ولما طلب إليه أن يرفع صوته .. لم يفعل .. فهو لم يكن معنا في الكتاب .. ولما كرر الطلب لم يفعل فإنهال عليه ضربا .. ووضع قدميه في ، الفلقه ، . ولم يجرؤ واحد منا أن يقول إنه ليس زميلا في الكتاب . ولما ضربه وأوجعه وبكى أصر سيدنا على أن يردد منفردا آيات القرآن الكريم فقال : كهيعص .. فقط ..

ولما طلب إليه أن يكمل لم يعرف فسأله : أنت مين ياواد أنت ؟

ـ أنا مرقص .

ـ أنت إيه .

ـ مرقص .

ـ نصراني ياواد .

ـ أيوه .

ـ نصراني .. وإيه اللي جابك هنا .. يانهار أسود ..

فأشار مرقص إلى أنه جاء معي ، وأنني طلبت منه أن يجيء . فجاء ..

ولم أكن أعرف معنى أن يكون طفل نصرانيا ،وطفل آخر مسلما ، لم أفهم . إنه ككل الأطفال . بل هو أقرب الأطفال وأحبهم . وأنا أذهب إلى بيته وأجلس إلى أمه وأخوته ونأكل ونلعب . وهو يجيء إلى بيتنا . وأحيانا يبيت عندنا ، ورغم أن بيوتنا متقاربة وأمه تزورنا ، وأمي تزورهم .. وأبوه يجلس منفردا مع والدي ويتحدثان ساعات طويلة .

وبدأت أنظر إلى مرقص على أنه إنسان غريب .. مختلف .. وكل الذي اهتديت إليه في ذلك الوقت أنه لا يستطيع أن يجيء إلى الكتاب لأن والده على خلاف مع الشيخ سيد . هذا هو السبب .

هل صحيح ما لاحظته في ذلك الوقت ، أن والده على خلاف مع كل

الآباء .. وأن مرقص لهذا السبب لا يلعب مع واحد منهم ، معى فقط .. هل لأننى أفضله على كل الأطفال ، بدأ الأطفال يبتعدون عنى وعنه ..

ولابد أنه الغضب الشديد هو الذى جعلنى أحرص على مرقص أكثر من أى واحد آخر .. ولابد أن حرصى على الانضمام إليه وإلى أسرته . وفى مواجهة كل الأطفال سوف أحرص عليه أكثر .. ففى مواجهة الأطفال قلت : نعم .. سوف أتزوج أخت مرقص .. اتفقنا !

وكنا فى ذلك الوقت فى السابعة من العمر . وعندما علم والدى راح يضحك . وكان ينتهز فرصة وجود الضيوف ويسألنى : يا صلاح .. هل اتفقت مع تريزة على الزواج ؟

وأقول بكل صدق وسذاجة : نعم .

- هل تعرف معنى الزواج منها ؟

- أنها تجيء إلى هنا وتعيش معنا .

- وأين تنام هى .. إن سريرك صغير .

- مع ماما ..

- وهل إذا تزوجت سوف تضع الحنة فى يديك وقدميك ؟

- لا .

- لماذا ؟

- لقد ضربنا سيدنا .

- وكانت تريزة إذا جاءت إلى بيتنا ، كنت أجلسُ إلى جوارها .. وألف ذراعى حول عنقها . والناس يضحكون وأنا لا أفهم . ولم يكن أحد يعترض على هذا السلوك من طفل دفعه الحب والإخلاص إلى صديق له أن يذهب إلى أبعد مما يتصوره أو يدركه ..

هل فى ذلك الوقت اتجهنا نحن الاثنين - مرقص وأنا - إلى ملاحقة أبناء الغجر ، لكى نلعب معهم ؟ هل كنت أكثر شجاعة من مرقص .. هل مرقص لم يكن فى حاجة إلى أن ينشد شيئا عند أبناء الغجر ، فهو أيضا مثل أولاد الغجر .. فلم يكن فى القرية من الأقباط إلا أربع عائلات متفرقة .. ليس فيها طفل واحد يلعب مع مرقص ولافتاة تلعب مع تريزة ؟

إذن أنا الذى ذهبت إلى مخيمات الغجر .. وكانت هذه المخيمات بالقرب من المحطة . محطة الدلتا .. أى الخطوط الحديدية الضيقة .. والخيام صغيرة متجاورة وحولها عدد كبير من الحمير السوداء .. والكلاب التي تنبح كل من يقترب منها .. وليس هناك إلا رجال كبار فى السن وأطفال .. أما النساء فهن يذهبن إلى القرية يبعن البيض والأقمشة ويقرأن الطالع للنساء ويضربن الودع .. هكذا قيل لنا .

وكثيرا ما حملت الطعام والسكر والأرز لكى أعطيه لأطفال الغجر . إنهم يقتربون ولا يتكلمون ثم يخطفون الذى أحمله أنا ومرقص ، ويتوارون فى الخيام .

ولما رويت لأمى أين كنت .. وجدتها قد ارتدت ملابسها بسرعة . ونادت زوجة الخفير والخادمة . وطلبت منى أن أدلها على مخيمات الغجر . ولما اقتربنا من الخيام ، راحت الكلاب تنبح . وتقدمت الخادمة تسأل عن : مبروكة .

ومبروكة هى واحدة من الغجريات التى تعرفها القرية . وظهرت مبروكة .. أو واحدة أخرى . وإذا بوالدتى تقول لها : هل هذا يصح ؟

وأشارت ناحيتى . ولم تدرك الغجرية ما تقوله . ولم أكن أدرى بالضبط ما هذا الذى يصح أو لايصح .

فأنا عندما جئت أبحث عن الأطفال الغجر لكى ألعب معهم ، جاءت سيدة ، وخلعت جلبابى وحذائى وأعطتنى جلبابا قديما وحذاء مهلهلا . وهى تقول : قل لوالدك يشترى لك غيرها .

وفى اليوم التالى جئت ومعى جلاليب أخرى بعثت بها والدتى . ومنذ ذلك اليوم بدأت صلة عميقة بالغجر .. فى مصر وفى فرنسا وأسبانيا ورومانيا .. وتابعت الغجر .. والروح الغجرية المشردة المتمردة على كل أنواع الحدود والقوالب .. وتصنيف الناس مذاهب وقوالب !

• • •

حفظت القرآن الكريم بعد سنتين وبضعة أيام . ومشاعرى لا توصف . فقد كبرت فى عيون الناس كثيرا . وكان لابد أن أمشى عالى الرأس . وألا ألعب

مثل الأطفال . ثم أن والدتى لم تعد تضربنى .. ولم يعد اسمى صلاح .. وهو اسم التدليل .. وأنا أسمى هو الذى جاء فى شهادة الميلاد .. ثم إننى أذهب إلى الصلاة فى المسجد .. وإذا سمعت القارىء فى المسجد فإننى أتابعه بصوت هامس .. ألست قد حفظت القرآن مثله ؟

• • •

وكانت الخطوة الثانية أن أذهب إلى المدرسة الابتدائية فى القطار كل يوم . وأمام العلوم الجديدة الكثيرة ، فأنا واحد مثل كل الطلبة . فيما عدا « حصة الدين » . فأنا لست فى حاجة إلى حفظ الآيات المطلوبة مع التلاميذ . لقد حفظتها وكل السور وكل القرآن الكريم ..

وتتابعت السنوات . لاجديد لا حوادث . كل شىء عادى جدا . وكان ترتيبى الأول . ولم أستطع أن أشكو إلى والدى أن مدرس الحساب واسمه هيكل أفندى .. وهو رجل بكرش أحمر الوجه طويل الطربوش أخضر العينين يستدعينى من حين إلى حين وأذهب إلى حيث يدرس فى فصل آخر ويسألنى وأجيب ، بينما لم يفلح واحد من أقرانى فى الإجابة . ثم يطلب منى أن « ألقفه » . أى أحمله على صدرى . لكى يضربه هيكل أفندى بالعصا .. وبعد ذلك يطلب منى أن أعود إلى فصلى !

وعرفت التقلص الثانى فى معدتى .. عندما طلب منى هيكل افندى أن أحمل واحدا من إخوتى لكى يضربه . وحدث ذلك أكثر من مرة !

وفى يوم استدعانى ناظر المدرسة . لأجد والدى هناك . ووجدت عددا من المدرسين . ووجدت والدى يقول :

- أنت تحفظ سورة هود .

- نعم .

- اقرأ يابنى .

- بسم الله الرحمن الرحيم : الر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ..

- وسورة مريم .

- بسم الله الرحمن الرحيم : كهيعص . ذكر رحمة ربك عبده زكريا ..

وقال أحد المدرسين : نحفظ سورة الطور .

- بسم الله الرحمن الرحيم : والطور وكتاب مسطور فى رق منشور .

قال والدى : سورة المنافقون .

- بسم الله الرحمن الرحيم : إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون .

قال ناظر المدرسة : ما شاء الله .

ووجدت والدى يقول : ثم إنه يحفظ الكثير من الشعر .. فى هذه السن لا يعرف معنى الذى يحفظه . ولكنه يحفظ وينطق نطقا سليما . وهو قادر على أن يحفظ أية كمية من الكلام الجيد . فبعد أن حفظ القرآن الكريم لم أعد أخاف عليه ..

ثم قال والدى : قفا نبك

قلت :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

- هل تعرف من صاحب هذا الشعر ؟

قلت : القيس

قال والدى : امرؤ القيس . قل : لخولة أطلال

قلت :

لخولة أطلال ببرقة سهمد

ظللت بها أبكى وأبكى إلى الغد

- من صاحب هذه القصيدة ؟

- ابن العبد

- طرفة بن العبد .. قل : أمن أم أوفى ..

قلت :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم

بحومانة الدراج فالمتثلم

- فالمتسلم .. من صاحب هذه القصيدة
- زهير بن أبى سلمى .
- قل : أى محل ارتقى ..
قلت :

أى محل ارتقى
أى عظيم أتقى
وكل ماقد خلق الله
وما لم يخلق
محتقر فى همتى
كشعرة فى مفرقى

- من قال ذلك ؟
- المتنبى ..
- هل تعرف قصيدة عمرو بن كلثوم ؟
قلت :

الاهبى بصحنك فأصبحينا
ولا تبقى خمور الأندرينا
مشعشعة كأن الحص فيها
إذا ما الماء خالطها سخينا
أبا هند فلا تعجل علينا
وانظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا
ونصدرهن حمرا قد روينا
لنا الدنيا وما أمسى عليها
ونبطش حين نبطش قادرينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا
ونحن البحر نملؤه سفينا

ووقف حضرة الناظر واقترب منى وانحنى يقبلنى قائلا : كفى ياولدى .. بارك الله فيك .. فلم نكن نعرف عنك كل ذلك !

وأقترب منى واحد من المدرسين يقول : أنت أستاذ .. أنت لست تلميذا !

وكان هذا هو مدرس « الانشاء » وقد أعطانى صفرا فى موضوع الانشاء .. ثم كتب فى كراستى أنت سرقت هذا الموضوع من أحد الكتب . صفر ..

ولم أكن قد سرقت الموضوع وإنما كتبته . ثم وضعت فيه بعض أبيات من الشعر .. فقد كنت أجد لكل مناسبة أبياتا من الشعر . بل كنت أسرف فى وضع الشعر فى كل موضوعات الانشاء .. هل لأننى أحفظ الكثير .. هل أردت أن أكون مختلفا عن التلاميذ ..

وقبل أن نخرج من غرفة حضرة الناظر ، التفت والدى يقول لى : قل لأستاذك أبيات الحريرى .. هل تذكرها .. سامح أخاك ..

قلت : نعم ..

سامح أخاك إذا خلط
منه الإصابة بالغلط
وتجاف عن تعنيفه
شكر الصنيعة أم غمط
من ذا الذى ما ساء قط
وله الحسنى فقط ؟

ثم وضع والدى يده على فمى ليكمل الأبيات :

محمد خير الورى
من عليه الوحى هبط !

وحين ضحك الناظر والمدرسون ووالدى .. ومدرسون آخرون جاءوا مع أولياء أمور التلاميذ خرجنا .. وعدت إلى البيت !

وكانت بداية شعور عميق عندى لم يبرحنى وقتا طويلا : أنا إذن مختلف عن بقية التلاميذ .. ثم بقية الطلبة بعد ذلك .. والناس أيضا !

وعندما تعمق هذا الشعور واستقر ابتداء من الكتاب فالمدرسة والجامعة ، وجدت فى العزلة والانطواء والقراءة الملجأ الوحيد .. المخبأ الأمين من مخاوف حقيقية ومخاوف وهمية .. ومخاوف تضخمت فى العزلة وكبرت مع القراءة وتمثلت أمامى مذاهب فلسفية بعد ذلك .. ووقعت ضحية لأشياء كثيرة :

فلم أعد أعرف إن كان الخوف هو الأصل أو هى الرغبة فى الانطواء .. هل أنا خائف ولذلك انعزلت ، أو أنا منطو بطبعى واعتدت على ذلك فأصبحت أخاف من أى شكل آخر من أشكال العلاقات الاجتماعية ..

ولم أكن خائفا من شىء محدد .. وإنما أصبحت الخائف العام !

• • •

كان يوم الجمعة .. وكانت غرفتى قد انفتحت نوافذها .. ووجدت حركة غير عادية فى غرفتى .. طشت وأوعية من الماء الساخن .. وبخور . وصلوات ودعوات . وجاءت خالتى « مبروكة » الغجرية .. وراحت تنقش رجلى ويدى وجبهتى باللون الأزرق والأسود . وكنت مستسلما تماما . لم أسأل . وكانت تقول : حلاوتك .. أمير والنبى !

وعرفت أن « السرحان » من صفاتى أيضا .. فلا سألت ولا اعترضت ، وكأننى أتفرج على إنسان آخر أو كأنها رغبتى فى أن أعرف هى أهم من كل شىء .

وأجلستنى على مقعد ووضعت قدمى فى الماء الدافىء الذى راحت تتلو عليه صلوات وعبارات لا أفهمها ثم تشرب منه وتلقى بالماء من فمها .. ثم تنثره من فمها على وجهى .. ثم تنثره فى الغرفة .. وتلقى به على السرير . وتحرق ورقا بعد أن وخزته بالدبابيس .. ثم تلقى بالماء على السرير .. وبالورق المحروق فى كل مكان .. وتطلب منى أن أشرب كوبا قد شربت هى منه .. ثم وضعت فى يدى ورقا محروقا وطلبت منى أن أبتلعه .. وابتلعته .. وأعطتنى قطعا من سكر النبات .. وطلبت منى أن أبتلعه. لم تطلب وإنما أمرتنى بتهديد ووعيد .

ونزعت ملابسى .. وراحت تصب الماء على جسمى .. ثم أتت بملابس نظيفة وألقت عليها الماء .. وارتديت الملابس النظيفة . وانفتح الباب بسرعة ودخلت غجرية أخرى ومعها عود من الحديد الأحمر .. واقتربت منى .. وإذا بى أهرب بسرعة . لأجد نفسى على السلالم خارج البيت متجها إلى المسجد بين صفوف المصلين وأجلس إلى جوار والدى الذى أفزعه منظرى ، ولما لم

يجدنى قادرا على أن أروى له ما حدث .. إتجه بى إلى جانب من المسجد .. وسألنى . وحكيت له . فغضب صارخا : جهلة .. مجانين !

ولما لم يجدنى قادرا على الصلاة من شدة الخوف وكثرة الدموع ، طلب منى أن أجلس وأجفف دموعى !

وفى البيت سمعت القصة . فقد شكت والدتى لجارتها أننى أنهض من النوم فى حالة فزع ورعب دون أن يكون هناك سبب لذلك . وأن هذا الفزع يحدث أول الليل ونصف الليل .

وقيل لها لابد أن يكون قد حدث بعد زيارتى الأخيرة للمقابر وحدى ليلا .. فقد مات أحد أقاربى . وسمعت من الأطفال أن الميت بعد أن يدفنوه يفتح القبر ويطلب شيئا من أى واحد .. والذى يحقق له هذا الشىء يدخل الجنة . ولذلك ذهبت . ولم أجد أحدا . ولما لم أعرف كيف أعود إلى البيت بسبب نباح الكلاب أو صوت الذئاب ، دخلت الضريح وأقفلت الباب وغلبنى النوم فنمت ..

وقيل أيضا إن سبب هذا الفزع يوم سقطت من فوق « النورج » ولولا أن البقرة التى تجره كانت مرهقة ما توقفت عندما سمعت صراخى . وأن الله قد كتب لى عمرا ثانيا . ولكن الخضة والسقوط تحت عجلات النورج ، هى التى أدت إلى تخويف « القرين » والقرين هو أخى الروحى الذى يعيش تحت الأرض والذى لا يفارقنى ليلا ونهارا !

وقال أحد المثقفين من أصدقاء والدى إن هذا الخوف سببه يوم تمت « طهارتى » فقد كنت نائما .. وفوجئت بحلاق الصحة . ثم إنهم كتفونى .. ومثل هذه الحالة ، تطارد الأطفال وقتا طويلا !

ولكن الغجرية « مبروكة » هى صاحبة فكرة « الكى » بالنار .. ليذهب الخوف والأرواح الشريرة .. ولم يقل أحد ، أين موضع الكى .. فى الرأس أو فى كعب القدم أو فى الذراع أو فى الكتف .. ووجدت شيئا من الحكمة فى هذا الذى كانت تفعله الغجرية .. فلكى أعود إلى حياتى الطبيعية بلا خوف ، لابد من الكى بالنار .. لابد من الحديد والنار . إنه ثمن فادح !

كأنه من الصعب ألا يكون الإنسان طبيعيا .. فإذا أراد أن يكون قويا سليما سويا .. مثل بقية خلق الله فلا مفر من الألم .. من الخرافة التي تحرق ، وتظل آثارها مدى الحياة !

وكثير من البذور التي تركها ظلام الريف وحقوله وأزقته الضيقة والعواء والنباح والخوار والنقيق بقي في خيالنا يقاوم العلم والحضارة .. ويظهر في الذكريات أو في الأحلام .. أو في المخاوف التاريخية .. لقد سافرت إلى أركان الدنيا جوا وبرا وبحرا .. ومن حين إلى حين تقفز قصه غريبة ليس لها أساس .. ولاأعرف كيف ظهرت ، ولاتبعا لأي منطق .. مثلا : كنت في جزر هاواي أتمدد على شاطيء وكيكي الجميل .. وأستطعم الآيس كريم في نصف جوزة الهند .. الواحدة في حجم البطيخة وفجأة ومن غير مقدمات وبلا معنى ولا علاقة وجدتني أغني :

إن كنت يوم رايح كفر الدوار
على الشمال زور أبو حمص
تلاقي محل عليه فنيار
فيه البضائع راحة ترقص

وسجلت هذه الحكاية في كتابي « حول العالم في ٢٠٠ يوم » دون أن أهتدي إلى تفسير .. فلا وجه للشبه بين أبي حمص وكفر الدوار وهونولولو .. ولا وجه للشبه بين ترعة المحمودية وشاطيء وكيكي على المحيط الهادىء .. ولا فول الحاج عطية البكاش والآيس كريم بجوز الهند .. إذا كانت هونولولو هي الجنة فمن المؤكد أن أبو حمص هي جهنم الحمراء أعدت للكافرين !

ومرة أخرى كنت في مدينة « تاج محل » بالهند .. وفجأة وجدتني أقول :
ياعم جوزة من الهند
ومركب عليها غاب
أنا أخذت منها نفس
والعقل مني غاب
ياعـم ..
وأنا لا أدخن ولاأدخنت .. ولاعلاقة بين الجوزة وبين غياب العقل وبين هذا

الأثر المعمارى الجميل الذى أقامه السلطان لزوجته الوفية ، فكان بناؤه تحفة تاريخية !

وهى من أغنيات الريف ..

وفى الفاتيكان كنت أحضر قداسا للبابا يوحنا الثالث والعشرين .. وتفضل ومد يده على رأسى وخلع الطاقية ووضعها على رأسه ثم أعادها بركة .. وحقدا من كل الموجودين ..

لم أعرف أهمية الذى فعله صاحب القداسة إلا عندما خرجت من كنيسة القديس بطرس ، وهجم الناس على رأسى وخطفوا الطاقية ومزقوها مائة قطعة .. وكل واحد احتفظ بقطعة منها .. بركة حتى الموت !

ولم أكد أرى الراهبات وقد خرجن من الفاتيكان .. فى ملابسهن البيضاء كالطهارة والصفاء والإيمان .. شقراوات جميلات .. خرجن حانيات الرؤوس وتلاشين من الجماهير .. فوجدتنى أردد ما كان يقال فى أغانى الأفراح فى الريف :

يانوم العازب ياذله
ده نومة الكلب أحسن منه
يحط قميصه تحت رأسه
والمخدة بنات رجليه
يانوم العازب ..الخ

لاوجه للشبه ولامبرر ..

وفى كثير من الأحيان أجد متعة فى البحث والمقارنة ، ومطاردة السبب القوى الذى جعل شيئا كهذا قديما يطفو على الذاكرة ..

كأننى كنت أضعها تحت رجلى عشرات السنين .. ولما رفعت رجلى ، هربت إلى رأسى .. أو كأنها كان يجب أن تخرج من اللاشعور ، لتموت بعد ذلك .. وجاء دورها لتموت .. أو كأنه العقل نفسه تعب من الفرامل والضوابط والسلاسل والقيود والكليشات لكل أحداث الطفولة ، فأفلحت هذه الحادثة فى أن تهرب من عقلى إلى قلمى ، وتجعلنى أدوخ وأقتفى أثرها فى كل مكان ..

ولكن لابد لهروبها من اللاوعى ولظهورها سبب . لابد أن هناك مناسبة ما استدعتها .. وليست هذه المناسبة واضحة عندى حتى الآن .

فما هى هذه المناسبة ياترى .. لابد أن اهتدى إلى ذلك .. فأنا اهتدى بالوعى إلى اللاوعى .. ولاتزال حياة المفكر بحثا مستمرا فى جيوبه وجيوب الآخرين وعقولهم وعقله ، وقلبه وقلوبهم .. وليس هذا القلم إلا سنارة .. مصيدة .. عصا يتوكأ عليها ويدق بها الأرض والأبواب .. ويهش بها على غنمه الشاردة فى طفولته وشبابه ورجولته .. وضد الآخرين !

وأنا عادة استسلم لهذه الحالة الغريبة .. وأحيانا أضيق بها لأنها توجع دماغى .. ولكن لا أعرف كيف أتوب عنها .

هل أقول لك ما الذى قفز إلى قلمى حالا وكأنه شتيمة لى . ما جاء فى رواية توفيق الحكيم « يوميات نائب فى الأرياف » .. جاء :

تهيتك ما انتهيت
والطبع فيك غالب
وديل الكلب ما ينعدل
لو علقت فيه قالب !

* * *

الله يسامحك .. الله يسامحنى !



جاء الحب .. ذهب الحب

جاء الحب .. ذهب الحب

كنت طالبا فى السنة الأولى الثانوية .. نجحت فى الابتدائية وكان ترتيبى الأول .. ولابد أن أكون الأول فى السنوات الخمس القادمة أيضا .. وفى الثانوية العامة .. لابد ربنا يسهل ..

وفجأة لاحظت أننى فى كل مرة أفتح الكتاب أجد صورة أمامى .. هى سمراء شعرها أسود .. حاجباها غليظان .. ووجهها حزين . وأمد يدى إلى الورق أمامى ألمس هذا الوجه لا أجده .. إذن من أين تجىء هذه الصورة ؟ من دماغى . كيف ؟ لا أعرف .. ولم يكن فى استطاعتى أن أعرف فى ذلك الوقت .. إذن الصفحات هى الشاشة ودماغى موجود به الفيلم والمصابيح القوية التى تعكس الصورة . كيف ؟ لم أناقش نفسى . ولو ناقشت فإننى لا أفهم .

إذن هذا هو الحب ..

ومعناه أن تظهر صورة من دماغك وتمنعك من القراءة ومن التفكير . وهذه صورة فتاة أعرفها . وهل صحيح أننى أعرفها . رأيتها مرة أمام المكتبة الفاروقية . تمشى وحدها . وكانت فى مشيتها تقترب من المكان الذى أقف فيه . هى تمشى وأنا سارح لا أراها ولا أرى غيرها .. ولا أعرف ما الذى كان يشغلنى فى ذلك الوقت .. ولاتمضى دقائق حتى يجىء بقية الزملاء ونتمشى على النيل من أول المنصورة إلى آخرها . ولا أعتقد أننا كنا نرى شيئا مما حولنا . فنحن نتكلم فى الأدب والفلسفة والشعر . والقليل جدا فى السياسة . ولم أكن أنا الذى يتكلم . وإنما الزملاء الذين يرددون ما يقال فى بيوتهم من حوار بين الأب والأصدقاء والأقارب . وهذا ما لم أعرفه .. فوالدى بعيد عنا . ولذلك ليس لنا أصدقاء كبار . فلا حوار ولا مناقشة فى السياسة أو فى أية قضية أخرى . ولذلك فكل مشاكلى « مستعارة » من الكتب . ولا أظن أننى فى ذلك

الوقت كنت أقرأ الصحف أو المجلات . ولكن أراها أحيانا . ولم أشعر بضرورة قراءتها .. ولا بأن هناك نقصا لأننى لاأقرأ ما فيها . ولم أجد أحدا من الزملاء يتحدث عن الصحف والمجلات .

وفى اليوم التالى كنت أرى هذه الفتاة أيضا . واعتقدت أن أتابعها بعينى ولذلك أستطيع أن أصفها : نحيفة . سمراء . طويلة . سوداء الشعر . لها مشية غريبة . فقدماها منفرجتان كأنها بطة أو أوزة .. وتهز رأسها بصورة عصبية ، فيتحول شعرها من جانب إلى جانب . ثم أنها تنظر ناحيتى .. تنظر فى عينى . ولا تقول شيئا . لا عيناها ولا وجهها ولا شفتاها . ولا شيء . أو كأنها تريد أن تقول شيئا .

وفى يوم تخلف الزملاء . وانتظرت طويلا . وقررت أن أعود إلى البيت . وعندما وجدت الفتاة قد اقتربت فى اللحظة التى تحركت أنا أيضا .. ودون قصد وجدت نفسى قريبا منها إلى جوارها .. أمشى وراءها . ولما اقتربت من الناس تأخرت عنها . ولم ألاحظ أنها قد أسرعت فى مشيتها . وإنما هى تأخرت أيضا . كأنها تريد أن نمشى معا . وتوقفت حتى نمشى معا . فتوقفت هى أيضا .

وفجأة سألتنى : كم الساعة ؟
قلت : لا أعرف .

فنظرت فى ساعتها وقالت : السابعة .. ولكن ساعتى غير مضبوطة .. أنت رايح فين ؟

وكان هذا الحديث مفاجأة . وارتبكت . ولم أرد عليها . ولابد أن يكون وجهى قد احمر تماما . ثم عادت تقول : أنا أخت فريد .. هو الآن فى القاهرة .. أنت تعرف فريد ؟ قلت : أعرفه ..

وأظن أنها هى التى تكلمت طول الوقت . ثم إذا بها تقول لى أنها جاءت هى ووالدتها وزارت والدتى من بضعة أيام . فقد كانت مريضة جدا . وكانت هى ووالدتها فى زيارة أقارب لهم فى نفس البيت . ثم إنها دخلت غرفتى ووجدت كتبا كثيرة على مكتبى . ثم إنها رأت أنه من الضرورى أن أفتح شباك مكتبى . فالغرفة رطبة جدا . وهى مندهشة كيف أننى أذاكر فيها . ولكن علمت من والدتى أننى أضع بطانية على ظهرى وكتفى وطاقية من الصوف .. إننى

مزكوم معظم الوقت .. وإننى أنام على المكتب وكثيرا ما سقط المصباح فأحرق كتبى أو أننى اقتربت منه جدا فأحرق رموش عينى ... وأننى وحيد تماما . ليس لى أصدقاء . ولا أزور أحدا ولا يزورنى أحد . وأنى أكثر أخوتى حنانا بأمى وأبى . وأن أمى إذا مرضت فإنها تخفى عنى مرضها حتى لا تعطلنى عن المذاكرة . وأن أمى إذا توجعت فإنها تضع رأسها تحت اللحاف حتى لا أسمع آهاتها .. فنومى خفيف جدا . ويكفى أن أسمعها تقول : آه .. لأظل ساهرا حتى الصباح .. ثم قالت إن أمى روت لأمها ولها أيضا ، كيف أننى لم أذهب إلى المدرسة منذ يومين وظللت أبحث لها عن دواء فى كل الصيدليات .. فى المنصورة وطلخا .. ثم ركبت القطار إلى السنبلاوين . وأنها لذلك لا تطلب منى أن أشترى لها أى دواء .

وقالت لى أن أخاها فريد لا يهتم بأحد .. لا بأمها ولا أبيها ولا أخوتها .. وإنها عندما شكت له أن الشبان يعاكسونها فى الشارع ، لم يهتم . حتى عندما قالت : أن أصدقاءه يعاكسونها ، لم يظهر عليه أى شىء من الاهتمام . وقالت إنه يعاكس أخوات أصدقائه إذن لا مانع عنده من أن يعاكسوها هى أيضا . وفى إحدى المرات طاردها واحد منهم وأمسك يدها ، وقال لها كلاما لا يليق . وبكت وشكت لأخيها .. وكل الذى قاله لها : إقلعى الجزمة واضربيه على دماغه !

ثم نظرت ناحيتى وقالت لى : ولكنك مختلف !

أما كيف انتهى هذا اللقاء .. أو هذا السير معا . كل الذى أذكره فى ذلك الوقت أننا سرنا معظم الطريق الواحد وراء الآخر . أنا الذى أمشى وراءها . ولكن عندما اقتربنا من شارعنا سرنا معا . ووقفنا أمام بيتنا .. وأشارت بيدها إلى بيتها ، وكان يبعد بضعة أمتار .. ثم قالت : سعيدة .. أشوفك غدا .

فى تلك الليلة كانت صورتها وصوتها على صفحات الكتاب .. وفى مصباح أضعه أمامى .. وفى السقف .. وصوتها كان يجىء من أذنى .. إذن هذا هو الحب .. أو بداية الحب .

إنها أول فتاة أقترب منها ، أو تقترب منى .. جاءت إلى بيتنا . ورأت أمى . ورأت غرفتى .. وسمعت حكاياتنا . لقد دخلت حياتنا .. وحياتى . فما الذى ياترى قد حدث فى بيتنا ؟

أمى مريضة ؟ لا غرابة فى ذلك .. ولا عيب . غرفتى صغيرة رطبة مخنوقة ؟ صحيح . والنافذة مغلقة وهى لذلك رطبة .. يتساقط من جدرانها الجير على الأرض .. ثم أننى أضع حصيرة على الحائط ورائى .. وأضع الأغطية على كتفى . تماما كأننى واحد من أهل الاسكيمو الذى يصنع بيته من كتل الجليد .. وكانت تنظر إلى جبهتى كثيرا .. إن الأحمر فوق حاجبى الأيسر سببه أننى نعت وأنا أذاكر فأحرقنى زجاج المصباح ..

فى المدرسة رحت أبحث عن أخيها فريد .. إنه فى فصل آخر .. وكنت انظر إليه من بعيد .. إنه أبيض وهى سمراء .. إنه مرح محبوب من كل التلامذة .. وهو قوى يدخل فى خناقات ويعملون له ألف حساب ..ثم إنه فى فريق الجمباز وهو يقفز إلى العقلة والمتوازيين .. وهو يدخن .. وعندما إقتربت منه ومن زملائه دون أن أتحدث إليه وجدته يروى حكايات غريبة .. عن فتيات ويذكر أسماءهن .. وكيف عاكس فلانة وعاكسته فلانة .. وكيف عاد إلى البيت متأخرا يمشى على أطراف أصابعه .. وأن والدته ضبطته ووعدها بأن تكون هذه هي المرة الأخيرة .. فلو علم أبوه لضربه وحرمه من المصروف .. ولم أفهم شيئا من كل هذا الذى قال ..

ولم أعرف هذا الشعور الغريب الذى كان يدفعنى إليه .. هل أريد أن أكون قريبا منها هى .. أو من أى أحد على صلة بها .. أو أن أعرف شيئا عن حياتها وعن بيتهم .. هل أريد أن أعترف له ؟ .. أعترف بماذا ؟ هل أعتذر له ؟ .. ولكنى لا أعرفه . وليس هناك شىء عندى يقال . لقد وجدتنى مشغولا بالبحث عن النظر إليه والاقتراب منه .. أما هو فعنده أصدقاء كثيرون . ثم أننى لا أعنيه . والتلامذة ينظرون ناحيتى على أننى مختلف . وأن وجودى بينهم . شىء غير مريح ، فأنا تلميذ فقط . مجتهد فقط .. لا ألعب .. لا أسهر .. لا أعرف أحدا .. وليس عندى ما أقوله .. فلا حياة لى .. لا فى البيت ولاخارجه .. بالضبط نموذج لما لا يجب أن يكون عليه التلميذ المرح الشاب المتدفق حيوية وشقاوة . فأنا أيضا مثلها هى : حزين الوجه .. بلا كلام يقال لا على الوجه ولا من العينين .. أنا تمثال نصفى .. من الممكن أن يوضع فوق ترابيزة أو إلى جوار حائط وتتركنى ساعات وأنت على يقين من أنك سوف تجدنى فى مكانى .

وفجأة وجدت فريد يقول لأحد أصدقائه : إبعد عن ميمى

فقال له : ميمى مين ؟

- أختى .. لا أريد مناقشة ..

ولم يناقشه . أخته إسمها « أ .. » وقد رأيت أنه جاد فى هذا التهديد .. ولكن لم أتحدث إلى أخته . هى التى بادرتنى . أى لم أعاكسها . وهى التى جاءت إلى بيتنا . وهى التى وعدت بأن ترانى غدا .

وفى الغد لم أخرج . ولم أستطع أن أذاكر . وأدعيت لأمى أننى قلقان على صحتها . وأننى أريد أن أنام إلى جوارها واعترضت أمى . ولكن جلست إلى جوارها . ورحت أسألها عن الذين زارونا فى الأيام الأخيرة . ولم أكن أعرف أن كثيرين فعلوا ذلك .. خالاتى .. وأختى .. وكانت غير شقيقة . ولم أنسها قط لا فى ذلك الوقت ولا فى أى وقت . وتمنيت أن تعيش أختى هذه معنا . ولكن أمى رفضت . ولم أفهم . وكانت أختى سمراء طويلة . لونها خمرى وجهها جميل وعيناها أيضا . وصوتها أول فتاة تقبلنى على خدى . وتضمنى إلى صدرها . كانت أكبر منى بخمس سنوات . وكانت تقول : ياأخى .. ياحبيبى .. ياصتايا .

وكنت وأنا طفل صغير أهرب من البيت وأذهب إليها فى بيت جدتها .. ولا أكاد أراها حتى أضع رأسى على كتفها أو على صدرها . ويجىء النوم . ثم أفكر فى معنى ذلك . وكانت هى على استعداد دائم لأن تضع ذراعها حولى وتتركنى أنام . وكان منظرنا يبعث على الضحك وكان الناس يضحكون علينا . فلا تكاد جدتها ترانى حتى تنادى : ياوجنات - اسم أختى - عريسك وصل .. العريس جاء ينام !

وكنت أدخل من الباب وأتجه إليها وهى تقبلنى . وأجلس إلى جوارها . ولا أعرف ما الذى أقول ، وما الذى تقول وبسرعة أجدنى مستغرقا فى النوم .

وكانت أمى تتضايق من ذلك : الناس تقول إيه ؟ يقولوا إنك لا تنام فى بيتك .. إنه لا يوجد سرير .. إنك تعمل طول الليل .. ولا مكان لك فى البيت .. بلاش يا ابنى .

ولم أعرف فى ذلك الوقت ما الذى يجب أن أمتنع عنه .. حتى هذه اللحظة من صورة أختى تملأ هذه الصفحة .. باهتة .. ثم فاتحة .. سمراء .. سوداء .. ثم ملونة .. ثم تقترب وتقترب .. حتى لا أستطيع أن أمضى فى الكتابة . تمنيت أن تعيش هذه الأخت .. أن تعيش لى .. ولكنها ماتت شابة .. مات أقوى وأعمق

شعور فى أعماق أعماقى .. هذا الحب .. الحنان .. الأمان .. ولم أشعر لأية واحدة من أخواتي ، بمثل ما شعرت به لهذه الأخت .. التى كانت أمومتها مبكرة . وكان عطفها وحنانها فيضا لا ينتهى .. فقط نظرتها .. لمستها .. صوتها .. الأمان إلى جوارها ومعها .. وكنت إذا وجدت فستانها قد أرتفع عن ساقيها قليلا فاننى أسحبه إلى قدميها .. وفى إحدى المرات وجدتها تحمل طفلا من أقاربها .. فبسرعة طلبت إليها أن ترفع الطفل لكى أسحب فستانها إلى قدميها .. والأقارب يتعجبون لهذا الشعور العجيب بيننا . وكانت جدتها تقول : سبحان الله .. لو لم يكن أخاها ، لكان أحسن زوج لها .. ولكنها أكبر منه .. مع أنه لم يعش معها فى بيت واحد .. ولا رآها إلا عندما كبرت ..

وروت جدتها أنها بحثت عن أختى فى يوم من الأيام فوجدونا جالسين تحت شجرة من الصباح حتى المساء .. لا أكلنا ولا شربنا .. ولا انتهى لنا كلام ..

هل كانت « آ .. » صورة أخرى من أختى .. هل هذا صحيح أو أن خيالى هو الذى صورها كذلك .. أو هل هو إحساس بفقد أختى جعلنى أتمنى أن أجد تعويضا فى آمال .. أحيانا أجد آمال هذه مختلفة عن أختى .. مختلفة تماما .. فهذه سمراء وأختى خمرية اللون .. آمال سوداء العينين وأختى زرقاء العينين مثل والدها وجدتها وعماتها وخالاتها وأخوالها وأخوتها غير الأشقاء .. ولكن الصوت واحد .. فأختى كان لها صوت مليء فيه « بحة » كأنها تتنفس كلاما .. وكانت إذا ضحكت تراجعت برأسها إلى الوراء .. وظهر على ملامحها طفل برىء .. وكانت مثل كل بنات الريف إذا ضحكت وضعت يدها على فمها حتى لا يسمع أحد ضحكتها ثم إنها تنحنى إلى الأمام كأنها تخفى وجهها أيضا . هل كانت آمال تفعل ذلك .. أو أننى تخيلتها الصورة الجديدة لأختى .. اختلطت الصورتان أمامى . وتداخل الوجهان . وأصبحت أشجع فى مقابلتى لآمال .. أذهب للقائها . وأتحدث إليها . وانظر إلى وجهها وأتابع ألوان الكلام والمعانى على وجهها وقد تلاشت صورتها أمامى وكذلك صوتها . فلم أعد أنشغل بها كثيرا . وإنما أحرص على أن أقابلها . وكنا نلتقى أمام بقال يبيع الحلوى ويبيع الكتب أيضا . وكان اللقاء يستغرق نصف الساعة . وأحيانا الساعة . وفى هذه الساعة نتحدث . هى التى تتحدث أكثر . فى أى شيء .. وكان عندها موضوعات كثيرة . وحكايات لا تنتهى . وكنت لا أعرف كيف أجرى حديثا ..

فحكاياتها مليئة .. أو عندها هذه القدرة الهائلة على تحويل أى شىء إلى حكاية ورواية .

أن أختى يرحمها الله كانت أجمل وألطف . ولكن لم يكن لديها كلام تقوله . كانت مثلى تماما . أما « أ ... » هذه فعندها كتب ومجلات وأغنيات ثم إننى لا أعرف كيف أجيبها على كثير من أسئلتها مثلا : ما الذى تقوله أنت وزملاؤك عندما تتمشون على النيل ؟ .

ويكون جوابى : عن الكتب .

- أى كتب ؟

- التى نقرؤها .

- هل تعرف أنهم لا يعودون إلى بيوتهم مثلك !

- لا أعرف ..

- واحد منهم يعرف إحدى زميلاتى ويحبها .. والثانى خطب إحدى قريباتى .. والثالث سوف يزوجه أهله ..

- لا أعرف .

- إذن عن أى شىء تتحدثون ..

- . . . . . .

ولم أكن أعرف ما هو المقصود بكلمة « الحب » وكل الذى أذكره أنها كلمة « سيئة السمعة » وفى كل مرة أسمعها فى بيتنا أجدها مرتبطة بالإهمال فى المذاكرة والرسوب .. أو التدخين .. أو السهر أو طلب الكثير من المصروف .. ولكن لم أكن أعرف بوضوح ما هى العلاقة بين كل ذلك والحب ..

وكانت من حين لحين تسألنى هكذا : وأنت ؟

- وأنا ماذا ؟

- ما رأيك ؟

- فى أى شىء ؟

- فى هذا الذى أقول ؟

- ويكون الذى نقوله عن الزواج .. وعن المستقبل .. وعن الحب .. وعن

موقف أخيها منها وإهماله لها .. وقسوته عليها .. أو قسوة أمها .. أو الغمز واللمز من صديقاتها اللاتى رأيتها معى أمام البقال .. ثم ظهور السرحان والانشغال عليها وعدم قدرتها على التركيز .. وما الذى يعجبها فى واحد مثلى .. لايهش ولاينش .. ولا يصد ولا يرد .. يمشى ووجهه فى الأرض .. ولم أكن أعرف ما معنى أن يكون لى رأى .. أو تعليق على هذا الذى قالت .. هى قالت وأنا سمعت . انتهى . ولم يكن من السهل أن أحكم على هذا الذى سمعت فور سماعى له .. فأنا لا أعرف الحوار .. لا حوار فى بيتنا .. إن أهم القضايا التى نناقشها فى البيت .. أمى تتكلم . وأنا أسمع . هى مريضة . ولا رأى لى .. جاءنا ضيوف .. أعمل لهم الشاى .. فلا رأى لى .. قل لصاحب البيت : سندفع الإيجار بعد أسبوع .. فلا رأى لى .. أنا أذهب إلى غرفتى وأذاكر وأنام وأصحو .. وأذهب إلى المدرسة ولا رأى لأحد .. ولا رأى لى ..

مرة واحدة سألتنى : هل يرضيك أن أمشى فى الشارع وحدى .. وفجأة أجد أحد أصدقاء أخى يقرصنى من هنا ..

قلت بسرعة : قلة أدب !

وظهرت عليها السعادة . ولأول مرة وضعت يديها الاثنتين حولى . وكانت حركة مفاجئة . وبحركة عصبية مددت يدى وأبعدت يديها .. ولم أفهم ما قالته : أنا سعيدة جدا اليوم !

• • •

وفى يوم كان اللقاء فى حديقة « شجرة الدر » وأنا الذى اخترت هذا المكان . لم أعرف لذلك سببا واضحا . هل أنا أحاول أن أقلد ما يفعله مؤلفو الروايات الغرامية .. فهم يذهبون إلى الحدائق .. أو يجلسون تحت الأشجار .. دائما هناك حديقة وشجرة ورد .. وعصفور .. وأحيانا مجرى ماء .. نبع ماء .. بئر .. ودائما تكون قطرات الندى قد غطت أوراق الشجر .. أما السماء فلابد أن تكون إما صافية تماما .. وأما مغطاة بالسحب .. والأرض إما متوحلة أو سقطت عليها أوراق الشجر .. وهذه الأوراق ذابلة .. وأحيانا نجد أطفالا

يلعبون .. وبسرعة تجيء كرة صغيرة يجرى وراءها طفل .. لينحنى عليه المحبون ويقبلونه .. وتتلاقى عيونهم بما لا نهاية له من المعانى : الحب والزواج والأسرة وسعادة الأطفال .. قرأت فى قصة إسمها « فى غياب القمر » لا أعرف من الذى ألفها ، أن اثنين من العشاق جلسا تحت شجرة .. وكان من بين أغصانها ، أثنان متعانقان .. ولم تجد الطيور مكانا أدفأ ولا أجمل من هذين الغصنين ..

أما الفتى فقال : لأن العصافير كثيرة ، فقد تركت مخلفاتها على الأوراق ..

أما الفتاة فقالت : ما أروع احتمال هذه الأغصان .. وما أشد صبرها .. إنها تعطى الدفء والملجأ والطعام ، ثم تلقى هذا المصير من العصافير ..

قال الفتى : ليست عقوبة .. ولكنها طبيعة الحياة .. فالذى يأكل هو الذى يترك المخلفات .. وهذه المخلفات هى مواد عضوية تقوى قشرة الشجرة .. إن العصافير قد أعطت الشجرة أعظم ما تحتاج إليه .

قالت الفتاة لقد أنسيتنى صوت العصافير وشكل العصافير .. وهذا الحوار الأبدى بينها وهذا العناق الدائم يلف رقابها .. وهاتان الحمامتان .. آه لو تكلمتا .. تفتكر ما الذى يمكن أن تقوله إحداهما للأخرى .. لابد أنهما معا سوف ينطقان بكلمة الحب فى نفس واحد ..

وقال المؤلف تعليقا على حوار العاشقين : طبيعى أن يكون الفتى العاشق مهندسا زراعيا .. وأن تكون الفتاة العاشقة رسامة عابدة للألوان .. لموسيقى الألوان ..

وفى رواية أخرى عنوانها « عذاب الليالى » لا أعرف اسم مؤلفها وجدتنى قد وضعت خطا تحت هذه العبارة قالت الفتاة : لا تقل إنك تحبنى .. فأنا على يقين من ذلك .. الأشجار والأزهار والطيور قد قرأت أفكارك وراحت تردد هذا المعنى ورقة وشجرة ونسمة هواء وفى بريق النجوم .. ولكن أجمل لمعان هو الذى فى عينيك .. لا تقل شيئا .. لقد قلت .. قلت كثيرا جدا .. إنك خلقت غابة من حرفين ومحيطا يضج بالأمواج .. لا تقل .. وأنا لن أقول ، أننى أخشى أن تتداخل النجوم والقمر والسحب والرياح فى ملحمة الحب الأبدى .. وأنا لن أقول . لقد قلت . وهذه الدنيا شاهدة علينا !

هل لهذه العبارات معنى خاص .. لم يكن لها معنى عندى . وإنما تراكيب الكلام وتخريج المعانى بعضها من بعض هو الذى يبعث على دهشتى فى ذلك الوقت .

ولما سألتنى : ولماذا حديقة شجرة الدر ..

كان ردى على ذلك شبيها بمثل هذه الكلمات : المكان أجمل . والأشجار الطويلة على الجانبين .. والأعشاب كالحرير .. والأوراق أكف صغيرة تتضرع إلى السماء .. والأزهار ابتسامات ..

هل أدهشها ذلك ؟ هل أعجبها ذلك ؟ هل قلت شيئا يستحق الإعجاب ؟ ولكن لماذا قلت ؟ لم يكن فى قدرتى أن أفكر وأفسر وأعبر وأبرر .. ولكى أحاول أن استسلم لمشاعر غريبة فى داخلى .. أو أننى تشجعت فأكون متحدثا متكلما أو مفكرا ..

وفى ذلك الوقت عرفت الكتابة .. وكانت كتابتى على شكل مذكرات .. أو على شكل حديث بينى وبين نفسى ..

وسألتنى : ماذا أقول لو رآنا فريد ؟

ولم أكن فكرت فى ذلك .

ولكنى قلت : إننى أشرح لك النحو والصرف .

قالت : ولكنى ممتازة فى النحو والصرف .

قلت : اللغة الفرنسية .

قالت : ولكنى ممتازة .

قلت : إذن التاريخ .

قالت : ولكن ليس معنا كتاب للتاريخ ..

ولا أذكر كيف انتهى الحديث بعد ذلك ..

ولكننا ذهبنا كثيرا .. وكانت هى أكثر تساؤلا عن الذى سوف أفعله فى المستقبل . ولم أكن قد فكرت فى ذلك . فأنا لا أعرف ماذا سيحدث غدا .. بل إن هذا الحاضر نفسه كان غيبا . فلم يكن فى حسابى أن أكمل تعليمى . فالظروف صعبة . وكانت هناك محاولات كثيرة فى أن أتوقف عن الدراسة وأن أعمل موظفا فى أى مكان . فالظروف قاسية . ولكنها والدتى . وهى تنظر

إلى أقاربها من المحامين والمهندسين والوزراء ، قد أصرت على أن أكون شيئا .. فأن أكون تلميذا هو نتيجة جهود مضنية قامت بها والدتي . لم أعرف تفاصيلها إلا متأخرا جدا ..

ولم أنشغل لحظة واحدة بمستقبلي . فكل الذى أعرفه هو أن أذاكر وأن أتفوق . أما بعد ذلك فلا أعرف . ولم أشغل نفسي . ولكنها كانت تفكر فى أشياء كثيرة لم تخطر لى على بال .. هل تحدثت ، عنا ، نحن الإثنين ؟ لست على يقين من ذلك . ولكن لاحظت أنها تقول : نحن .. والناس يقولون عنا .. أمها قالت .. وزميلاتها قلن ، عنا ، ولم يكن فى استطاعتى ، أن أقف بعيدا وأتفرج علينا نحن الأثنين . وكيف تبدو لمن يرانا من بعيد .. هى أكثر حيوية ومرحا وأكثر كلاما وأكثر وعيا بمن حولنا من الناس .. وهى ترفع صوتها وتخفضه .. وتتوقف عن الكلام وأحيانا توارى وجهها .. وفى نفس الوقت لا تغيب عنها كلمة أو لمحة واحدة مما أقول .. وأنا أتوجه إليها طول الوقت ..

- قل لى يا ..

ونطقت اسمى .. وأدهشنى ذلك . ثم وجدتنى سارحا فعادت وقالت : قل لى يا .. وكررت اسمى أيضا ولمسنى ذلك النداء . وسمعت لإسمي رنينا وأداء مختلفا ..

وسألتنى : هل تحب الأطفال ؟

وأجبت : لا أعرف ..

- إذا رأيت طفلا صغيرا كالذى رأيناه أمس .. فما الذى تشعر به .. أنا أشعر كأنه ملاك .. كأنه هابط من الجنة فورا . أنه أجمل مخلوقات الله .. منتهى السعادة أن أرى طفلا وأن أعانقه وأن أقبله .. ولا أمل النظر إليه أو الكلام أو اللعب معه ..

- لم ألعب مع أطفال ..

- لكن بعد أن رأيته لم تشعر بأى شيء نحوه ؟

- كائن ظريف ..

- فقط ..

وكنت أجد الحديث عن التاريخ والأدب وعن الكتب الجديدة ، هو الحديث المفضل . ولم تكن هى تجد فى ذلك لذة .. وكنت أحدثها عن كل زملائى ..

ولكن لا أحدثها عن نفسي . ولا أجد ما أقوله عن نفسي وأسرتي وأقاربي ..

وسألتني : وأنت لم تشعر بالحب نحو أحد ؟ ..

- والدتي .. والدي ..

- أقصد أية فتاة من أقاربك ..

- لا ..

- هل توجد فتيات في الأسرة ؟ ..

- نعم .. ولكن ليسوا في هذه المنطقة ..

- ولا واحدة جعلتك تشعر أنها تحبك ..

- لا ..

- ولكن نفرض أن واحدة جاءت وقالت لك : أنها تحبك .. فماذا تفعل ؟

- قلة أدب ..

- أنها تحبك يكون معنى ذلك أنها قليلة الأدب ..

- أعتقد ذلك ..

- هل أنا قليلة الأدب لأنني أخرج معك .. ونجلس ونتناقش .. ونتحدث عن مستقبلنا .. يعني أنت كنت تحترمني أكثر إذا امتنعت عن الكلام معك .. وإذا رفضت فكرتك بأن نجيء إلى هذه الحديقة .. إذن أنت ترى أنني مادمت قد خرجت معك قد فعلت ذلك مع شبان آخرين .. ومعنى ذلك أنني كذابة عندما شكوت من معاكسة الشبان لي .. ولابد أن أكون قد خرجت مع واحد منهم .. ولكني أقول لك ذلك لكي أعطيك انطباعا أنني أفضلك عنهم .. مع أنني لا أريد منك أي شيء .. كل ما هناك أنني أعرف أنك تلميذ مجتهد .. كلهم يقولون ذلك . وأنك مؤدب خجول .. وأن والدتك تحبك جدا ، ومعها حق .. لأن عندك حنانا عميقا .. وأنا أجد فيك كل شيء ليس في إخوتي .. وأنا أشعر معك بالأمان والراحة ، أكثر من إخوتي .. ومنذ أيام سألتني ماما إذا كنت ما أزال أقابلك ..

- هي تعرف ذلك ؟

- مالك انزعجت هكذا .. طبعا تعرف . وأنا لا أخفي عنها شيئا ..

- ولكني لم أقل لوالدتي ..

- وهل يضايقها أن تعرف ؟

- لا أعرف ..

. وما هو الخطأ في الجلوس معا ، أمام كل الناس .. وفي أيدينا كتب .. ونحن جالسان في غاية الأدب والاحترام ؟ ! ..

وانقطعت الصلة بيننا تماما ، ولم أفكر في الذى حدث . وكأنها ورقة سقطت من كتاب .. أو كأنها ورقة سقطت من شجرة حتى صورتها لم تعد تظهر أمامي .. ولا صوتها في أذني . وحتى عندما حاولت أن أستدعي صورتها وصوتها . لم أجد نفسي قادرا على ذلك ..

بالضبط كنت « مأخوذا » .. مسلوبا .. مخطوفا .. غائبا .. فالظروف كلها كأنها قد استولت على .. فأنا لا أرى بوضوح ولا أسمع بوضوح .. ولا صوتي واضح .. ولا تفكيرى .. وإنما أنا أعيش ببعض نفسي وأفكر ببعض عقلي وأحزن وأفرح ببعض قلبي .. وأنظر إلى الدنيا بجانب من عيني . وأنصت إليها بشيء آخر غير أذني .. فأى نوع من البشر أنا في ذلك الوقت . لا أعرف . ولاحيلة لى في ذلك ..

كنت كواحد له أصابع ولكن لا يستطيع أن يضمها بعضها إلى بعض .. ولذلك كانت تتسرب من بين أصابعي كل الأشياء .. وغير قادر على التركيز حول شيء . ولذلك تتسرب من عيني كل الصور .. كواحد اعتاد أن يضع منظارا على عينه .. واختفى المنظار من سنوات ، فهو يجمع الصور والأصوات والمعاني والعلاقات بصعوبة .. ثم لا يكون منها شيء في النهاية . وهذه القصة أهي قصة حب ؟ .. أو كان من الممكن أن تكون ؟ .. كل الكلمات كل اللمسات .. كل النظرات .. كلها عناصر الحب الحقيقية في هذه السن .. ولكني لم أكن قادرا على اتخاذ هذا القرار .. أو لم أكن قادرا على الاستسلام لهذه الإحساسات .. لم أفلح في أن أقبض على هذه الفرصة ..

إن تاريخ الحضارة الانسانية كلها أساسه : أن الانسان استطاع أن يمسك بأصابعه المواد الأولية وأن يصنع منها البيت والفأس والسهم والعربة .. ومع حركات الأصابع ، تحرك الجهاز العصبي .. والعقل والفكر والإبداع .. اعتاد الإنسان على أن يمسك غصن الشجرة ويجعل منه سهما ويجعل منه قوسا وعصا وسقفا ومقعدا .. وكذلك كل المواد الأخرى ..

فكل شيء قد بدأ من لحظة اكتشف فيها الإنسان قدرته على أن يقبض على شيء .. على معنى .. على إحساس .. وأن يبنى به وأن يبنى عليه وأن

يطوره . وكذلك كل لحظة حب وصدق ..

لم أعد أراها .. وجعلت أمر أمام بيتها ليلا ونهارا .. وأفتعل الوقوف لأى سبب .. وصحوت مبكرا لأراها وهى فى طريقها إلى المدرسة . ورأيتها . ولكنها تعمدت ألا ترانى .. كأننى لم أعد شيئا . بل أكاد ألمس فى نظراتها « قلة أدب » . أى أننى قليل الأدب .. وأننى مثل كل أصدقاء أخيها . أعاكسها . وهى ترفض ذلك ..

وكنت أذهب إلى حديقة « شجرة الدر » وحدى . وليس صحيحا أننى ذهبت لأقرأ . فالكتاب فى يدى وأحاول أن أفتحه . وينفتح الكتاب ولكن رأسى لا ينفتح . فقد انسد تماما . والصفحات بيضاء وصورتها لم تعد تظهر أمامى . رغم محاولاتى ذلك . وكنت انظر إلى الأشجار ، وأتابع العصافير . لقد اختفت معانى الأشياء .. فالأشجار أغصانها واضحة وأوراقها بارزة . وعصافيرها عريانة . ثم أن الحديقة مكشوفة صغيرة . وكنت أراها قبل ذلك أحضانا تحنو علينا وتسترنا . وتمنيت لو أننى ، لو أنها أسندت رأسها إلى صدرى أو رأسى إلى صدرها ونمت . فاليوم راحة ، وهو فى نفس الوقت يوفر على الكلام الذى لا أجده . وإذا وجدته فإنه ثقيل وهى تجاملنى عندما تسمعه . أو هكذا كان شعورى ..

وتذكرت أننى كذبت عليها عندما قلت لها أننى رأيت شابا يعاكس فتاة وهجمت عليه وضربته قلما . وأن الناس طاردوه !

وأسعدها ذلك جدا ..

وسألتنى يومها : يعنى لو أن واحدا عاكسنى الآن ..

قلت : سوف أمزق ملابسه !

قالت : أنت تفعل ذلك مع أية واحدة .

قلت : طبعا ..

قالت : إذن ليس هذا من أجلى وحدى ..

قلت : بل أية واحدة ..

قالت : ولكن إذا عاكسنى واحد فسوف تغضب أكثر . وتضربه أعنف ..

قلت : طبعا ..

قالت : ولكن لماذا ؟

قلت : لأنها قلة أدب .. وإهانة ..

قالت : إهانة لك طبعا .. لأنني موجودة معك .. في حماك وهو قد أعتدى عليك أنت ..

قلت : صحيح ..

قالت : ولكن لماذا تهتم بي كل هذا الاهتمام .. ما الذي يجعلك تهتم بي أكثر من أية واحدة أخرى ..

قلت : لأنك أجمل واحدة في الشارع ..

قالت : أنت تراني هكذا .. منذ متى رأيتني هكذا جميلة .. أنك لا تنظر إلى وجهي .. وإذا نظرت فأنت لا تعطيني هذا الانطباع .. لماذا تخفي مشاعرك .. لماذا لا تحدثني عن نفسك .. عن إحساسك بالنسبة لي .. لماذا تتركني هكذا أتعذب وأستنتج بصعوبة كل هذه الأحاسيس الجميلة ..

وكنت أتعجب لقدرتها على الكلام والتعبير .. وأنا أمامها ، خيبة ثقيلة ، .. وكانت تفسر ذلك بأن أحدا لا يتحدث معي في البيت .. ولذلك فلا حوار .. ولا سؤال ولا جواب .. بينما هي تلتقي مع زميلاتها وتجلس معهن ويفكرن معا في كل هذا الذي يدور بيننا ويتساءلن وينتظرن اليوم التالي للمناقشة من جديد ..

وفجأة وجدتها تقول : أنتَ تحبني .

قلت : نعم ..

ولم أكن صادقا . أو كنت صادقا ولكن لم أعرف معنى هذا الذي قلت ..

وقالت : ولكن تبدو حزينا على ذلك كأنك ما كنت تريد أن تحبني .. أو كأنك آسف على ذلك .. أو كأنك لا تحب أن تنقل لي هذا المعنى ..

بمنتهى الوضوح لقد هزتني هذه الفتاة هزا عنيفا .. كأنها أمسكت رأسي وضربته في الحائط ألف مرة .. والذي سقط من رأسي ، ألقت بعضه في الزبالة .. والباقي وهو مجموعة من المسامير والقلاووظ أمسكته بأصابعها وربطته ربطا متينا ووضعته في رأسي .. ثم ضبطت أذني على صوتها ، وعيني على صورتها ، وعقلي على وجودها .. أما قلبي فهو ، أسفنجة ، عصرته عصرا .. فنزل منه سائل غريب .. مسحته من الأرض بقدميها ..

لقد ضبطتني عليها تماما . كيف حدث ذلك لا أعرف .. مع أنها كانت أصغر مني بسنة .. ولكن تبدو في العشرين رغم أنها في الخامسة عشرة .. وكانت تبهرني بفهمها لكل أنواع السلع والملابس والطهو وأسعار كل شيء في الدنيا .. وأسماء العائلات والفتيات والأزواج والأطفال .. وكل ما يحدث في المنصورة شرقا وغربا . الآن أفكر ليلا ونهارا . وأجرى لكى أراها . وإذا لم أرها اختلطت الصور والأصوات . وأمسح الجزمة وأكوى البنطلون والقميص . وأغسل أصابعي وأظافري وأسناني ..

وظهرت مع إحدى صديقاتها وذهبنا إلى حديقة شجرة الدر لآخر مرة وكنت أتحدث إلى صديقتها . أما هي فكانت لا تتكلم . حدث ذلك عدة مرات .. وكنا نجلس معا ساعات طويلة .. ولم تكن تعبأ كثيرا أن يرانا الناس معا .. كانت تبدو أكثر جمالا : عيناها ووجهها وشعرها وصوتها وعنقها وضحكتها ..

وأمضيت ليلة كاملة أكتب لها خطابا حاولت أن أجعله أدبيا .. وأضع فيه الكثير من أبيات الشعر . وأعطيته لصديقتها . وكنت أقصد أن أنقل لها بصورة واضحة إحساسي نحوها مرة واحدة . كل مشاعري . وفي آخر الخطاب قلت : يبقى أن أعرف رأيك !

ولما قرأت صورة الخطاب أكتشفت أنني لم أكتب إليها خطابا عاطفيا ، وإنما مقالا أدبيا . فالمطلوب أن أعرف رأيها في الأسلوب ..

وفي حديقة شجرة الدرْ جاءت صديقتها وحدها متجهة ناحيتي .. وتلفتت حولها وقالت : أخشى أن يرانا أحد . لقد أعطيتها الخطاب . وقرأته هي .. ثم استأذنتها في قراءته . وغدا خطبتها !

وكلام آخر لم أعرفه .. ولم أتبينه . ولم أفلح في ربط المعاني والكلمات والأحداث السابقة ..

ونهضت . وصافحتني . ولم أجد سببا يجعلني أمشي إلى جوارها أو وراءها . وعدت إلى مكاني من المقعد تحت شجرة . وبسرعة جاء الليل . وأظلمت الدنيا . وانتظرت . وفي حالة من الإغماء أو الذهول وجدتني أمام بيتنا . في الفراش إلى جوار والدتي .. ولم أسمع في تلك الليلة آهاتها !



قباقيب وموسيقى والمستقبل

قباقيب .. وموسيقى .. والمستقبل

وكان من عادتى فى ذلك الوقت إذا سمعت عن شخص لا أعرف عنه كثيرا أن أبحث فى القاموس عن حياته وأعماله .. أو أن أذهب إلى أحد من المدرسين أو أقاربى ..

وفى ذلك الوقت ظهر كتاب صغير عن « شجرة الدر » ملكة مصر التى عاشت فى مدينة المنصورة .. وكان كل ملوك مصر تتم « سلطنتهم » فى المنصورة لأن القوات الصليبية قد هددت مصر واحتلت دمياط وتريد أن تقفز منها إلى بقية البلاد .. ولذلك كان الملك ورجاله وجيوشه يحتشدون فى المنصورة وحولها .

وذهبت إلى حديقة « شجرة الدر » ومعى الكتاب الذى ألفه ممدوح كمال الدين الزهيرى . من أقارب والدتى .. والكتاب مختصر وليس ممتعا ولا جميلا .. ولكن به من المعلومات الطريفة ما يفتح شهية القارىء الشاب .. وكان يقول عن الملك الكامل ناصر الدين محمد أمين الملك العادل أبى بكر بن أيوب . أنه كان يحب الأدب .. وينظم الشعر ويرتجله أيضا . ويقال أن الشاعر مظفر الدين الأعمى قد زاره . فطلب منه الملك الكامل أن يكمل الأبيات التى يطرحها عليه ..

قال الملك :

قد بلغ العشق منتهاه .

قال الشاعر :

وما درى العاشقون ما هو .

قال الملك :

وإنما عندهم نخوتى .

قال الشاعر :

فيه . فهاموا به وتاهوا .

قال الملك :

ولى حبيب يرى هوانى .

قال الشاعر :

وما تغيرت عن هواه .

قال الملك :

رياضة الخلق فى احتمالى .

قال الشاعر :

وروضة الحسن فى حلاه .

قال الملك :

ريقه كلها مدام .

قال الشاعر .

ختامها المسك من لماه .

قال الكامل :

ليلته كلها رقاد .

فقال الشاعر الأعمى :

وليلتى كلها انتباه .

وقرأت أيضا أن ساحرا مغربيا زار المنصورة أيام الملك الكامل . وعرض على واحد من التجار حديقة وقصرا وعشرات الجواميس والحقول والحمير والطيور . واشتراها التاجر . ولما طلع النهار وجد نفسه نائما فى زريبة البهائم .. وراح يسأل الناس عن المغربى وعن الحديقة .. وعرف الناس أن الساحر قد خدعه واستولى على أمواله .

شىء من ذلك أصاب حديقة شجرة الدر . فلم أكن فى حاجة إلى ساحر ليحول الحديقة إلى حقل صغير عريان الأرض والشجر والطير وإلى أن يكون

سحب في السماء هكذا كالحا . غياب فتاة يكفي أن يحدث كل ذلك .
والملك الكامل ذهب إلى دمشق ومرض ومات سنة ١٨٣٤ م .

وكان ابنه الملك العادل نائبا عنه في مصر ، وسلطنوه ، أي جعلوه ملكا على مصر .. ولكن أخاه نجم الدين أيوب كان أكبر سنا وأحق بالملك . فحبس أخاه العادل ثم قتله بعد ذلك .

« وسلطنوا » نجم الدين ملكا على مصر . وهو الذي اشترى عددا كبيرا من المماليك وهؤلاء المماليك طغوا وبغوا وسرقوا ونهبوا فأقام لهم قلعة في الروضة وتركهم هناك .

وكان على أيامه قاضي القضاة ، سلطان العلماء ، عز الدين محمد بن عبد السلام . قاضي قضاة الشافعية في الصعيد . ونقله القاهرة . ولم يكن راضيا عن ذلك . والعز بن عبد السلام هو الذي باع الأمراء في السوق لصالح الشعب .

ومرض الملك نجم الدين أيوب . وانتشر المرض في جسمه . وكانوا ينقلونه على محفة الى المعارك ضد الصليبيين في دمياط . ثم هرب أهل دمياط وحاكمها . فأحرق السلطان المدينة كلها . ومات الملك نجم الدين أيوب في المنصورة .

وكانت له زوجة اسمها « شجرة الدر » تركية جميلة ذكية . كانت تحكم مصر سرا وكانت هي التي توقع المراسيم بخطها . فقد كان خطها يشبه خطه تماما . ولما مات استطاعت أن تخفي وفاته عن الناس . وكانت تطلب إلى الأطباء والضيوف أن يدخلوا ويخرجوا كأنه مازال حيا حتى لا تؤدي وفاة الملك إلى ضعف القوات المصرية ضد الفرنسيين وجاء ابنه توران شاه وسلطنوه . كان أهوج أحمق واستطاعت القوات المصرية أن تأسر الملك لويس التاسع وأن تحبسه في بيت القاضي ابن نعمان . وكان توران شاه سفاحا . فهاجمه المماليك وقطعوا أصابعه .. ثم يديه وهرب وطاردوه وأحرقوه في بيت كان يقيم فيه .. ثم هرب إلى البحر فقتلوه بالسهام والنبال .. وحكم أربعين يوما .. وتوفي في المنصورة .

واتفق الأمراء على تولية شجرة الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأم خليل ، ملكة على مصر .

وكانت توقع المراسيم باسم ، أم خليل ، وكانوا يخطبون لها فى المساجد ويدعون لها قائلين : ، اللهم احفظ الجهة الصالحة ، ملكة المسلمين . عصمة الدنيا والدين . ذات الحجاب الجليل . والستر الجميل والدة المرحوم خليل ،

ولما هاجمها رجال الدين . وخاصة سلطان العلماء العز بن عبد السلام ، خلعت نفسها من السلطنة . وكانت قد حكمت مصر ثلاثة شهور .

وأشار عليها القضاة بأن تتزوج الوزير أيبك التركمانى . وتزوجته وهو أول ملك تركى حكم مصر . وهو أيضا مثل شجرة الدر كان من مماليك الملك نجم الدين أيوب .

وفى ذلك الوقت هبت عواصف على الكعبة أطاحت بكسوتها . وتشاءم الناس .

وجاء هولاكو وهدم بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله .. وزالت دولة بنى العباس .

وبدأ الخلاف بين شجرة الدر . وزوجها الملك أيبك التركمانى . وكانت تقول له : أنا التى جعلتك ملكا !

ثم طلبت إليه أن يطلق زوجته ، أم علي ، وطلقها .. ولكنها اكتشفت أنه طلقها من أجل أن يتزوج امرأة أخرى . فتآمرت على قتله . وفى يوم جاءت الفتيات وألقين عليها ماء الورد والورد .. وقمن بتدليكها وتجميلها . وارتدت أحلى حليها وأجمل أثوابها . وذهبت للملك وانحنت على يده تقبلها . وسعد الملك بذلك . وظن أن هذا قمة العفو والسماح من سيدة الملاح .. وتوارى الإثنان فى الفراش .. وخرج الملك إلى الحمام . وخرج من تحت السرير ومن الحمام رجال ونساء ضربوه وقتلوه بالقباقيب ..

وعرف ابنه الأمير على بما حدث . فألقى القبض على شجرة الدر وأسلمها لأمه . فقتلتها بالقباقيب .. ونقلوها عارية إلى القاهرة يعبث اللصوص فى

ملابسها ويقتلعوا المجوهرات من عنقها وصدرها وساقيها . وكانت هى التى ابتدعت أن تضع المرأة عقودا من الماس حول ساقيها .

وكان يقال لنا ونحن صغار أن كل بنات المنصورة فيهن شبه من شجرة الدر ! جميلات قادرات على الانتقام . وكان أبناء المحافظات الأخرى يقولون : من يدخل المنصورة مفقود ومن يخرج منها مولود ..

فما من شاب دخلها إلا وجد نفسه متزوجا .. كيف ؟ هم يقولون !

أما أوصاف شجرة الدر .. فهى بيضاء ذهبية الشعر زرقاء العينين . مليئة الشفتين طويلة الأنف طويلة العنق . ويقال إن صوتها جميل .. وكان الملك يحب أن يستمع إليها وهى تغنى . وكانت تغنى عند قدميه . فلما أنجبت له ابنه خليل تزوجها فكانت تغنى له على السرير . ولما أصيب بمرض جلدى كان ينام واقفا طوال الليل . لأنه لا يطيق الملابس والأغطية . كانت تغنى له وراء الباب . فلم يكن يحب أن تراه وهو يهرش ويبكى فى نفس الوقت . ولما زاره طبيب مغربى نصحه بأن يمضى معظم الوقت فى حوض من الماء ، فكانت تغنى وقد أدارت ظهرها له .. وكان الملك يحب أغانيها التركية .. وهى التى اخترعت دهان جسم الملك بالزبدة .. وأحيانا بلبن أشجار الجميز .. وأحيانا بلبن الحمير والخيول ..

وكانت شجرة الدر تقرأ له الشعر الذى يترجمونه عن اللغة العربية .. وكانت تنظم الشعر أيضا .

ونحن أهل المنصورة عندنا اعتقاد أن كل واحدة اسمها شجرة الدر سوف تقتل زوجها وسوف تموت قتيلة أيضا ولذلك من النادر أن نجد واحدة لها هذا الإسم ..

وبيوت كثيرة فى المنصورة قيل إنها بنيت فى نفس المكان الذى به قصر شجرة الدر ، وظهرت قصص وشائعات عن ظهور شجرة الدر ليلا فى ملابس الحداد .. ويقال فى ملابس الزفاف .. وكانت عندنا قصص ونحن أطفال أن من يرتدى القبقاب ليلا ويدخل به الحمام ، يظهر له عفريت شجرة الدر .. ولذلك فأطفال كثيرون يخلعون القبقاب فى الليل ..

وفى مذكراتى التى كنت أكتبها فى ذلك الوقت جعلت اسم الفتاة « ش ..ا » أى شجرة الدر .. ورحت أجد فى ملامحها كل ملامح ملكة مصر .. وكأننى نجوت من الموت وكأننى أنقذتها هى أيضا من الموت . وأعجبنى هذا الاكتشاف الذى كان نوعا من الانتقام أو الغيظ من اختفائها .

وفى يوم استمعت إلى محاضرة فى « نادى البلدية » لأستاذ من عائلة نور راح يقارن بين حتشبسوت ونفرتيتى وكليوباترا وشجرة الدر ..

وكلهن ملكات لمصر ..

حتشبسوت عاشت وماتت فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد .

ونفرتيتى عاشت وماتت فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

وكليوباترا عاشت وماتت فى القرن الأول قبل الميلاد .

وشجرة الدر عاشت وماتت فى القرن الثالث عشر بعد الميلاد .

هل كانت المقارنة واضحة فى ذهنى ، لم تكن كذلك ولكن بهرنى هذا العلم الغزير . وكان الرجل لا يتكلم من ورقة . وأكثر الحاضرين من السيدات . هل كانت هى - ش . أ - بين الحاضرين ، لست على يقين من ذلك . ولكنى فى ذلك الوقت كنت أجد شبها كبيرا بين كل الفتيات . لا لأنهن كذلك ، ولكن لأننى لا أنظر باهتمام أو بدقة إلى وجه أحد من الناس .

أما حتشبسوت فكانت عاشقة .

ويقال أن نفرتيتى زوجة أخناتون الذى وصفها بالجمال والدلال . كانت تعلم أنها أجمل مخلوقات الله . والفنان الذى صنع لها التمثال النصفى كان يتغزل فى جمالها .. صحيح أن زوجها أخناتون كان مريضا أو مجنونا أو مختل التكوين ، فله وجه طويل وأنف طويل وشعر امرأة وكذلك نهداها وردفاها . ويقال بل هذا نوع من الكاريكاتير ..

ولكن هذا الكاريكاتير لم يتناول نفرتيتى ..

أما كليوباترة ملكة مصر أيضا ، فهى سابع واحدة لها هذا الإسم . هى يونانية . لم تكن جميلة . وإنما كانت ذكية . وكانت شرهة . مصاصة للدماء . ولولا أن لها دخلا فى تتابع الملوك فى بلاد الرومان . لما دخلت التاريخ . وقد دخلته على أنها أخطر عاشقة . وكانوا يصفونها بأنها « ملك مصر »

- أو يسمونها « ملكة الملوك » ... وأما حتشبسوت فهى ملك الملوك .. » وأما شجرة الدر « فقد أسماها الأستاذ نور « ملكة العبيد » - فهي مملوكة تركية ثارت على غيرها من العبيد الأتراك ، رجالا ونساء ..

شيء عجب قاله الأستاذ المحاضر ولم يناقشه أحد في ذلك ، أنهن جميعا يملكن صوتا جميلا .. النقوش الفرعونية تقول أن نفرتيتي كانت ساحرة الصوت والصورة . وكليوباترة كان صوتها يدوخ وكذلك شجرة الدر .

ثم هذه العبارة : إن الصوت الجميل بغير ذكاء . نهيق حمار .. والذكاء بلا صوت جميل : زئير أسد ..

وما أعرف ما هى العلاقة بين كل ذلك .. ولكن أسعدنى أن يكون للملكات صوت جميل .. ومثلهن أم كلثوم بنت الدقهلية .. ومحمد عبد الوهاب الذى يقال أنه من دمياط (دقهلية) ويقال من المنصورة .. كأنه لابد أن نكون لكل بنات المنصورة صورة شجرة الدر وصوتها أيضا .. حتى إذا كان موت : فالميت سوف يرى أجمل صورة ويسمع أجمل صوت !

ولم أكن في ذلك الوقت ، ولا أحد من زملائى التلاميذ نناقش مثل هذه القضايا وإنما نقبلها ونضيفها إلى معلوماتنا . ونبحث عن شيء جديد فهى مرحلة تحصيل معلومات وجمع أكبر عدد ممكن منها ، أما الغربلة والاختبار والتحليل والتعليل . فسوف تجيء بعد ذلك !

ولابد أن تكون الفتاة « ش . أ » هى المسئولة عن انشغالى بمستقبلى .. وأن يكون المستقبل بعيدا تماما عن القراءة وعن الكتب . فهذه الكتب لم تجعلنى قادرا على الحوار معها .. ولا قادرا على إقناعها أو الاحتفاظ بها . وعندما حاولت أن أقدم لها نفسى . كتبت مقالا أو بحثا فى موضوع غريب .. لابد أنها انتهت إلى قرار مؤكد وهو أن هذا الشاب مجنون .. أو عبقرى يحتاج إلى صبر أيوب فى انتظار قدراته الخارقة .

فقد كان الموضوع : لماذا لايعيش التلاميذ فى بيوت بعيدة عن الأسرة .. ولماذا لا يعيش فى القسم الداخلى بالمدرسة الابتدائية والثانوية والجامعة . حتى يتفرغ للدراسة والتفوق ، دون أن ينشغل بمتاعب الأسرة ، وما يصرفه عن التفوق .

أى لماذا لا يعيش بلا حب يصرفه عن المذاكرة - أى أنها قد عطلت حياتى . وأريد أن أعرف رأيها فى ذلك .

وتذكرت أننى كنت قد بعثت لها قبل ذلك خطابا طويلا جدا . إن قرأته سوف تجد أننى أتحدث عن « تعاسة كل طفل له أب وأم .. وتعاسة أن يكون فى الدنيا أغنياء وفقراء .. ولماذا لا تكون الدولة هى أم كل الناس .. توفر لهم الطعام والشراب فى بيوت لا يملكها أحد .. بل لا داعى لأن يتعامل الناس بالفلوس » ..

قرأته ش . أ ولم تعلق عليه . ولكن أخاها هو الذى قابلنى فى القطار وقال لى : تحت السواهى دواهى .. لم أكن أعرف أنك شيوعى !

ولم أكن أعرف معنى أن يكون الإنسان شيوعيا .. وإن كنت سمعت هذه الكلمة كنوع من الإهانة البالغة والتحذير الشديد لبعض الناس . ثم انشغلت بالبحث عن معنى هذه الكلمة وعن مقارنة هؤلاء الشيوعيين بغيرهم من الناس . وما هى الفروق فى الشكل والتفكير . ولم أهتد إلى شىء . وأقرب الصفات إلى « هؤلاء » الشيوعيين أنهم لا يصلون قط ولذلك فقد وجدت هذه الصفة لا تنطبق على .. ولم أفكر فيما بعد ما هو المقصود بهذه التهمة أو هذه الشتيمة .. ولكن استنتجت أن هذه الصفة . أو هذه الشبهة هى التى جعلت أخته تبعد .. أو تهرب .. أو تتزوج . واقفلت هذا الدوسيه نهائيا ..

ولكن اتذكر أيضا أنها سألتنى : ما الذى قلته لفلان وأنتم فى المكتبة ؟

- بشأن ماذا ؟

- بشأن مستقبلك ..

- لا أذكر ..

- هل قلت له أنك تريد أن تغنى .. وأن تكون لك فرقة موسيقية وراقصة .. وأن تتنقل مع فرقتك بين القرى ..

- آه .. قلت إننى أريد أن أغنى ..

- ... بل أنت تذهب إلى بيت الست شج شج ..

صحيح . أما الست شج شج فهى السيدة « شجرة الدر المليجى » وأنا

لا أعرف من هي بالضبط . ولكن ذهبت مع بعض الزملاء الى القرب من بيتها .. امام البيت . وعندها موسيقى وطبل وزمر . ومن النوافذ نستمع الى الأغاني الشعبية .. وأغاني أم كلثوم ومنيرة المهدية وصالح عبد الحى وعبده الحمولى وداود حسنى .. والاصوات لرجال ونساء وأطفال . ويقال إن هناك فتيات يرقصن أيضا .. أما الصوت الغليظ الذى يشخط وينطر فهو للست شخ شخ . ولم أرها إلا مرة واحدة . كنا قد وقفنا امام الباب نتفرج ونستمع من بعيد . ولانجرؤ على الاقتراب . ولكنها في ذلك اليوم خرجت ورأتنا وقالت : تعال ياواد انت وهو : تعالوا ..

وأكدت لنا لاداعى للخوف . ودخلت ووجدنا أناسا جالسين على الأرض . ومعهم الطبول والمزمار والصاجات . أما هى فتجلس على مقعد وسط كل هؤلاء . فى يدها عصا . وقالت : أنت تريد ان تغنى !

واندهشت جدا . ولكن أحد الزملاء قال : انا قلت لها إن صوتك حلو .. وإذا بها تقول للحاضرين : غنوا له انت وعزولى وزمانى .. وانت تغنى معهم .. وأنا سوف أسمع صوتك .. لاتخجل . كلهم كانوا مثلك ..

وكان هذا هو المستقبل .. وكأنها هى شجرة الدر التى حكمت المنصورة .. فإما أن أسمع كلامها وإلا فالنهاية معروفة .. ولم أفكر . واقترب الزملاء ورحنا نغنى معا .. وفجأة وجدتنى وحدى أكمل الاغنية . إنها اتفقت معهم على ذلك . أى على ان يغنوا معا .. وفى لحظة يتوقفون لكى أمضى وحدى فتعرف خامة صوتى وضربتنى بعصاها وهى تقول : كويس يا واد .. يجى منك .. روح هات والدك .. عندى كلام معه !

ثم نهضت الست شخ شخ وراحت تنادى بأعلى صوتها : ياجمالات .. ياست أبوها .. ياسلطنية .. ياتودد ..

وظهرت فتيات طويلات وقصيرات وبدينات شقراوات زرقاوات العيون أيضا .. يمضغن اللبان جميعا . ويقتربن منها فى انتظار أوامرها . ثم التفتت ناحيتى لتقول واحدة منهن سوف تذهب معك لتعرف البيت وتنادى والدك ؟ !

وخفت من أن يحدث ذلك . فوعدت أن آتى به ..

واختفيت طويلا حزينا على الذى أصابنى . ولم أصارح أحدا بذلك ..

وعرفت « ش . أ » كل هذه الحوادث بدقة وتفصيل عجيب . فالمنصورة مدينة صغيرة . وهى لها علاقات بأناس كثيرين . ثم إن زملائى يتحدثون كثيرا . ولم أكن أعرف ذلك ..

وعندما عدت الى البيت وجدت أحد اقاربى .. وهو شاب لطيف ظريف إبن حظ . وكان يعيب علينا اننا فى حالة حزن دائم . وأننا مدفونون بالحياة وأنه ما لم نجد شيئا نضحك له أو منه فلا أمل فى أن نكون فى صحة جيدة . ولا أمل فى أن أكون شيئا .. وأنه سمع من والدته أن اخاها وكان وزيرا يحب الرقص .. وأنه يطبل لأولاده ويجعلهم يرقصون . وأن صوته جميل جدا . وهو لا يغنى إلا عندما يكون جالسا مع أصدقائه يشربون ..

وسألنى قريبى هذا الذى هاجر إلى ألمانيا ومات هناك : عندك بنت ؟

- بنت يعنى إيه
- بنت تحبها
- لا ..
- يانهارك اسود .. حتى الآن ؟ متى إن شاء الله ؟
- كلهن مثل شجرة الدر
- مش فاهم .
- قاتلات .
- ومن هى شجرة الدر ؟
- لا تعرفها !
- لا أعرفها ..

ويعلق على المعلومات التى قلتها له بسرعة : وما دخل شجرة الدر هذه ببنات اليوم .. إنها واحدة قتلت زوجها وضربتها قتلتها .. حكاية قديمة . ولم أسمع عن واحدة قتلت زوجها .. ثم من قال لك تتزوج .. الخ .

وعرف منى أننى أتردد أمام بيت الست شج شج . وأسعده ذلك . وطلب منى أن نذهب معا .

وأشرت إلى البيت . ووجدته قد دخل . وتعالت الضحكات . وخرج مع

إحدى الفتيات وقد عانقها . وراح يقبلها أمامى . وهى لم تعترض . وسحبنى وقال لى : أدخل ياغشيم !

وسألته الست شج شج . إن كان يعرفنى . فقال إنه ابن خالتى . وقال إننى خام .. لوح .. إيدك والارض .. خليك معايا أنا !

وبسرعة غريبة وجدته قد لف منديلا حول وسطه . وهات يارقص .. وإذا به يقول لى : إرجع انت إلى البيت !

وأضفت هذه التجربة الساحقة إلى سلسلة الفشل فى مجالات أخرى كثيرة ..

وأصبح من عادتى أن أناقش على مهل بعض هذه الأحداث . ولم أجد أنها نوع من الفشل . فلا أنا حاولت . ولا أنا صبرت . ولا كان عندى أمل فى أن أكون مطربا أو راقصا .. ولكن من حين إلى حين أهرب وأبحث عن أى مكان يشغلنى عن نفسى .. وأحسست أننى ثقيل جدا .. ثقيل على قدمى .. ورأسى أثقل من جسمى . وإذا نمت فإن جنبى يوجعنى ، كأننى أصبحت فيلا .

- أما العلامات السوداء حول عينى فسببها نقص التغذية والنوم .

ومن غير تفكير ذهبت إلى بيت الست شج شج . ولم أجد قريبى هناك . ودخلت وجلست ووجدت رجلا يغنى . معمم أعمى . ولم يكن يشعر بأن أحدا قد دخل حتى يسأل : من ؟

فقالوا : تلميذ .

وتساءل : لماذا ؟

قالوا : عاشق

- عاشق شج شج .. الله ؟ هل هى تركت الرجال واتجهت للعيال . هاها ..هاها

- عاشق للفن ياعم الشيخ دهليز ..

- آه كده .. إسمك . لاتريد أن تتكلم .. بالله سيدى .. أريد أن أسلطن .. تانى وحياة عينيك .. مولاى كن لى ..

وراح يغنى بصوت أجش قوى .. ويتمايل يمينا وشمالا وهم يرددون وراءه شعرا قال إنه من نظم الشيخ سيد درويش .. ولكن عرفت فيما بعد أنه من نظم الشاعر المصرى : البهاء زهير .. وحفظت هذه الابيات كما كان يغنيها الشيخ

دهليز .. وكانت مكسورة فقد كان يضيف اليها حروفا وكلمات من عنده ..

مولاى كن لى وحدى
فإننى لك وحدكَ
وكن بقلبك عندى
آه .. ياعينى آه
لى فيك قصد جميل
لا خيب الله قصدك
إن تنس عهدى إنى
والله لم أنس عهدك
أضعت ود محب
مازال يحفظ ودك ..
.. آه ياقلبى آه ..
مالى عليك اعتراض
أذب كما شئت عبدك
آه عبدك .. والنبى عبدك ..
مولاى إن غبت عنى
وا سوء حالى بعدك ..
يالهوتى بعدك .. آه ..
يادهوتى عندك ..آه ..

وكانوا يقدمون للشيخ دهليز ، شيئا يشربه فى القلة .. وقالوا .. كونياك .. وقالوا : بيرة .. وكان صوته جميلا . وكان رجلا لطيفا . وكان بعد أن يفرغ من الغناء ويطلب من الحاضرين أن يرددوا وراءه يسأل كل واحد منا عن حاله .. وكان يقول : إنت يابنى .. إيه اللى رماك هنا ؟ إنت إبن مين ؟ ساكن فين ؟ وتريد أن تترك المدرسة ليه ؟ هل تحفظ شعرا .

قلت : حفظت القرآن الكريم والشعر القديم .

قال : ماشاء الله ..

- وتريد أن تغنى .. وتسرح مع الست شج شج ؟

ـ لا . لا .. فقط أنا أحب أن أسمع الأغاني .. ثم إنني لا أجد مكانا أذهب إليه .. وجاءت السيدة شج شج . واندهشت للحوار والمودة بيني وبين الشيخ دهليز . فقال لها : ماشاء الله .. حافظ القرآن .. وحافظ الشعر القديم كله .. حاجة تفرح .. الله يفتح عليك .

وجلست السيدة شج شج على الكرسي ، هي الوحيدة التي تجلس عليه .. ممتلئة .. طويلة عريضة . صدرها بارز .. وقد تغطي بالذهب والأساور في ذراعيها والخواتم والقرط طويل على الكتف العريان .. وعندما تضع ساقا على ساق تنكشف ساقاها . ولكن أحدا لا يجرؤ على أن ينظر . ولما لاحظت أن أحد الجالسين قد نظر إليها صفعته على خده . دون أن تشرح لماذا ، ودون أن يعتذر . هو أخطأ وهي عاقبته فورا ..

وسألتني : حافظ الشعر القديم كله ..

ـ ليس كله .. أحفظ شعرا قديما .

ـ مثل ماذا ؟

فقال الشيخ دهليز : هل تحفظ قصيدة دعوا الوشاة .. دعوا الوشاة وماقالوا ومانقلوا .. ياواد يابقدونس .. إنت يابن .. تعالى معي .. سوف اغني دع الوشاة .. أنا لا أحفظها كلها إذا اخطأت ردني ..

قلت : حاضر ..

وراح الشيخ دهليز بصوته القوي يقول :

دعوا الوشاة وما قالوا وما نقلوا
بيني وبينكم ما ليس ينفصل
لكم سرائر في قلبي مخبأة
لا الكتب تنفعني فيها ولا الرسل
رسائل الشوق عندي لوبعثت بها
إليكم لم تسعها الطرق والسبل
أمسي وأصبح والأشواق تلسعني
فقلت : والأشواق تلعب بي
قال : وكم أحمل كلبي ..

قلت : قلبى
وكم أحمل قلبى فى محبتكم
ماليس يحمله قلب فيحتمل
قال : قضيتى فى هواكم مشكلة
قلت : قضيتى فى الهوى والله مشكلة
قال : قضيتى فى الهوى والله مشكلة
ما القول ما الرأى ما التدبير ما العمل ؟
يزداد شعرى حسنا حين أذكركم
إن المليحة فيها يحسن الغزل
يا غائبين وفى قلبى مساكنكم
قلت :
يا غائبين وفى قلبى أشاهدهم
وكلما انفصلوا عن خاطرى اتصلوا
أنا الوفى لأحبابى وإن غدروا
أنا المقيم على عهدى وإن رحلوا
فيارسولى إلى من لا أبوح به
إن المهمات فيها يعرف الرجل
بلغ سلامى وتحياتى له
قلت :
بلغ سلامى وبالغ فى الخطاب له
وقبل الأرض عنى عندما تصل
بالله عرفه حالى إن خلوت به
ولا تطل فحبيبى عنده ملل
فالناس بالناس والدنيا مكافأة
والخير يشكر والأخبار تنتقل
قال : وهو ينثنى ويهتز ويتوجع :
إن المليحة تغنيها ملاحتها
لاسيما وعليها الحلى والحلل

ثم عاد يغنى : إن المليحة .. الله ياواد يا دهليز .. الله بإحساسك ياواد .. سألنى إن كانت القصيدة قد انتهت قلت : ما تزال بها بعض الأبيات ..

قال : هات الأبيات

قلت :

ضيعت عمرك فاحزن إن فطنت له

فالعمر صرف الليالى سابق عجل

سابق زمانك خوفا من تقلبه

فكم تقلبت الأيام والدول !

ونهضت الست شخ شخ وهى تقول : والنبى ينفعك .. خده معك .. فعندما تنسى كلمة هو الذى سوف يكمل لك القصيدة .. حلاوته .. خده معك يادهليز .. وعلى الأقل يسحبك بدل من تخبطك فى الشوارع ..

وقال الشيخ دهليز ضاحكا : أهو إنت طلعت مش ولابد .. أنا عندما أترنح يقولون : مسكين أعمى . ولكنهم لا يعرفون أننى أترنح من الانبساط .. ولكن عندما يسحبنى واحد وأترنح يقولون إن سيدنا سكران .. ثم إنه إبن ناس .

فقالت : واحنا اللى ولاد كلب .

قال : معلوم أولاد ستين كلب ! إنت بس اللى قاعدة على الكرسى .. واحنا جنب الحيط على الارض .. وحياتك كلاب .. لولا الكلام الحلو اللى نغنيه كل ليلة !

وفى الطريق إلى بيت الشيخ دهليز ، وهو قريب جدا من بيتنا فى حى الحسينية .. إنه متزوج ويسكن غرفة فوق السطوح . وزوجته تعمل « داية » . وليس عندها أولاد . وهو سعيد بذلك .. ويضحك قائلا : أنا كما ترى .. وزوجتى لكثرة الأولاد التى تنزل على يديها كرهت كل الأولاد !

وقال لى الشيخ دهليز أنه يفضل لى ألا أجىء وحدى .. وإنما أن أكون مع آخرين .. لمجرد أن نكون معا .. وأنى إذا أحببت أن أستمع إليه شخصيا ، فالبيت قريب . ووجدتها فكرة أعجبتنى جدا .

وكنت أذهب إليه أنا وبعض الزملاء . وكان الشيخ دهليز يغنى لنا سيد

درويش والحامولى وصالح عبد الحى وعبد الوهاب .. وكان يدق بأصابعه على الأطباق .. وأحيانا على ظهر الحلة ..

ولما عرف أن واحدا من الزملاء يستطيع العزف على العود .. وأن يصاحبه كان سعيداً . وجاء صديق له يصاحبه على الناى .. وكانت زوجته سيدة لطيفة .. وإن لم تشعر بالضيق من وجودنا ، فكنا نحس أنها فى حاجة إلى الراحة .. وكنا نسحب الشيخ دهليز إلى خارج الغرفة ونجلس عند جانب من السطح . حتى تدخل تنام والشيخ وشيخ آخر والزملاء يغنون ويطبلون . وكان الناس فوق الأسطح المجاورة يصفقون لنا . ويطلبون مشاركتهم لنا ..

كل هذه الحوادث تفاصيلها كانت عند الآنسة « ش . أ » يوما بيوم . ولم أسأل كيف كان لها ذلك ..

وكان الشيخ دهليز هو الذى أطلق على هذه المجموعة من عشاق الموسيقى « فرقة عشانا عليك يارب » . وكان يدعونا لنتدرب فى الغرفة نهارا ، عندما تكون زوجته مشغولة .. أما عدد أعضاء الفرقة فهم سبعة . أما الشيخ الجديد واسمه الإسناوى عبد الصبور ، فكان صوته غليظا ليست له طبقات . مثل حبل مشدود .. لا يعلو ولاينخفض .. وإنما هو قوى دائما ، حتى فى كلامه العادى ..

اما الأغنية فقد اختارها الشيخ الإسناوى وهو يفضل القصائد والموشحات . وذهبنا معه فى آخر حى « توريبل » وهو الحى الأرستقراطى فى المدينة . ووقفنا أمام البيت . ثم أشاروا لنا بأن ندخل . ودخلنا غرفة مجاورة للباب وجاء خادم وقدم لنا « المغات » . وهو الشراب التقليدى عندما يولد طفل . وعلى المغات الساخن يضعون الجوز واللوز والبندق . ثم أشار الخادم أنه حان وقت الغناء . وكان المغنى هو الشيخ الإسناوى وطلب أن نردد وراءه « اللازمة » .. وهو الذى سوف يحددها لنا ..

قال عالى الصوت :
عتب الحبيب فلم أجد ..
آه عتب الحبيب ..
سببا لذلك العتب حادث

ونردد : سببا لذلك ..

واليوم لى يومان لم أره

وهذا اليوم ثالث

ونردد : اليوم الثالث

تعجبت كيف تغيرت

منه خلائقه الدمائث

ما كنت أحسب أنه

ممن تغيره الحوادث

ويلذ لى العتب الذى

صدق الوداد عليه باعث

عتب الحبيب ألذ من

نغم المثانى والمثالث

ونردد : عتب الحبيب ألذ .. ألذ .. ألذ ..

لك لا أشك قضية

انا سائل عنها وباحث

ونردد : قضية أنا سائل عنها .. قضية أنا سائل عنها .. قضية ..

وجاء الخادم وقدم لنا مزيدا من « المغات » والحلوى .. ثم قال : سعادة البيه سوف يحضر حالا .. ومعه بسلامته المولود الجديد .. عاوزين هيصه .. ياعم الشيخ . إنه ولد على خمس بنات .. ربنا يخلى !

واعتدل الشيخ دهليز ليغنى قصيدته الجميلة بصوته الحزين ونبرته الدامعة الباكية . ويعلن الشيخ دهليز أنه سوف يغنى : غيرى على السلوان قادر ..

ويضحك الشيخ الإسناوى : كل هذا الحزن لأنك لم تر زوجتك من يوم تزوجتها .. والله ياشيخ ربنا لطيف بيك .. هاها ..

ولم نضحك ولا الشيخ دهليز . وعرفت فيما بعد أنه كان عاشقا ، معذبا . وأن المعشوقة هجرته وغدرت به .. ولم يستطع أن ينساها . يقول الشيخ دهليز ونحن نردد وراءه كل بيت :

غيرى على السلوان قادر

وسواى فى العشاق غادر

لى فى الغرام سريرة
والله أعلم بالسرائر
حلو الحديث وإنها
لحلاوة شقت مرائر
أشكو وأشكر فعله
فأعجب لشاك منه شاكر
لاتنكروا خفقان قلبى
والحبيب لدى حاضر
ما القلب إلا داره
ضربت له فيه البشائر
ياليل مالك آخر
أبدا ، ولا للشوق آخر
يا ليل طل . يا شوق دم .
إنى على الحالين صابر
.. ويرددها ويعيدها
وينوح بها ويبكى .. نعم ويبكى ويتفطر ..
لى فيك أجر مجاهد
إن صح أن الليل كافر !
ويردد : كافر والله كافر ..

وكان الشيخ دهليز ينشد واقفا يتمايل يمينا وشمالا . ثم أجلسناه وتسابقنا نمسح عرقه ودموعه .. عندما جاء الخادم يعلن : أن سعادة البيه يريد أن يصافحنا ويشكرنا ..

وجاء سعادة البيه .. وانبهرنا نحن التلامذة .. إنه ناظر المدرسة ولكن لم يلاحظ الاضطراب الذى ظهر علينا وبيننا ..

ولكن الشيخ دهليز قال له : أولادك .. تلامذتك فى المنصورة الثانوية ! وانزعج الناظر وسألنا إن كان ذلك حقا . فأسرع واحد منا قال : لا .. نحن من مدرسة الرشاد

وهى مدرسة ثانوية أخرى !



أهلا أستاذنا دكتور هرش

أهلا أستاذنا دكتور هرش

شارع السكة الجديدة فى المنصورة كان بداية أشياء كثيرة فى حياتى .. مجرد صدفة ..

ففى هذا الشارع كان يوجد محل نصر لبيع الورنيش .. صاحب المحل فلسطينى وزوجته من بولندا وعندما ذهبت إليها لأول مرة وجدتها تقرأ رواية « الأبله » لدستوفيسكى وباللغة الروسية .. وحاولت أن تشرح لى عظمة المؤلف والرواية . ولكنى لم أفهم .. أو لم أكن قادرا على استيعاب هذا الذى تقول . ثم من هى ؟

وبالقرب من هذا الشارع توجد دار ابن لقمان الذى أسرنا فيه لويس التاسع أيام الحرب الصليبية . وفى داخل هذه الدار وأمامها وفى الطريق إليها أناس من كل شعوب الأرض .. أشكال وألوان وأحجام ولغات .. وكانت معهم كتب صغيرة وكبيرة بعد أن يقرأوها يتركونها إلى جوار الحائط .. وكنا نذهب لجمعها وأحيانا نطلبها .. وفى إحدى المرات عندما تزاحمنا على هؤلاء السياح متسولين فكانوا يعطوننا فلوسا وأحيانا بقايا الطعام .. ولم تكن تسعفنا الإنجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية ، فنؤكد لهم أننا لا نريد إلا الكتب !

شيء غريب فى ذلك الوقت كنا نجد أصحاب أى بيت وأى دكان يجلسون أمامه .. الرجال والنساء والأطفال . ومن السهل أن نتحدث إلى أى أحد فى أى شيء .. مثلا كانت هناك مكتبة النميرى .. يدخل الواحد منا يسأل : عندك مؤلفات المنفلوطى . فيقال : لا .. نحن لا نبيع الكتب .. نبيع الكراريس والأقلام ولكن إذا أردت أن تجد هذه الكتب أذهب إلى شارع كذا .. وإذا لم تجدها فى هذا الشارع فسوف تجدها عند الست حميدة فى شارع كوهين المتفرع من شارع الشيخ حسين .. إنها سيدة مسكينة . حاول تساعدها .. سأذهب معك ..

ويجىء رجل طيب معنا ليدلنا على مكان بيع الكتب الجديدة والرخيصة ..

وفى يوم كنا نبحث عن التوراة لنقرأ معا وبصوت مرتفع سفر «نشيد الانشاد» بسبب ما قرأنا عن هذا السفر ووصف لما فيه من جمال شاعرى، وموسيقى فقيل لنا : مرقص الجواهرجى .. له أخ قسيس وصوته جميل ويساعد الطلبة .. إذهبوا إليه .. ربما أعطاكم ما تريدون مجانا .. ولو طلبتم إليه أن يشرح لكم كل شىء فسوف يفعل .. إذهبوا إليه ..

ونذهب . ونجد القسيس هناك . ويطلب إلينا أن نزوره فى بيته .. ويشرح ويشرح ونحب فيه أدبه ورقته ومرحه وإخلاصه .. ويطلب إلينا أن نذهب لنسمع موعظته فى الكنيسة .. ونذهب . ونجلس فى آخر الصفوف .

وفى شارع السكة الجديدة «سرجة» . أى مكان لبيع الزيت السيرج . وزيوت أخرى واستخراجها من الكسب .. وكان الكسب فى ذلك الوقت يدوسه الرجال بأقدامهم المغسولة النظيفة . وكنا نقف نتفرج وهم يعطوننا من تحت أقدامهم ونأكل .. ولكننا كنا نذهب نتفرج على «أم أحمد» أجمل بنات الحى فى ذلك الوقت .. إنها فتاة وليس لها ابن اسمه أحمد فهى لم تتزوج .. وقد علموها أن تقول إنها مثل أم درمان وأم قويق وأم الخلول .. كانت جميلة الساقين ..

وقد عرفنا من زوجة عم نصر صاحب محل الورنيش أنهم فى هولندا وروسيا يدوسون العنب بالأقدام ليصنعوا منه النبيذ .. ويدوسون الزهور والورود والياسمين، ليصنعوا العطور .. وأن الكثير من الشعراء كانوا يطلبون من الجميلات أن يفعلن ذلك ثم يجلسن تحت أقدامهن يعتصرن الرحيق من أقدامهن وأصابعهن .. وكان أمير الشعراء الروسى بوشكين يأتى بفتاة جميلة ويصب على رأسها النبيذ ويسرع إلى ارتشافه قطرة قطرة من قدميها .

ولم نكن نعرف ذلك .. ولكن الإحساس الجمالى واحد عند كل الناس .. فكان يرضينا أن نأكل الكسب من تحت قدميها ولما عرف أبوها أننا نجىء لسبب آخر غير شراء الكسب، منع إبنته من ذلك !

وامتنعنا نحن أيضا دون أن نتناقش فى هذا الذى حدث ..

ولما عرفنا أن أم أحمد سوف تسافر إلى القاهرة لتكمل تعليمها هناك .. ذهبنا

إلى محطة السكة الحديد قبل موعد القطار بساعات .. وجاءت أم أحمد وكأنها كانت تتوقع هذا الوداع .. جاءت إلينا تصافحنا وسارعنا إليها .. وعندما اتجهت تركب القطار .. كان حذاؤها قديما .. وكان ذلك آخر عهدنا بقدميها ..

ولا أذكر الأبيات التى نظمناها معا فى جمال قدميها وكعبيها وأصابعها .. ولا من الذى وصف أصابعها بأنها شفاة ، وأظافرها بأنها عيون وساقيها بأنها دمياط ورشيد ..

وفى ذلك الوقت إنهار بيت فى شارع السكة الجديدة .. سقط نصف البيت . وبقى نصفه الآخر .. فمات الأب ولم تمت الأم وماتت البنت ولم يمت الولد ومات القطة ولم يمت الكلب .. وتحت البيت كان صالون حلاقة .. مات الزبون على المقعد ولم يمت صاحب المحل . ووقفنا نتساءل : ما هذه النكتة ؟ ما الحكمة ؟

وتناقشنا فى هذا الحادث طويلا دينيا وفلسفيا واختلفنا ولم نتفق على شىء .. وتساءلنا وذهبنا لرجال الأديان الثلاثة . ولم نقتنع ..

أما نكتة النكت فى ذلك الوقت أن ذهبنا إلى إحدى الصيدليات .. واكتشفنا أن صاحب الصيدلية من أقاربى .. أما زوجته فهى مسيحية ، وكانت جدتها يهودية .. وجدتها قريبة لأحد الأصدقاء وهى الآن قريبة لصديق أيضا ..

أى أننا نحن الثلاثة أقارب - وليم وداود وأنا - وظللنا نبحث طويلا كيف حدث ذلك .. وكنا نطلق على هذه الصيدلية : صيدلية العائلة المقدسة .. وكان لهذا الاكتشاف أثر كبير فى نفوسنا .. جعلنا أقرب وأكثر حرصا على استمرار هذه العلاقة بيننا .. وكعادة الأطفال تعهدنا أمام أنفسنا وأمام السماء ألا ننفصل . فمثل هذه العلاقة النادرة يجب أن تبقى .. ولكن لماذا ؟ لم نتساءل . ولكن شيئا ما قد هزنا بعمق . وقد احترمنا هذه العلاقة حتى ذهبنا إلى الجامعة معا . ثم تفرقنا ..

وفى شارع السكة الجديدة محل ساعاتى اسمه « هرش » ولم يكن بيننا واحد يحمل ساعة فى يده أو فى جيبه . ولا عرفنا حتى إن كانت هذه الساعة ضرورية . يكفى أن نعرفها فى الصباح ، لنكون قبل رنين الجرس فى الفصول . وبعد ذلك لايهم الوقت . فنحن فى المدرسة وهى التى تضبط مواعيد الدخول والخروج .. فاذا خرجنا من المدرسة . فالوقت لا يهم .. ولكن محل

هرش كان غريبا .. فهو أسود اللون من الخارج . وله فترينة صغيرة فيها الساعات من كل حجم . ونحن لا نتوقف عند هذا المحل . وإن كنا أحيانا ننظر فى داخله نجد أناسا قد عكفوا على الساعات يصلحونها رجالا ونساء وهم جميعا من الألمان ..

وكان لابد أن نمر على هذا المحل ذهابا وإيابا . مرة نراه ونحن أمامه ، ومرة نراه من الجانب الآخر من الشارع . وكنا نتنافس فى معرفة المحلات على الجانبين وفى ترتيبها . ولم نكن نخطىء كثيرا . وفى يوم وجدت رجلا خواجة أمام باب شقتنا . قال لى : إننى أراك كل يوم تمر أمام المحل أنت وأصحابك .. أنا صاحب محل هرش ..

وكان يسأل على أحد سكان البيت . ثم طلب منى أن أجىء أنا وأصدقائى لنستمع إلى الموسيقى فى النادى .. وحدد لنا المكان والساعة . وذهبنا جميعا . المكان فى منطقة توريل الجميلة . أحد البيوت . الدور الأرضى . البيت به حديقة ذات أشجار عالية . الطرقات نظيفة . ولما ضغطت على الجرس خرجت سيدة عجوز . ونظرت فى دهشة وشىء من الفزع . فقلت : الخواجة هرش هو الذى دعانا ..

وتغيرت ملامح السيدة . وتركتنا ودخلت ليخرج الخواجة هرش متهلل الوجه مرحبا .. ومن ورائه ظهر شبان وشابات فى مثل سننا ووجوههم ضاحكة : تفضلوا .. تفضلوا ..

ونزلنا الدرج . وكانت قاعة كبيرة . بها مقاعد وبها رجال كبار السن وسيدات أيضا . وتتوسط القاعة منضدة عليها زهور وأكواب وبسكويت . وفى الجانب البعيد من الغرفة يوجد « فونوغراف » له بوق كبير .. وإلى جواره توجد اسطوانات .. وجلس إلى جواره رجل يخرج المنديل من جيبه ويمسح الاسطوانات برقة بالغة .. ثم يضعها بعضها فوق بعض بعناية فائقة . والصمت تام .. فالرجال قد سكتوا والنساء قد انحنين ينظرن إلى الأرض ، ولا ينظرن إلينا . والشبان والشابات فى صمت . وفجأة انبعث صوت الموسيقى ..

وكان هذا أول عهدى بموسيقى غريبة لا أعرف ما هى . ولا أعرف المعنى . ولا أعرف كيف يمكن أن يكون لها معنى .وأنظر حولى فأجد الموسيقى قد استولت على كل الذين حولى . ولا كلمة . ولا نفس . ولا رغبة

عند أحد فى أن يتنفس أو يتحرك .. ولما جاء طفل صغير تسابقت الأيدى لاحتضانه قبل أن ينطق بكلمة .. ثم راحوا ينقلونه من حضن إلى حضن ، فى هدوء شديد ..

ولما سئلت : إن كانت الموسيقى قد أعجبتنى .

نظرت إلى زملائى وقلت : جدا !

والحقيقة ، أننى لم أكن أعرف ما هذا الذى سمعت .. ولا ما الذى أعجبنى ولم يعجبنى .. فهى المرة الأولى التى أستمع فيها إلى موسيقى ليس فيها غناء ولا إيقاع ولا طبلة ولا عود .. إلى أصوات موسيقية فيها شىء لا أعرفه . ولا أظن أحدا من الزملاء قد أسعده أو أمتعه ما سمع . ولكن لدينا رغبة فى أن نعاود الاستماع . وقيل لنا إنه من الممكن أن نجىء كل أسبوع !

ثم كانت أول محاضرة للخواجة هرش فى نادى البلدية .. ولم تكن لها أية علاقة مباشرة بالموسيقى وإنما كانت تتحدث عن الحرب العالمية الثانية التى أعلن انتهاؤها أخيرا .. وعن الحروب عموما وعن العلاقات الإنسانية ، والأسرة الواحدة ، .. وكان ينظر إلينا نحن الثلاثة . وفهمنا المعنى المقصود . ثم عاد فتحدث عن الأدب والفن والجمال وحوادث التاريخ الأوروبى وجاء اسم عرابى باشا الزعيم المصرى واسم ابن خلدون المؤرخ التونسى .

وقبل نهاية المحاضرة بلحظات تحدث عن موسيقى بيتهوفن . وكانت هذه أول مرة أسمع فيها اسم الموسيقار الألمانى العظيم . وأول مرة أسمع فيها تفسيرا لهذه الضوضاء الموسيقية التى سمعناها والتى سوف نسمعها بعد ذلك .. وأول مرة أسمع كلمة ، سيمفونية ، وكلمة ، حركة ، فى داخل السيمفونية وأول مرة أسمع كلمة ، أوركسترا ، وقائدا للأوركسترا ..وكانت السيمفونية الخامسة لبيتهوفن .. وكيف أن بدايتها هى عبارة عن دقات للقدر .. تعلن الهزيمة .. أو تعلن صراع الإنسان مع القدر .. وأول مرة أسمع هجوما عنيفا على النازية وعلى هتلر .. وأشياء كثيرة قالها الخواجة هرش . ولم نفهم منها شيئا .

ولكن فى اليوم التالى عندما جلسنا على سلالم ، المكتبة الفاروقية ، جعلنا نسترجع ماذا قال الخواجة هرش وما المعنى ، ثم من هو هذا الساعاتى الذى يعرف عشر لغات ويتحدثها بطلاقة .. حتى لغته العربية سليمة فيما عدا اللهجة

الأجنبية .. من هذا الذى يستطيع أن يتكلم عن أشياء كثيرة بثقة ويقين ويجدأناسا كثيرين يستمعون إليه .. وكان فى بعض الأحيان يقرأ من ورقة مكتوبة أمامه ..

وفى ركن من القاعة كان جهاز الفونوغراف الذى رأيناه من قبل . أما الموسيقى فهى لبيتهوفن وهى السيمفونية التاسعة .. ولم يعرف واحد منا ما هى العلاقة بين كل الذى قال وبين هذه الموسيقى التى ليست فيها كلمة واحدة ولا أغنية ولا جملة يمكن حفظها أو ترديدها .. ولكنها جميلة .. مؤثرة .. وإذا حاول الواحد أن يشرح معنى الجمال ، فإنه لا يستطيع أن يقول شيئا . وكان عند الخواجة هرش جواب عن هذه الحيرة فهو قال لنا : مثلا رائحة الوردة كيف نصفها ؟ الفرق بين رائحة الوردة ورائحة القرنفل كيف نصفه كيف نحدده .. ؟ طعم اللحم وطعم السمك .. القمر والنجوم فى السماء .. موج البحر .. كل ذلك كيف نصفه .. إن اللغة لا تسعفنا فى التعبير .. ولكن نحن نعبر عن هذه المعانى تعبيرا غير دقيق . أما الشيء المؤكد فهو أن نوعا من الارتياح للذى رأينا وسمعنا وتذوقنا .

وكنا نندهش لهذا الذى يقوله الخواجة هرش .. كلام غريب وعجيب ومنطقى . ولا نعرف ما هى العلاقة بين الساعات والموسيقى ولا بين الموسيقى والسياسة والتاريخ والحروب ..

وسمعنا بعض الناس يقولون للخواجة هرش : يا دكتور هرش ..

وكان الرجل يرد ..

وعرفنا فيما بعد أنه مهندس كهرباء .. وأنه جاء من بولندا أو من ألمانيا . وإنه هاجر إلى مصر . واستقر فى المنصورة . ولم يكن يعرف كلمة عربية واحدة . ولكنه استطاع أن يتعلم وأن يقرأ وأن يكتب وأن يحاضر وأن يكون واضحا . وقيل لنا إنه ألف كتبا فى الأدب والفن والموسيقى .

وكانت له ابنة طويلة نحيفة شقراء تصاحبه أحيانا بالعزف على الكمان لكى يوضح بعض المعانى .

إنه أول من أشار إلى الموسيقى الكلاسيكية .. وإلى الموسيقى الألمانية .. وبيتهوفن بالذات .. وإلى أن هناك كتبا عن الموسيقى وفى الموسيقى وإلى أن هذه السيمفونيات التى سمعناها لها قصص وخلفية نفسية وتاريخية .. وكان ذلك كلاما غريبا للذين لم يعرفوا إلا الموسيقى الشرقية .. وإلا الأغانى ..

وأعتقد أنه بعد شهور من الاستماع إلى هذه الموسيقى الأوروبية بدأنا نتذوق ونستطعم هذا النوع الفخم الضخم من الهندسة الموسيقية أو من الصروح الموسيقية ..

• • •

ومن دكان هذا الساعاتي بشارع السكة الجديدة بدأ السلم إلى الموسيقى الغربية .. إلى أروع متعة من متع الحياة .. إلى هذا الطعام اليومي الذى لا نشبع منه ولا نستغنى عنه ، ويستحيل الانعاش الروحى من غيره ..

ومن ذلك الحين وأنا أجد نفسى متجها إلى الموسيقى الغربية باحثا عنها ، دارسا لها .. مصغيا في صمت وتأمل عميق لها ..

وعندما دخلت الجامعة انضممت إلى «جمعية الجراموفون» - أى الفونوغراف - أى الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية فى إحدى قاعات قسم اللغة الإنجليزية بكلية آداب القاهرة .. وكان يرأس هذه الجمعية ويشجع عليها دكتور لويس عوض وهو أحد أساتذتنا الذين أثروا فى حياتنا الأدبية والفكرية أيضا ، بعدا عنه أو قربا منه ..

وإذا كانت موسيقى بيتهوفن قد بهرتنى ، وإن كنت غير قادر على تفسير هذه المشاعر الغامرة وغير الواضحة ، فإن حياة هذا العبقرى قد أدهشتنى أكثر .. فهو قد ولد سنة ١٧٧٠ مع أمير الشعراء الألمانى هيلدرلن وأمير الفلاسفة الألمان هيجل . وكان رجلا عنيفا قاسيا على نفسه . سيء الظن بالناس . وكان متناقضا منفرا أيضا . فعندما ذهب ليرى الموسيقار العبقرى موتسارت ويطلعه على بعض أعماله الموسيقية اندهش موتسارت لرؤيته وقرأ ما كتبه ثم قال : لا ترفعوا عيونكم عن هذا الشاب ، سوف يكون حديث الدنيا كلها !

وإلى أن مات بيتهوفن لم يقل كلمة واحدة طيبة عن موتسارت !

وكان نموذجا للفوضى فى بيته : البيت قذر .. الأوراق على الأرض وتحت المخدات . الأطباق والحلل على السرير .. الحشرات فى فراشه وفى ملابسه : وكانت أعظم هدية يقدمها الأصدقاء له . هى أن يأتوا له بمساحيق تقتل

الحشرات فى ملابسه وسريره وشعره .. كما كانوا يسرقون ملابسه القديمة ويضعون مكانها ملابس جديدة - لأنه لا يستحم ولا يغير ملابسه !

وكان ينسى أن يأكل أو يشرب .. ففى مرات كثيرة يذهب إلى المطعم . ويجلس سارحا ثم يطلب أن يدفع الحساب ، فيقال له : ولكنك لم تأكل يا سيدى الأستاذ !

فيغادر المطعم دون أن يأكل !

وكان كثير الشكوى من الناس . ومن أنه لا ينال ما يستحقه من التقدير الأدبى والمادى . وكان يبالغ فى ذلك . والحقيقة أن أحدا لم يلق من الإجلال ما لقيه هذا الموسيقار العظيم ، والتقدير المادى أيضا .

أصيب بالصمم وهو فى الثانية والثلاثين من عمره . وكان ذلك حادثا فظيعا . فالرجل الذى يعتمد على أذنيه ، لم يعد قادرا على ذلك .. فانعزل تماما عن الدنيا ولم يعد يستمع إلا إلى الموسيقى الخالدة فى أعماقه . إلى نفسه . فكان هذا الصمم سببا لمزيد من الإبداع الموسيقى .

وقد أدى الصمم إلى عدم الثقة بأحد من الناس .. وقد أخفى هذه الكارثة عن الناس . وكان يتظاهر بأنه سرحان حتى لا يسأله أحد عن الذى قاله له ..

وفى بيت بيتهوفن بمدينة بون عاصمة ألمانيا الغربية نجد الأبواق التى كان يضعها فى أذنيه لكى يسمع .. بدأت الأبواق صغيرة ثم راحت تكبر وتكبر حتى أصبح من الصعب حملها دون إثارة الضحك .

وعلى الرغم من استغراقه فى الإبداع الموسيقى ، كان يشغل نفسه بقضايا ما أغناه عنها .. مثلا قضية إبن أخيه .. مات أخوه وترك ولدا . وأراد الموسيقار العظيم أن يضم هذا الولد إلى حضانته بدعوى أن أرملة أخيه سيئة السمعة .. وذهب إلى القضاء يزمجر ويصرخ ويدق الأرض سنوات حتى حكمت له المحكمة بحضانة إبن أخيه .. وكان إبن أخيه نموذجا للاستهتار بعمه العظيم ..

قضية أخرى : أب كان يضرب ابنته الجميلة يريد أن يرغمها على الزواج من شاب غير الذى تحبه . ويهدده أهل الفتاة ، ان هو لم يكف عن التدخل فيما لا يعنيه .. وقد تدخل بعض تلامذته ونبهوه إلى خطورة ذلك على حياته وأعماله الفنية .

وكان يطارد الفتيات فى الشوارع .. لا يكاد يرى فتاة جميلة حتى يلاحقها ويعاكسها . وكانت الفتيات يقلن له : إذهب واستحم .. خير لك أن تشترى حذاء .. ما هى آخر مرة رأيت فيها الحلاق .. لابد أنك جزار تقلد بيتهوفن فى حركاته .. !

وكان الموسيقار العظيم يحب الحرية ويقدسها .. ولكن فى بيته طاغية من الدرجة الأولى .. يرفض أن يجيء أحد لزيارته . وإذا جاء لن يمد يده إلى ورقة على الأرض . وإذا جاء لن يطيل الزيارة أكثر من دقيقة أو اثنتين !

وكان شديد الغرور . وهذا طبيعى . طلب إليه أحد الأمراء أن يعزف شيئا للجنود الفرنسيين من جيش نابليون . فرفض . فهدده الأمير . فخرج من بيت الأمير يرتاد شوارع المدينة حتى وجد عربة نقلته إلى مدينة فيينا . وهناك وفى بيته حطم تمثال الأمير وداسه بحذائه وهو يقول : ليس بالأمر .. إننى لست طاهيا ولا عربجيا .. إننى أعظم مخلوقات الله لألف سنة قادمة .. !

وهو حقيقة كذلك .. !

هل كان هذا العبقرى مهملا .. ؟ نعم . هل أراد الانتحار ؟ لا .. إذن لماذا يتعاطى ٣٢ زجاجة حبوب مهدئة فى أسبوع واحد حتى مات ؟

من المؤكد أنه كان يطمع فى أن يلقى احتراما أعظم ومالا أكثر .. وكان يضيق فى نفس الوقت بالصمم الذى أصابه . ويضيق بحياته الخاصة المنعزلة المنطوية . ولكنه لا يعرف حلا لبقاء البيت على ما هو عليه ، ونظافته دون أن يتدخله أحد !!

وفى إحدى ليالى الشتاء وفى عاصفة رعدية توفى أعظم الموسيقيين فى كل العصور عن ٥٦ عاما !

• • •

وفى القاهرة عرفت أحد أقاربى وكان عاشقا للموسيقى الكلاسيكية . فقد تعلم فى ألمانيا . وعنده بيت جميل . واسطوانات .. واستعرضت أمامه معلوماتى عن الموسيقى . فوجد أن الذى لديه أضعاف ما عندى . ووجدها فرصة لكى يقنعنى بذلك .. فدعانى إلى بيته . وسمعت ما أسعدنى عن الموسيقى لبيتهوفن

والآخرين . وسمعت عنده ومعه لأول مرة أسماء موتسارت والشتراوس وفاجنر وشومان وريمسكي كورساكوف وبرامز وبيزيه .. وغيرهم

وكانت هذه هي البداية الواسعة العميقة للموسيقى الغربية . وكان لا يسابقني ، وبعض زملائي الذين اصطحبهم إلى بيت هذا القريب ، إلا كثرة الفتيات عنده .. لا أعرف لماذا ؟ ولكن لا يطقن هذه الموسيقى ولكنه كان يرغمهن على سماعها . ولكن يسمعنها على مضض ، ولا يكاد يغيب لحظة في داخل البيت حتى يتهامسن ويتضاحكن ، ويصعب علينا أن نتابع الموسيقى ، وأصعب أن تقول الواحدة : اسكتي !

وسألناه إن كان من الممكن أن نجربه في أي وقت آخر - أي وقت لا تكون هذه الفتيات . وكان يعترض لأنه يخشى أن تكسر الاسطوانات .. أو لأنه كان حريصا على تعذيبنا وعلى أن يتباهى بماله والمعجبات به اللاتي يحشرهن في سيارته الكبيرة .. ويتركنا نمشي على أرجلنا !

وكانت دار الأوبرا في القاهرة هي أروع مكان في هذه العاصمة .. ففيها المسرحيات الموسيقية الغنائية . الأوبرات العالمية ..

وفيها الباليه الذي هو تعبير راقص لموسيقى كلاسيكية لكبار الموسيقيين في الدنيا .

ثم جاءت الفرق الأوركسترالية العالمية بقيادة عباقرة القيادة في زماننا : فورتفنجلر وفون كارايان .

ورأيت الأوركسترا الضخم الذي قرأت عنه ولكن لم أره .. ورأيت قائد الأوركسترا كيف يمسك عصاه ويضبط النغم والإيقاع وكل أنفاس العازفين .. شيء عجيب حقا .

وفي سنة ١٩٥٠ كنت أجلس في أوبرا مدينة سالزبورج بالنمسا ، لافتتاح مهرجان موتسارت ، بعد الحرب العالمية الثانية . أما الذي حدث فشيء لا يهم . لقد نبهوني إلى ضرورة ارتداء بدلة . ولم تكن عندي بدلة . وكدت أبكي . فأنا قد سافرت ساعات طويلة لأشهد الافتتاح . ولحسن حظي وجدت شابا يقترب مني ، وقال لي : أنا جوتفريد .. هل تسبقني ؟

وكان الحلاق الذى قص لى شعرى بالأمس . وذهبت معه إلى الدكان وارتديت بدلة وكرافته ودخلنا معا .. وكانت هذه أول دار للأوبرا أراها فى أوروبا. لا تختلف كثيرا عن أوبرا القاهرة . بل أوبرا القاهرة أفخم . وإن كانت أوبرا سالزبورج أنظف وأكثر إتساعا .

ودخلت الاسطوانات والفونوغراف مكتبى .. وتكدست الاسطوانات من أوروبا ومن روسيا ففيها أرخص الاسطوانات وأخفها وزنا .. وبعد الاسطوانات دخلت الكاسيتات وأجهزة التسجيل .. وتعلقت أذنى بالبرامج الموسيقية فى الاذاعة .. أبحث عن التسجيلات الجديدة للموسيقى الكلاسيكية .

وفى سنة ١٩٥١ وفى مقر إحدى الجمعيات الدينية بالقاهرة ألقيت محاضرة عنوانها « ميتافزيقا الموسيقى » أعجبنى العنوان والسجع بين الموسيقى والميتافزيقيا .. وكان لابد أن أعتذر بسرعة عن هذا العنوان ، وأن أبدد المخاوف التى من الممكن أن يتركها فى نفوس المستمعين .. وكان موضوع المحاضرة عن النطق والانسان والانسجام والجمال والجلال فى الموسيقى الكلاسيكية . وضربت أمثلة لذلك . مع عبارات من موسيقى بيتهوفن وموتسارت وبرامز .. ولا أدعى أننى كنت متمكنا تماما . ولكن كانت عندى شجاعة . وعندى ما أقوله فى الفلسفة أكثر مما أقول فى الموسيقى ..

وكان من بين المستمعين الأستاذ أحمد حسن الشجاعى المايسترو المعروف وصديق الأستاذ العقاد والمشرف على الموسيقى فى الإذاعة .. وطلب التعليق على الذى قلت . وكان لطيفا مجاملا .. ثم أضاف معلومات جديدة عن حرفة الموسيقى والعزف والتأليف ، وهو مالا أستطيع .. ثم طلب من الحاضرين أن يحرصوا على استدعائى من حين إلى حين ، ففى ذلك كسب للفلسفة والموسيقى معا !

واستأنف الأستاذ العقاد الموضوع الذى تحدثت عنه ، وأضاف هو أيضا الكثير عن نفسية الموسيقار وعن التفسير النفسى للعمل الفنى والأدبى .. واختار بيتهوفن نموذجا لكل ذلك .

وكان لابد أن ألقى محاضرة أخرى وفى نفس المكان وأنقل للسادة الحاضرين ما قاله الأستاذ العقاد وما قاله الأستاذ الشجاعى وما سمعته من الموسيقار دكتور

عمر خيرت .. ومن أساتذنا فى الفلسفة اللاتينية مسيو باتريه ، وكان سويسريا وعازفا على الكمان فى الفرقة السمفونية بالقاهرة .

واسترحت إلى الذى قلت وإلى ردود الفعل والتعليق على ما قلت ، وتعليقى على ذلك أيضا .. ورأيت الابتهاج فى عيون الناس .

وعند الباب وجدت رجلا قصير القامة ومعه زوجته . ووجدته رفع البرنيطة وأحنى رأسه إلى الأمام قائلا : مسيو أنيس .. أنا سعيد بك .. وبكل الذى قلت .. هل تذكرنى ؟!

- باه .. طبعا .. أهلا أستاذنا دكتور هرتر .. !



شجرة الدر: ماما وبناتها والأيام المنسية

شجرة الدراما وبناتها والأيام المنسية

نعم كنت مسلطا على نفسى . لماذا ؟ لا يوجد سبب معقول يجعلنى طول الوقت أفكر فى الذى أعمله فى اليوم السابق . وقد كنت أنام عندما أضع رأسى على المخدة فجأة أنام وفجأة أجد النهار قد طلع . لا مجهود أبذله لكى يجىء النوم . وكنت اندهش للذى أسمعه من الزملاء إنهم يشربون الشاى فى السرير أو يقرأون حتى يجىء النوم . وأحيانا لا يجىء . ولكن لا أسأل أحدا .

أما فى ذلك الوقت فقد اعتدت أن أتقلب على الفراش . وأن أدير فى رأسى كل ما حدث طوال اليوم . فما الذى كان يحدث ؟ . لا شىء ذهبت إلى المدرسة . تناقشت تخانقت . ثم سكت . وجاء المدرس وطلب منى عدم الاشتراك فى الالعاب الرياضية قائلا : إقرأ لك كتابا أحسن لك . هؤلاء شبان بايظون يحتاجون إلى تربية .. أما أنت فالله يفتح عليك !

وكان الزملاء يتضايقون من ذلك .. ويضيفون فاصلا ثانيا وثالثا بينى وبينهم . ولم أحاول أن أذيب أو أزيل هذه الفواصل .. فلم يبق لى من كل تلامذة المدرسة سوى ثلاثة .. أحدهم يونانى الأصل والثانى ألمانى الأصل والثالث مصرى . نحن الأربعة أصدق الأصدقاء . ونتفق ونختلف . ولكن على المخدة تدور المناقشات من جديد ، لا أجدنى سعيدا بما قلت أو بما تذكرت أننى قلت ..

وعندما أقارن بيننا فإننى أجدنى الوحيد الذى يصر على أن يرتدى بنطلونا طويلا وقميصا له كم طويل .. ثم إن الحذاء له كعب غليظ مرتفع لا يريحنى أثناء السير الطويل .. ولكنى أنا الذى اخترت ذلك .. لماذا ؟ لم أعرف لأننى لم أفكر . ولم أفكر لأن تفكيرى كان فى اتجاه آخر تماما .. أو على الأصح كان تفكيرى مشلولا .. فأنا معلق التفكير . هناك شىء ما ، يمنعنى من أن أناقش أشياء كثيرة ، لا مع نفسى ولا مع غيرى ..

عندى هذا الشعور بالنقص الفظيع .. مصدر هذا الشعور أن والدى لم يكن معنا . فكم مرة جاءت أوراق من المدرسة ودعوات لحفلات .. وإن سألنى أحد أقول : والدى مسافر .. إنه مريض .. سوف يجيء وصايقنى أن أشاع الزملاء انه مات . ولكن ليس عندى أى دليل على أنه مايزال حيا . كنت أقسم بأنه فى البيت .. وتعالوا شوفوه . ولا أحد يجيء . ربما كان هذا الشعور هو الذى جعلنى أشعر بأن هناك شيئا ما فى حاجة إلى أن أتفادى الكلام عنه أو أخفيه .. ولذلك كان حرصى على ان اجعل البنطلون أطول والقميص والحذاء أعلى . أى لابد أن أضيف شيئا ما . لأن هناك نقصا ما .. ولم أجد ما أقوله عندما يندهش الزملاء من الإصرار على أن يكون الكم طويلا والبنطلون أيضا ، مهما كانت حرارة الجو . وكنت أجد اعذارا مختلفة . ولم انتقل من تفكيرى إلى القول : ليس من الضرورى أن يكون كل الآباء والأمهات فى مكان واحد .. فبعض الطلبة تزوج آباؤهم سيدات أخريات .. أو انهم ماتوا ..

ويتأكد هذا الشعور بنقص شيء هام فى حياتى عندما أزور بعض الزملاء . نتغدى أو نذاكر معا . هناك اختلاف هائل بين بيتنا وبيوت أخرى .. البيوت الأخرى فيها أصوات كثيرة . والاصوات عالية ولها رنين . البيوت الأخرى دافئة فيها أثاث كثير ومغطاة بالسجاجيد .. وأشياء كثيرة معلقة على الجدران . وإذا وقفت أمام بيت من هذه البيوت ، فإن روائح غريبة تخرج من تحت الباب وإذا انفتح الباب خرج الهواء دافئا محملا بعطور مختلفة . رائحة الطعام والكولونيا والصابون .. وإذا انفتح الباب تطلعت وجوه كثيرة جالسة ، ووجوه واقفة .. وعيون اتجهت إلى الداخل . وكلهم يتكلمون فى وقت واحد . والأيدى تمتد والقبلات . والدعوة إلى الصالون والشاى والدعوة إلى الغذاء .. وعندهم حكايات كثيرة يشاركون فيها جميعا .. وإذا واحد فاته أن يسمع جانبا من القصة طالب الآخرين أن ينتظروه حتى يسمعها من أولها .. وكانت القصة تقال عدة مرات .. بناء على حماس الجميع ورغبتهم . وكل شيء يبعث على الضحك . أى شيء . كيف ؟ لا أعرف .

أما فى بيتنا فتمضى الساعات لا أحد يسمع أحدا . وتجتاز غرف البيت كلها فلا تجد رائحة اقوى من جير الجدران ورطوبة الحمام والعقاقير والنعناع والينسون . وإذا جاء الطعام فإن أحدا لا يدعو أحدا لذلك . وإنما نجلس ونفرغ

من الطعام ولا كلمة واحدة . والأصوات ليس لها رنين ولا لها صدى . كأن الأصوات تحتاج إلى أبخرة الطعام لكى تنتقل بها من مكان إلى مكان . فقط عندما يجيء أقارب لنا ، فإنهم يجلسون مع والدتى بالساعات . وكل حكاياتهم عن فلانة بنت العم وبنت فلانة بنت الخال وعن أرض وجاموسة وفرح وخطوبة فلانة بنت فلانة .. وإذا جاء خالى أو خالتى أو جدتى ، فيكون لى نصيب من الكلام .

هذا إذن هو الفرق بين البيت والمسكن بين الأسرة والعائلة .. بين دفء اللحاف والبطانية ودفء الأمومة والأبوة والأخوة .. أما لماذا يضحك الناس بمناسبة ومن غير مناسبة ، وكيف ، فهذا الذى لم أهتد اليه ..

معها حق ، أ .. ، عندما كانت تكرر دائما : بابا قال لى .. وماما قالت لا .. بابا قال : أيوه .. كلمة واحدة .. وهو الذى يعطى المصروف .. وهو الذى ذهب إلى ناظر المدرسة .. وهو الذى اشترى .. وهو الذى اختار ..

هل كانت تعرف أن والدى ليس هناك .. وأن هذا هو الفرق بينى وبينها .. أو بين عائلتها وأسرتى .. هل أرادت أن تقول انها مهما كانت حرة فى خروجها ودخولها ، فلابد ان تسأل والدها عندما يجد الجد .. وما هو هذا الجد الذى يجد ؟ ان اتقدم أطلب يدها ؟ انا ؟ ومن الذى فكر فى ذلك ؟ هى التى فكرت هل تسأل أباها وأنا أسأل أمى ؟ وأنا أسأل أمى ؟ كيف .. أخطو اليها واصطدم بترابيزة عليها مائة علبة وزجاجة دواء وأراها شاحبة وأقول لها : أريد أن أتقدم .. إننى لا أستطيع ان أكمل هذه العبارة التى لم أسمعها من ، أ .. ، ولم أجرؤ أن أقولها لنفسى ..

فإن كانت تعرف ان والدى ليس موجودا فما شأنها فى ذلك ؟ وأنا لم أر أباها .. وأنا اشعر بأن والدى حاضر كل الوقت . أين أبوها وسلطانه ونفوذه ويده الغليظة وذراعه الطويلة وأخوها يشرب السجائر ويقال يشرب البيرة ويعرف الفتيات ويسهر ويسقط فى الامتحانات ولا يقف إلى جوار أخته إذا عاكسها أحد . إن والدى ليس معنا ، ولكن لا أفعل شيئا من هذا الذى يفعله أخوها .. وهى التى قالت عنى إننى مختلف عن إخوتها .. بل قالت إن كل ما عندى من صفات حميدة ومن أخلاق ، نبيلة ، - هى التى استخدمت هذه الكلمة - لا تجد لها نظيرا عند أخيها وبقية إخوتها ! إذن ليس من الضرورى

أن يكون الأب هناك لكي يكون الشعور به عميقا !

ورغم هذه المناقشات في داخلي ليلا ونهارا ، فإنها لم تفلح في أن تزيل ذلك الشعور الأليم بأن والدي لم يكن هناك معظم الوقت . وأنه لذلك محور قصص ونوادر وبطولات كلها من اختراعي عندما أواجه المواقف والتساؤلات التي تقتضي وجوده بيننا .

ولو كان والدي معنا لكان خطي أجمل . لأن خطه جميل . ولحفظت شعرا أكثر ، فأنا لم أضف إلى محفوظاتي من الشعر بيتا واحدا ولكنت صليت الفجر حاضرا وشربت الشاي بالنعناع . ولذهبت معه إلى صلاة الجمعة . ولحضرت حفلات الذكر والتواشيح ودلائل الخيرات .. ولكنه ليس هناك ..

وفي كل ليلة أفتح درجا من مكتبي وأضع ورقة أو ورقتين وقد كتبت شيئا أحرص على ألا يراه أحد . ولم تكن تلك الأفكار إلا شطحات فلسفية .. لا أعرف بالضبط ما هي .

مثلا : لماذا لاننبت من الأرض ، مثل كل الأشجار .. لماذا لاتحمل الطيور في مناقيرها بذورا للقمح والقطن .. وبذورا أخرى يخرج منها الأطفال والشبان والرجال .. لماذا الأسرة ، لماذا العائلة .. لماذا لا يكون كل ذلك في الحقول ؟ ! ولماذا إذا ولد طفل لا تتركه أمه في الملجأ . وتقوم موظفات بتربية الطفل .. فإذا كبر كان بلا أم ولا أب . لا يفرح إن وجد أباه ولا يحزن إن لم يجد أمه .. ولماذا لا ينتقل الطفل من مدينة إلى مدينة ومن مدرسة إلى مدرسة . فإذا ولد الطفل في المنصورة فإنهم ينقلونه إلى القاهرة . وفي القاهرةتنقطع صلته بأهله أو أمه أو أبيه .

أو أفكار أخرى تقول : ولماذا تكون للبيوت أبواب وللأبواب اقفال ومفاتيح .. لماذا لا تكون البيوت بلا أبواب .. لا حواجز .. كل شيء لكل أحد ولكل الناس .. لماذا يولد طفل غنيا ويولد طفل آخر فقيرا .. مع أن الطفل الغني لم يفعل ما يجعله يرث ما ترك والداه ، والطفل الفقير لم يرتكب جريمة حتى يكون محروما .. لماذا هذا الظلم التاريخي .. إذن لا يوجد عدل في الدنيا .. ولا أمل في أن يكون هناك عدل ، مادام كل طفل يرث أباه وأمه .. إذن لا معنى للوراثة ولا معنى لأن يكون لأحد ثروة ، ولأحد الفقر والذل والهوان ..

وفي يوم زار المدرسة وزير المعارف د . محمد حسنين هيكل باشا ، كل شيء في المدرسة قد ركبه عفريت .. الناظر طالع نازل والفراشون . والمدرسون والأرض فرشت رملا والزرع والورد قد تناثر في كل مكان والصابون مسحوا به الأبواب . والناظر على غير عادته يضحك ويداعب الطلبة ذهابا وإيابا .. والفصول مسحوها وغسلوها . وجاء هيكل باشا إلى الفصل ومعه حضرة الناظر وشخصيات أخرى لا نعرفها وإذا بهيكل باشا يطلب من كل طالب أن يجيب على هذا السؤال :

ما هي أمنيتك ؟ قالوا : مدرس .. ظابط .. طبيب .. غني .. الشيخ عاشور وسأل الوزير ضاحكا : من هو الشيخ عاشور ؟

قال التلميذ : خطيب مسجد الحسينية .

وقال تلامذة : محمد عبد الوهاب .. صدقي باشا .. الملك ..الشاويش .. وقلت أنا : آدم ..

قال الوزير : من هو آدم ؟

قلت سيدنا آدم

قال الوزير لماذا ؟

قلت : لأنه بلا أب ولا أم !

وجلست . ورفعت رأسي لأجد الدهشة على وجه الوزير والناظر والمدرسين ولا أعرف ما الذي قالوه . وخرج وزير المعارف .. ولم أعد أسمع شيئا مما يدور حولي ولا معنى أن يتردد إسمي كثيرا بين زملائي في تلك اللحظة ..

وبعد أيام وجدت واحدا من أخوالي يسألني : هل صحيح أنك وقفت أمام الوزير وقلت أنك تتمنى أن تقتل والديك لتكون يتيما بإرادتك !

ولم أعرف كيف فكرت في أن أكون آدم .. فهذه الفكرة لم تخطر على بالي قبل ذلك . وإنما ولدت في لحظتها . إنها عبارة كثيفة المعاني . خلاصة مشاعر مؤلمة . ترسبت في أعماقي وتبلورت . وأتيحت لها الفرصة ، فقفزت على لساني أمام الوزير والناظر .. شيء عجيب ان تخرج الأفكار هكذا دون تدخل مني .. أو دون تفكير أو تدبير .

وجاء والدى وسألنى : أنت قلت إنك تريد ان تكون آدم .. أول انسان .. لابد ان يكون هذا شعورك .. فأنت الأول وسوف تبقى كذلك .. ولكن آدم عاش وحده فى الجنة .. ثم عاش وحده على الأرض .. لابد أنها حياة موحشة أن يكون الإنسان وحده .. لا أب له ولا أم .. حتى زوجته خرجت منه ، كما خرج أولادها منها .. وبقى هو وحده .. كل الانبياء كذلك .. كل العظماء كذلك .. الله يفتح عليك !

اقترب والدى من كل المعنى ، إلا المعنى الذى يعذبنى . ولكن يكفى أنه جاء وأننى جلست إليه .. وأننى لمسته . وأننى قبلت يده وأنه قبلنى . وأنه أذابنى . فأنا بعضه . ونحن واحد . وفى لمسة واحدة وضمة واحدة تزودت بكل الدفء وكل الراحة وكل الأمان . وقد أشبعنى وروانى وملأنى كل ذلك .. وحتى لو غاب شهرا فالذى تسرب منه إلى جسمى ونفسى كثير جدا . يكفينى شهرا وعاما .. إن والدى لم يره أحد ، ولكن الناس وأنا عرفناه بالعقل والقلب .

ولاحظت بعد ذلك حرصى على أن أعود إلى البيت من المدرسة . ولا أخرج وأنا الذى أفتح الباب وأنا الذى أرد بصوت مرتفع إذا أحد دق الجرس . وأنا الذى أرد وأتكلم وأفتعل المناقشات . وإذا دعانى أحد الأصدقاء إلى الغداء يكون الرد جاهزا ، ولكن والدتى وحدها !

أو أقول : مصروف البيت معى ولابد أن أعود إلى البيت فورا !

وتعلمت أن أردد عبارة سمعتها من والدتى ولم أدرك معناها بوضوح : أنا رجل البيت !

وعندما كنت أذهب إلى المكتبة أجد صورة والدى تقفز أمامى على الصفحات . وعندما أنام وأحلم بوالدى . فإن شيئا سيئا يقع .. كأنه جاء فى الحلم وفى اليقظة لكى ينبهنى إلى ذلك .. وظل هذا حالى معه ، سنوات طويلة بعد موته ..

وقد نصحنى والدى أن أصادق أحد سكان البيت .. إنه شاب فلسطينى .. سورى لبنانى لا أعرف . وهوأبيض اللون أسود الشعر . أما والدته فهى مثله تماما . وإن كان شعرها أطول . وكنا نسمع صوتها من أى مكان فى البيت . فهى تتحدث بصوت مرتفع . وكنا نعرف بالضبط ماذا يدور فى شقتها . وهى

زوجة صاحب البيت الذى هو مدرس اللغة الانجليزية فى مدرستنا .

وقال والدى إن إبن هذه السيدة يقرأ كثيرا وعنده كتب كثيرة . وقد التقى به وتحدث معه فأعجب به . وأسعدنى هذا التوجيه المباشر من والدى . وذهبت إليه وسألته ان كان لديه كتب . وإن كان يعيرنى واحدا واحدا . ولم يتردد لحظة . وعرفت أنه يقرأ بالفرنسية أيضا . وأمه تكلمه لغة غريبة وعرفت فيما بعد أنها العبرية . وانه ليس ابن المدرس ، وإنما ابن زوجها الأول . وهو من مثل سنى . لطيف . مرح دائما . على استعداد لأن يتحدث فى أى وقت وفى أى موضوع . وعنده موضوعات كثيرة . وكل شىء فيه يلمع : شعره الأسود الناصع ووجهه وعيناه وحذاؤه . والقميص أبيض والبنطلون أزرق أو بنى ومعطر دائما .

وفى يوم دعانى للافطار معه . وذهبت ودخلت أمه معنا . ووضعت أمامنا كمية كبيرة من الطعام .. شاى ساخن وفناجين كبيرة ولبن ساخن . وعيش أفرنجى . وبيض وفول وجبن وحلاوة وزيتون وفاكهة . وأدهشنى أن يكون كل ذلك فى الإفطار .. ولم أعرف بأى شىء أبدأ أو بأى شىء أنتهى . وكانت هى التى تضع الشاى والجبن والبيض .. وتطلب من ابنها واسمه جمال أن يساعدنى فأنا فى غاية الخجل .

وجاء صوت غليظ من الداخل . يزعق وينادى : راشل .. راشل .. أنت يا بنت الكلب !

وامتقع وجه السيدة وابنها . ووقف الطعام فى فمى .. وفجأة تعالت الصيحات والصرخات والاستغاثة . وخرجت السيدة راشل من باب الشقة تجرى على السلم بقميص النوم والمدرس وراءها ببنطلون البيجامة وبلا جاكتة وبلا نظارة .. وقف جمال وأحنى رأسه . وإذا به يتجه إلى جمال ويقول : وأنت يابن الكلب إنزل هات بنت ستين كلب .. وإلا فهى طالق !

وفجأة جلس المدرس ووضع العصا على ترابيزة السفرة . وامتدت يده إلى البيض والفول والجبن .. ووجدتنى فى بيتنا .. فى سريرى أعانى من مغص شديد ولم أجد الكتب فى يدى . لقد نسيتها وخطر لى أن أصعد وأسأل عن الكتب . ولكن فزعت مما قد يحدث . ولم أعرف ما الذى يمكن عمله . ولم أجرؤ أن أحكى ما حدث لأحد . ولا حتى لوالدتى ..

وفى الصباح الباكر جاءنى جمال يقول في لهجة رقيقة غريبة لم أسمع مثلها من أحد : آسف لما حدث . ماما شديدة الأسف !

لاعمرى سمعت مثل هذه الكلمات ولا فهمت معنى الاعتذار . ولم يشرح لى جمال ماذا حدث ولماذا ؟ وكنت قبل ذلك أسمع هذه الصيحات ، ولم أكن افهم بالضبط ماذا هناك فوق فى شقة صاحب البيت .. الآن فهمت أن هذا يحدث كثيرا جدا . كل يوم .. ضرب .. وشتيمه ونزول على السلم وتهديد بالطلاق والعودة .. ولم أعرف السبب ..

وفى يوم سقطت مدام راشل من السلم وانكسرت ساقها . وذهبت إليها مع والدتى فى المستشفى . وتحدثت هي عن أن زوجها رجل عصبى بخيل جدا . وأنه معقد لأنه غير قادر على أن يأتى بأولاد .. ويتهمها بالعناية الشديدة بابنها الوحيد وإهماله هو ..

وكانت تقول لوالدتى : ولا يهمك .. إدفعى الإيجار فيما بعد .. ليس الآن .. الناس لبعضها .. سوف أدفعه وانتى على مهلك !

وكانت أمي تحبها وتستريح إليها ..

ولم أكن أعرف ما هو الفرق بين اليهودى وبين المسلم ولا بين المسلم والقبطى .. فأنا أنظر إلى جمال وأنظر إلى ميشيل اليونانى الأرثوذكسى وإلى وليم القبطى . لافرق .. وليست عندى معلومات عن الفروق بين هذه الأديان الثلاثة .. ولاكنت دخلت كنيسة أو معبدا يهوديا .. ولكن كانت عندى معلومات قليلة جدا عن الفوارق بين الأديان .. فمن طفولتى أجد لى أصدقاء من المسيحيين واليهود . ولم أشعر بأى نوع من الخلاف بيننا .. فما دخل الدين فى أن نتحدث فى الأدب أو الشعر أو نمشى معا فى الشارع وأن نضحك وأن نلتقى فى اليوم التالى .. لم أجد سببا للخلافات بيننا فى أى وقت ..

سألت جمال : أين والدك ؟

قال : مات !

سألت وليم : أين والدك ؟

قال : قتلوه .. إنها مسألة ثأر بين عائلات فى الصعيد .

سألت ميشيل : ووالدك ؟

قال : فى أثينا .. لن يجىء إلى مصر ترك البيت منذ عشر سنوات .

وفجأة اكتشفت أننا جميعا بلا آباء .. ولكن أحدا منهم لا يعانى الذى أعانيه والذى بالغت فيه كثيرا . وكان ذلك أعظم اكتشاف أراحنى تماما ..

لقد وجدت أن كل أصدقائى بلا آباء .. يتامى ؟ ربما .. وكنت أداعب الزملاء : إن آدم عليه السلام وهو أبو البشرية بلا أب ولا أم .. فنحن جميعا أولاد رجل يتيم !

وفى بيت جمال .. رأيت التوراة لأول مرة .. قلبت فيها وقرأت .. اللغة عربية غريبة وأسماء كثيرة .. وأشار جمال أن أخذ الكتاب معى إذا شئت وقلبت فيه كثيرا ، ولم أجد متعة عند قراءته لأول مرة .. ولكن كانت لديه معلومات كثيرة . وتناقشنا . وسرنا طويلا . وجلسنا والتقينا وامتدت يدى إلى التوراة أقرأ وأفهم وأستمع أيضا . ولكن أين هذه التوراة من القرآن الكريم . لغة التوارة غريبة ولغة القرآن هى قمة البيان والجمال والموسيقى والحكمة ..

وذهبنا معا إلى محل ساعاتى فى شارع السكة الجديدة اسمه (هرش) . فيه شبه كبير جدا من جمال ووالدته . أبيض أسود الشعر والعينين رقيق العبارة . ووعدنى بنسخة مختصرة للتوراة ولكن بالفرنسية . فلم أستطع قراءتها . ووعد بأن يعثر على نسخة عربية مختصرة . وبعد أيام وجدتها عندى فى البيت .. وجاءت كتب صغيرة وكبيرة بالإنجليزية والفرنسية والعربية .. وكانت نوعيات غير مألوفة .. وأكثرها فى التاريخ العربى واليهودى .. لمؤلفين ومترجمين لم أقرأ عنهم .. انه عالم جديد غريب ، ولكنه ليس ممتعا .

ولم يشأ جمال وآخرون أن ينضموا إلى المجموعة القليلة التى تلتقى كل يوم على سلم المكتبة العامة فى المنصورة .. هو جاء مرة واحدة . ولم يسترح إلى أنواع المناقشات .

وجاءنى يقول : آسف .. لن أحضر اليوم . أنتم لكم موضوعات بعيدة عنى تماما .. ولكن يكفى أن ألتقى بك فى بيتك أو فى بيتنا ..

وفى إحدى الليالى دق الباب . وكان جمال .. وقال : أريد أن أتحدث إليك فورا .

ودخل . وطلب أن ندخل مكتبى . وهى غرفة صغيرة بجوار الباب . ليس فيها إلا المكتب فى منتصف الحجرة ومقعد . وجلس هو فوق المكتب وقال لى : هناك شيء ضايقنى أنا وماما .. وهى التى أرسلتنى إليك الآن .. وهى تعرض عليك أن تقيم عندنا الشهور الثلاثة القادمة فسوف نكون وحدنا تماما !

لم أفهم . أدهشنى هذا الذى قال . وأدهشنى أكثر عندما قال : إذن أنت لا تعرف .. لقد اتفقت والدتك مع مدام شيرى أن تنتقل إلى شقتها .. إنها تريدك أن تعيش عندها بين أولادها . إنها تحبك وتريد أن تعاملك كواحد من أولادها . والدتك وافقت . أن تكون مثل أمك .. تتبناك . حتى تحصل على الثانوية وتذهب مع أولادها إلى الجامعة !

حاولت أن أدير هذه المعانى فى دماغى . أن أقلبها . لم أفهم . ففيها كلمات كثيرة أصادفها لأول مرة .. فلم أفهم معنى ان تكون مدام شيرى فى الدور الثانى ونحن فى الدور الأول ، وأعيش عندها .. لماذا ؟ بين أولادها لماذا ؟ كواحد من أبنائها لماذا ؟ وأمى وافقت لماذا وكيف ؟ لم أفهم . وقد حدث ذلك من أيام . ورأيت أمى جلست معها واشتريت لها الأدوية ودرت فى كل الصيدليات .. وجلست إليها وتحدثت معها ولم تقل لى شيئا . وكيف أتركها وحدها وما المعنى ؟

وأصر جمال .. على ان التقى بوالدته هو غدا لأنها حضرت جانبا من هذا النقاش بين والدتى ومدام شيرى ..

وقابلتها . وسمعت منها تفاصيل ماذار بينها وبين والدتى ومدام شيرى وبناتها وأولادها . أما بناتها فقد رأيتهن كثيرا فى شقتها وأمام البيت وعند البقال : كاميليا .. متوسطة الطول واسعة العينين مستديرة الوجه قصيرة الشعر فيها حيوية .. وخطوتها قصيرة . وإذا مشت تتلفت حولها ، حتى إذا لم يكن هناك أحد أو شيء يستدعى الالتفات .. ولكنها عصفورة الحركات ..

ومنى .. متوسطة الطول سمراء سوداء الشعر .. ناعمة الصوت . قلقة . وهى عادة التى تفتح الباب . وهى التى تشترى وتناقش الباعة على السلم .. وهى التى اذا رأتنى تقول : سلم لى على ماما .. والأخت الثالثة : تهانى بيضاء

ممتلئة واسعة العينين والفم ملفوفة . وشعرها ملفوف وعنقها وذراعاها .. ولم أسمعها تكلم احدا .. وإذا رأتني نظرت فى عينى ولا تقول شيئا . أما الولدان فهما زميلان فى المدرسة . أحدهما معى فى نفس الفصل .. أنا أول الفصل وهو آخره .. وظللنا كذلك حتى تركنا المدرسة إلى الجامعة ..

اما السيدة شيرى .. او شيرين .. وان كانت راشيل تناديها شاجرين .. شاجرينية .. ويتحدثان الفرنسية معا ، ومع البنات الثلاث ، فهى الأم الرقيقة اللطيفة الحنون المرحة ..

وفهمت أن والدتى مكسوفة تماما أن تفاتحنى فى هذا الموضوع . أما الموضوع فهو أن أنقل كتبى وملابسى وأعيش مع أسرة السيدة شيرى .. لماذا ؟ ان انتقل والسلام . من اجل صحتى . ولم انتبه إلى أننى أسعل احيانا كثيرة . بسبب برودة الشقة . وان نظرى قد ضعف بسبب الإضاءة السيئة . أو لسبب كثرة المذاكرة . أو سوء التغذية . وأن هذا القرار . انتهى .

ونزل جمال .. وجمع كتبى وملابسى . وانتقلت من الدور الأرضى الى الدور الذى فوقه . إلى سرير صغير فى غرفة الولدين .. اما كتبى فقد اختفت تحت السرير .. سريرى .. وملابسى وضعت فى أحد الأدراج . ولم اعرف ما الذى يجب أن أعمله بعد ذلك .. كيف أنام .. كيف أذاكر .. إذا نزلت الى المدرسة هل أمر على والدتى .. وإذا عدت من المدرسة هل أدق الباب ماذا اقول لها وماذا اقول لإخوتى ..

هل أستأذن من ماما لكى أرى مدام شيرين .. هى قالت لى : قل لى يا ماما ..

هل أستأذن من ماما .. وإذا مرضت ماما هل استأذن من ماما لكى أبيت عندها .. وإذا أرادت دواء هل أنطلق فى الشوارع أبحث عن الدواء .. وإذا كان هذا هو ما يحدث كل يوم فما معنى أن أمضى معظم الوقت تحت ، ثم اذهب إلى فوق لكى أنام أو أتناول العشاء .. وانام .. فما المعنى ؟ وكيف أتحرك وآخذ دورى فى الحمام .. وأينما ذهبت فعيون كثيرة تنظر ناحيتى .. البنات والولدان وماما .. كل هؤلاء ينظرون ويفهمون ويقولون ، أو لايقولون ، وأنا لا أعرف ما الذى يقولون .. ولا كيف أوضح ولا كيف أدافع عن نفسى .. عن موقفى

الغامض .. ولا أعرف كيف أبدو راضيا أو ساخطا ..أو كيف اقتنعت بأن أكون بينهم .. ولا أكون تحت ولا أحاول أن أتحدث عن الذين تحت . ولا إذا جاء ذكرهم أن أعلق بشيء .. كأنه من المفروض أن أقاطع والدتى واخوتى . لماذا ؟ ما الذى جعل والدتى تفعل ذلك .. ماذا حدث ؟ وما سوف يحدث . هل اتفقت مع والدى على ذلك .. إنها لم تقل لى شيئا .

وكل الذى قالته السيدة شيرين يوم حملت كتبى وملابسى : أهلا وسهلا .. بيتك ومطرحك .. مع إخوتك .. لعلهم يتعلمون منك المذاكرة والاخلاق والنجاح .. ظللتم تتحدثون عنه وكيف يذاكر وكيف ينجح . جاء إليكم بنفسه .. تعلموا منه ..

وبعد سنوات سألت واحدا من أبنائها كم يوماً مكثت عندكم . قال : ثلاثة شهور ..

وقالت والدتى : بل تسعة شهور ..

وقال لى جميل : شهران ..

وقالت لى « أ .. » كيف استطعت .. كيف وجدت قلبا يطاوعك بعيدا قريبا عن أمك واخوتك سنة كاملة .. أين ذهب ماكنت تقوله عن الام وحنان الام .. وعن الإنسان الذى لايخجل من الواقع .. وكل إنسان له واقع خاص .. تماما كما ان له إسماً وجسماً فله واقع .. ولا يصح أن يخجل منه . وما هو قضاء وقدر هو عظيم الاحترام .. فهل تسمى ما حدث قضاء وقدرا ؟ كان فى وسعك ان تمنعه .. إنك لست طفلا رضيعا .. ولا أنت طوبة ينقلونها من عرض الطريق إلى جوار الحائط إلى بقية الطوب فى أحد الجدران .. ليس قدرا ولذلك لا هو ولا أنت تستحق الاحترام . كيف حدث ولماذا ؟ هل تريد ان تقول : إنك أردت أن تعرف .. ان تجرب .. ان تفهم .. لقد جربت فهل فهمت . قل لى الآن .. فقد وجدت الآن ألف سبب لكى أسقطك دمعة من عينى !!

وكنت قد ابتعدت عن كل طريق تمشى فيه « أ ... » وكل مكان .. ولم اعد أمر أمام بيتها ذهابا وايابا من المدرسة .. وتفاديت أن أرى أخاها واصدقاءه . وعندما وجدت صديقتها امام المكتبة حاولت أن تتحدث معى ولكنى أدرت رأسى بعيدا . فأخجلها ذلك .. ولم أعد أراها . ولكن « أ .. » لم تطق صبرا عندما

عرفت هذه الحكاية الغريبة .. لقد جاءت لزيارة والدتى وبعثت لى واحدا من اخوتى . ونادانى . ونزلت . ووجدتها قد جلست إلى مكتبى . وطلبت منى أن أغلق الباب ورائى . ولم تترك لحظة واحدة أرد بكلمة أو حتى أتنفس بصوت مرتفع .. ولو أعطتنى الفرصة ، ماوجدت شيئا أقوله ...

لقد كنت مأخوذا .. مسلوبا .. مسحوبا .. من تحت إلى فوق .. فكما كنت غائبا تحت ، فأنا فوق أكثر غيابا ..

كانت أيام تعاسة . نعم . منتهى التعاسة . فلا أنا فوق . ولا أنا تحت . ولا أنا طرف فى كل المناقشات . ولا الضحك ولا الدفء . ولم أعد أشم تلك الرائحة التى تفوح من ثقب الباب ومن تحت الباب .. وإذا اتجهت إلى الدور العلوى ، أحاول ألا أنظر إلى شقتى وأخشى أن ينفتح الباب فجأة فيرانى أحد .. فإذا حدث فلا أدرى ما الذى يمكن أن أفعله .. لم أفكر . لم أهتد إلى حل . ولا ماهى المشكلة ..

وقررت بينى وبين نفسى أن أعود إلى تحت .. قرار .. وأحاول أن أجد صيغة مناسبة لتوديع السيدة شيرين وأولادها .. وقررت أن أجمع كتبى وملابسى واهبط السلم فى ساعة مبكرة واترك لهم خطابا أشكرهم على كل شىء .. هذا قرار ..

وفى يوم دق الباب وتقدموا جميعا يفتحون الباب . وسمعت صوتا أعرفه .. ونظرت الى الباب من بعيد .. أعرفه طبعا . إنه الشيخ دهليز .

قالوا : تفضل .. قلت له أيضا . وصافحته . وكانت مفاجأة مخجلة . فلا أحد يعرف أننى كنت التقى بالشيخ دهليز وأغنى معه .. فتلك قصة خاصة أخفيتها بين طيات ذكرياتى المتواضعة .

وكان هو الذى بدأ بالكلام . وتساءل بسرعة وبصورة مباشرة وتوجه بحديثه إلى السيدة شيرى قائلا : أنت تعرفين أنه إبنى .. حبيبى .. فنان .. الله يفتح عليه ..

ولم تكن هى تعرف هذه الصلة ..

ومضى يقول : انقطع عنا شهورا . سألت عنه . قالوا إنه تزوج بنت واحدة غنية وجئت أسأل . صحيح ياست هانم .

ضحكت السيدة شيرين : فى هذه السن يتزوج .. الله يضحكك ياسيدنا الشيخ ..

- لا تقولى : سيدنا .. أنا لست سيدا لأحد ولا حتى لمراتى أنا أرتدى العمامة ولكنى لست سيدا .. انا رجل هلس جدا .. اسألية .. هاها .. هاها ..

وسألتنى السيدة شيرى : من هو ؟

قلت : إنه عم الشيخ دهليز .. يامدام

قالت بغضب : قل يا ماما

قلت : الشيخ دهليز يا ماما .. يغنى .. ويحفظ الشعر ..

قالت : يغنى ؟ والله ؟

والبنات قلن : يغنى .. الله .. تعرف ؟ .. والله فرصة !

وبسرعة غريبة ظهرت الطبلة والرق والعود والتفت الفتيات حول الشيخ دهليز وعلى إيقاع الطبلة . والرق والعود : لا والنبى ياعبده ..آه والنبى يا عبده . !

وأغنيات أخرى كثيرة . كانت مفاجأة لى . وقدموا للشيخ دهليز الشاى والقهوة .. وكان سعيدا وهم أيضا عندما طلب إليهم أن يشربوا القهوة لأنه يريد أن يقرأ لهم الفنجان ؟!

أما زوجته فهى التى سحبته إلى باب الشقة على أن تعود بعد ذلك . ولما عادت قرأت لهم جميعا الفنجان ..

ووعدهم بأن يعود . ثم أخرج خطابا من جيبه وقال للسيدة شيرى : حضرتك الست شجرة الدر غنام .. ألست كذلك ؟ !

قالت : مضبوط ..

قال : معى خطاب من الست شج شج .. تعرفينها ؟

قالت : طبعا هى التى قامت بزفافى من عشرين عاما . كيف حالها . وحشتنى . سلم عليها .. وقل لها اننى سوف أكون سعيدة اذا زارتنى ..

قال الشيخ دهليز مودعا : يا ست شجرة الدر لا تغضبى من الذى جاء فى هذا الخطاب .. لقد جاء زملاؤه فى المدرسة وقالوا إنك أرغمت والدته على أن يعيش بينكم .. يقولون إنك دفعت مبلغا من المال .. يقولون .. زملاؤه يقولون ..

ضايقت السيدة شجرة الدر وهي تقول : أعوذ بالله .. ما هذا .. إنه تلميذ مسكين طيب .. وأنا أحب أن يكون بين أولادى .. ثم إنه ليس بعيدا عن والدته .. إنهم في الدور الذي تحتنا .. فقط أن يكون مع الأولاد .. إنهم يحبونه .. هذا كل ما هناك . ولا أنا اشتريت ولا أمه باعت .. ولا عندى عروسة .. ولا هو عريس .. أنا مثل والدته .. خالته .. عمته .. وأنا ألاحظ انه ليس سعيدا .. بل لم أره قد أمسك كتابا .. لا هو ذاكر ولا أولادى .. وأنا أردت أن أسعده .. ولكن مادام ليس سعيدا ولا زملاؤه . وربما والدته .. فهو على كيفه تماما ..

واتجه الشيخ دهليز ناحيتي .. ومد يديه حتى وجدتني وقال : مبروك ياعم .. إفراج !

كانت لحظة فظيعة . لا أنا شكوت . ولا أنا ضقت بالإقامة عندها . فهذه معان لا أعرف كيف أحيط بها . ولا كيف أحددها . ولا دار بيني وبين والدتي أو الشيخ دهليز أو زملائي حديث أو حوار عن هذا الذى أنا فيه .. وأحسست بالخجل الشديد من السيدة وأولادها جميعا . فلم يسيء لي أحد . لا بكلمة ولا همسة ولا إشارة ولا تلميحة .. ولكن الإساءات الكثيرة جدا كانت في أعماقي .. في داخلي .. على شكل تقلصات في المعدة .. ومغص وأوجاع في أحشائي بعد كل وجبة .. وعند المذاكرة وعند دخول الحمام . وعند المرور أمام شقتنا متجها إلى أعلى ..

كنت أشعر انني لا أصعد إلى فوق ، وإنما أنا أنحط .. أهبط .. أسقط إلى قرار لا قاع له .. أسقط في داخلي .. لقد بذلت جهدا كبيرا جدا لكي أتذكر تلك الأيام . فقد تعاونت كل قدراتي العقلية على محو هذه الفترة من عمرى .. وكان جهدى أعظم وأعمق عندما استعدتها .. واستعرضتها وتذكرتها وجمعتها وسجلتها .. إنها الأيام المنسية أو التى يجب أن تظل منسية في طفولتي !



شجرة الدر لآخر مرة

وجاء لطفي السيد

شجرة الدر الأخرسة

وجاء لطفي السيد

في ذلك الوقت كنت أغني في حفلات المدرسة .. وكنت أغني في الجلسات الخاصة بين الزملاء .. وكانوا جميعا يغنون أيضا . أجمل هذه الأصوات كان للزميل جمال أبو ريه .. والذي أصبح بعد ذلك مؤلفا لقصص الأطفال . كان صوته طويلا جميلا .. وكنت أحب الاستماع إليه .. وأتردد في أن أغني أمامه .. ولكنه شجعني . وكان أكثر واقعية مني . فقال : عندما نصل إلى القاهرة نهرب من الجامعة ونتفرغ للغناء والطرب .. ولا دراسة ولا زفت !

أما المقهى الذي أغلقناه علينا فهو مساحة من الأرض قذرة .. كلها تراب وبعض الصناديق الفارغة .. والبلاليص .. والدكك المكسرة .. والسقف فوقنا هباب أسود .. وقماش يغطي المكان .. ودخان الجوزة والشيشة ينفذ إلينا خانقا .. وضوضاء المقهى والراديو .. ولذلك يجب أن تتعالى أصواتنا لكي نغطي على كل ذلك ..

وفجأة سكت كل شيء . لقد ذهب الشيخ نور الدين إلى صاحب المقهى وأعطاه مبلغا من المال ، فأقفل الراديو . ووقف نور الدين ملتفتا إلينا قائلا : والآن .. نستمع إلى مطربنا الخجول .. صاحب الصوت الجميل و « البحة » الدهلاوية الساحرة .. إلى ..

وأشار ناحيتي . ولم أتوقع ذلك . ولكن لا مفر .. وقال الشيخ دهليز : آه .. عندي اقتراح يا سيدي .. رغم أنني لا شايف لا اسود ولا اخضر .. قل يا حبيبي من مقام الحجاز : تتيه على العشاق .. الله يكرمك .. قول .. بس اضغط على الآخر .. أحب أسمع .. الله يكرمك يا سيدي .. حتوحشنا .. الله يلسن الفلسفة واللي بدعها .. ما كنت قاعد معنا .. والنبي ومن نبى النبي ما حد واخد منها حاجة .. الفلسفة تعرف إيه فلس × سفه .. هاها .. هاها ..

وجاءت السيدة شج شج .. وجاءت الراقصة .. وأمسك الشيخ نور الدين بالطبلة .. والتف الزملاء حولى ..

ورحت أغنى من مقام « الصبا » ـ هم الذين يقولون إسم المقام .. فأنا لا أعرف .. وكان يساعدنى جمال أبورية .. ويهمس فى أذنى بأن أرفع صوتى ..

تتيه على العشاق فى حلل خضر
مفككة الأزرار محلولة الشعر ..

يزعق الشيخ دهليز : مفككة الإيه .. محلولة الإيه .. آه .. فك الزراير يا سيدى .. فك .. الله يفكها عليك .. تانى ..

تتيه على العشاق فى حلل خضر
مفككة الأزرار محلولة الشعر
فقلت لها : ما الإسم ؟ قالت : أنا التى
كويت قلوب العاشقين على الجمر
شكوت إليها ما أقاسى من الهوى
فقالت : إلى صخر شكوت ولم تدر
فقلت لها : إن كان قلبك صخرة
فقد أنبع الله الزلال من الصخر

الشيخ دهليز : صخرة والنبى صخرة .. بنت الصخرة .. اقعد انت أفك أنا الزراير على طريقتى .. القزازة يا واد يا زهيرى يا ابن الصخرة .. القزازة .!

وبدأت الأصوات تتلاشى .. فقد تعب الجميع .. وتفرقنا .. دون أن نتفق على موعد .. ودون أن يسألنى أحد متى سأسافر . لقد أرهقنا الغناء والرقص والترديد .. ولما طلب منى الشيخ نور الدين أن أرافقه عائدا إلى البيت ، اعتذرت بأننى سوف أصحب الشيخ دهليز .. قال لى الشيخ دهليز : مطلوب منك مجهود كبير .. فأنا دايخ على الآخر .. وسوف أجد متعة كبرى فى الوقوع على الأرض والدرمغة فى الوحل .. فلا تتركنى .. وإذا كبس على النوم ، ضعنى إلى جوار الحائط .. وتعالى غدا أوقظنى .. ولا تنس الفطور ..

بيض وجبنة وشاى سخن .. هاها .. هاها .. والنبى أخرتك سوده يا واد يا دهليز .. يا واد يا إبليز إنت .. آه .. فيك نفس تغنى .. أغنى أنا ..

عشنا يا نعم عيش
إلفين كالغصنتين
اليس من شؤم بختى
أصبت نفسى بعينى !

وقال : وحياتك لم يحدث شيء من هذا .. لا عشت ولا عاشت .. ولا إلفين ولا غصنتين .. وأين هى العين التى سوف أحسد بها نفسى .. هاها .. هاها .. أهو كلام حلو .. النسيم القادم من النيل أنعشنى .. أين نحن الآن ؟ ..

قلت له : أمام قسم البوليس ..

قال : أعوذ بالله .. خذنى إلى مكان على النيل .. أريد أن أتحدث إليك .. أنت صعبان على جدا ..

وجلسنا معا .. فى صمت .. وطال صمته .. واستغرق فى النوم .. وتركته .. ومضت دقائق .. وانشغلت بما فى داخلى .. واستعدت ما كان فى بيتنا .. ما دار بينى وبين والدى .. وحاول والدى أن يجلسنى على ركبته .. فقلت : كبرت على هذه الجلسة عشر سنوات ..

فقال : يبقى الابن صغيرا فى عينى والديه حتى لو كان عنده أولاد .. قل لى : ماذا تريد أن تكون عندما تكبر .

قلت : لا أعرف .

قال : بالتقريب .

قلت : لا أعرف .. متى سنسافر إلى القاهرة ؟

قال : سوف أسافر أنا أولا .. وأبعث لك بمن يسافر معك .. عندنا بيت جميل فى الزمالك .. أجمل أحياء مصر .. عندنا شقة مستقلة .. إنه قصر له حديقة جميلة .. ونحن لنا شقة عالية لها سلالم وسوف نكون فيها معا .. فإذا جاءت والدتك وإخوتك سوف نسكن معا فى مكان آخر أكبر وأوسع ..

وأجدنى أتطلع إلى وجه والدى .. أراه هو الآخر بوضوح .. أنا مندهش من حالتى .. فأنا أنظر إلى الناس .. وأفتح عينى جدا .. كل شيء أصبح بارزا ملونا .. والدى أبيض الوجه مع إحمرار .. العينان خضروان .. طويل عريض

يرتدى البدلة والصديرى دائما .. والكرافتة التى تلتف حولها سلسلة ذهبية .. وهناك سلسلة أخرى للساعة يضعها فى جيب الصديرى .. وله منظار .. وصوته هادىء وإذا تكلم فإنه يمسك يدى أو يقربنى منه ..

ولابد من هذا السؤال : ماذا تقرأ الآن .. هل أنت فى حاجة إلى كتب .. قل لى وسوف أبعث بها إليك .. إذا ضايقك كتاب ، أى كتاب ، لا تستمر فى قراءته .. اقرأ فقط ما يجعلك تشعر بالانبساط .. إذا جاءك كتاب ووجدت أنك لا تستطيع أن تتركه وجاء موعد الطعام لا تأكل .. وجاء موعد النوم ، فلا تنم . فليس سهلا أن تجد مثل هذا الكتاب ، وليست عابرة هذه المتعة .. إحرص على هذه المتعة .. فإنها أروع ما فى الثقافة .. عندك كتب ؟ .

قلت : نعم .

قال : كلها ممتعة ..

قلت : ليست كلها ..

قال : هل لا يزال أصدقاؤك هم الذين أعرفهم ..

قلت : ربما زادوا اثنين أو ثلاثة ..

قال : أراك حزينا . لماذا ؟

قلت : أمى يزداد مرضها وأنت لست معنا .. ولا تكتب لها خطابات .. وندفع الإيجار متأخرين وأنا لا أستطيع أن أقوم بأى عمل آخر .. حاولت أن أعمل فى محل فى شارع السكة الجديدة .. ولكن نفسى لم تطاوعنى .. ثم وجدت زملائى على استعداد للسخرية منى ..

وبكيت . وسكت والدى طويلا . ووجدته قد أخرج منديلا من جيبه ومسح دموعه هو ..

وعدت من هذه القضية الحزينة إلى الشيخ دهليز الذى صحا من نومه وجعل يهزنى أنا لكى أفيق من السرحان الطويل . وقال لى : أنت لا تعجبنى لا اليوم ولا أى يوم .. لماذا هكذا صامت . ما الذى ينقصك .. لك رجلان .. الحمد لله لك عينان .. وأبوان وناجح فى المدرسة وسوف تدخل الجامعة .. ألف شكر لك يا رب .. ما الذى يضايقك .. إنك تسكن فى الدور الأرضى .. ولكن سكان الدور الثانى يحسدون أمك عليك .. ألم يطلبوا إليك أن تعيش معهم وتكون لهم .. وربنا أعطاك قدرة هائلة على الحفظ .. وحفظت القرآن الكريم وتحفظ

توف أبيات الشعر .. وأصدقاؤك يحبونك .. بصراحة أنت مش جدع .. وأنا رجل جبان .. كنت أريد أن ألقى بنفسى فى النيل الليلة .. ولكن لا أظن أنك ستترنى .. أعرف أنك سوف تحكى ما حدث .. هل نسيت كيف جئت تروى ما حدث لصاحبك فوزى مع أبيه وأمه .. كيف تشاجرا وكيف أن فوزى كان يبكى طول الوقت .. وكنت أحب أن تستر صديقك .. ولذلك لن ألقى بنفسى فى النيل .. ثم أنك مش جدع .. وحياة هذه البنت آمال .. إسمها آمال .. ولا اسمها فاطمة .. آمال كانت مخطوبة لصاحبك يسرى .. هل قالت لك ذلك ؟

قلت : لم تقل شيئا .

قال : جاءك كلامى .. كذبت عليك .. وتلاقى آمال هذه لم تعطك يدها .. بينما كانت كلها فى أحضان يسرى .. الناس مظاهر .. أنا أعرف ذلك تماما .. أنا لم أفقد بصرى إلا منذ سبع سنوات .. لقد كنت أرى وألعب وأستمتع ولكن حدث ما حدث .. مظاهر كلها كذب .. وعيبك أنك تصدق كل شيء .. طيب .. عبيط .. وحزين على إيه مش فاهم ؟ عارف الشيخ نور الدين كان عاشقا للست شج شج وطلب الزواج منها وهو صغير .. فرفضت طبعا .. وضربته .. وكلنا ضربناه .. ولكن الشيخ نور الدين أضاع الكثير من ماله عند قدمى شج شج .. ولا يزال يحبها .. ويحب أن يكون بالقرب منها .. ولا يزال هو الذى يأتى لها بالأرز والسكر والدواجن .. كل أسبوع وحياتك ..

قلت مندهشا : لا أصدق ..

قال : إن شاء الله ما صدقت .. لكن هذا هو الذى يحدث .. هل سألت نفسك لماذا الرجل صاحب البيت يضرب زوجته اليهودية .. لا تعرف .. هذا الرجل عاجز جنسيا .. وزوجته هذه شريفة كريمة .. وهى تجمع الفقراء وتقدم لهم الطعام لوجه الله .. وهو رجل بخيل .. وقد استولى على فلوسها وأملاكها .. وكل يوم يهددها بالطرد .. وأنا أعرف أنها سوف تهرب من مصر .. أنا عارف .. لماذا لأن الواد « شولحان » الذى تسميه شولح من أقاربها .. وهو سوف يهرب .. ولكن لا أعرف متى .. ويوم تغديت أنت وإبنها جمال ضربها وضرب جمال وطردهما .. لأنه لا يحب أن يدخل بيته أحد .. وهذه السيدة قد أسلمت هى وإبنها من أربع سنوات .. فهى سيدة صالحة وهو رجل حقير شرير .. إنت مش جدع أبدا .. إصح .. إياك أن تنام .. هل تعرف كاميليا ..

قلت : من هى ؟

قال : صديقة آمال .. كانت مخطوبة لضابط بوليس .. تركها وتزوج خادمتها .. فما كان منها إلا أن عاكست ضابطا آخر يكرهه .. وسوف تتزوج هذا الضابط انتقاما منه .. قرف .. وأنا لا أعرف لماذا فضحت نفسك .. لا أنت أحببت .. ولا خطبت ولا وعدت بالزواج .. ولا أى شىء .. ولا لمست يدها .. وأصبحت البلد تتكلم عن أخيب حب شهدته المنصورة .. وبصراحة أنت لم تجد أحداً يعلمك .. لا أهلك ولا الكتب .. هل من المعقول أن يحب الإنسان امرأة .. المرأة لم يخلقها الله لأن نحبها . يا أخى ربنا يقول : ولقد كرمنا بنى آدم .. ولم يقل كرمنا بنات حواء .. ويقول إن كيدهن عظيم .. وقال إن كيد الشيطان كان ضعيفا .. ومعنى ذلك أن الرجل أضعف من الشيطان والشيطان أضعف من المرأة .. وفى هذه السن تحب إيه وتتنيل إيه .. يا شيخ بلا قرف .. اسمع

ـ نعم ..

ـ إصح وكلمنى كويس .. هل قبلتها ؟

ـ لا

ـ هل عانقتها ؟

ـ لا

ـ هل وعدتها بالزواج كده وكده ؟

ـ لا ..

ـ هل اصطدمت بها .. افتعلت إنك تعثرت فى طوبة ثم ألقيت بنفسك على صدرها .. حركة يعنى ؟

قلت : لا ..

قال : عندما أرادت الست شج شج أن أتزوجها .. كنت لم ألمسها .. فتعثرت وألقيت بنفسي عليها .. ووجدت أنها مجموعة مخدات وبطانية .. لحم وشحم عظيم .. لو ألقت بنفسها فوقى لكانت نهايتى .. ورفضت الزواج بعد هذه المعاينة ـ التى لم استخدم فيها عينى !

ونهضت .. وسحبت الشيخ دهليز فى طريق السكة الجديدة المظلمة الباردة . وقال لى : لا تصدق عينيك .. كل ما تراه كذب .. الرجال يكذبون

والنساء يكذبن أكثر .. والمرأة عندها غريزة .. فهى طول عمرها مضروبة بالجزمة .. ولذلك فهى تعبد الرجل الذى تضربه بالشبشب .. ثم تبكى لأنها لا تجد الرجل الذى لا يضربها ولا يعذبها .. ألم تقل لك « أ ... » اضربنى قلما اشخط فى .. اطردنى .. ألم يحدث ..

لا ..

إذن أنت لم تعطها فرصة لكى تتظاهر أمامك بالكبرياء لكى تذلها وتعذبها وتحتقرها .. شخ شخ هذه الجبارة فى ليلة من ليالى الأنس .. وجدتها تبكى .. قلت لها : مالك .. قالت : ليس فى حياتى رجل .. يشخط وينطر ويضرب ويطرد ويجعلنى أنام كل ليلة ودموعى على خدى .. فمددت يدى إلى الأرض وأمسكت الشبشب ورحت أضربها .. وهى تصرخ وأقول لك الحقيقة : تولانى الرعب لأنها تستطيع أن تسحقنى .. وفجأة وجدتها هجمت على يدى تقبلها .. من يومها وأنا أحتقر هذا الإنسان الذى اسمه المرأة .. أنا أعرف أنك لن تأخذ بما أقول ولكن تذكر ذلك عندما تذهب إلى القاهرة . لا فرق بين بنات المنصورة وبنات القاهرة .. فالمرأة واحدة وإن تغيرت فساتينها وشباشبها .. لا تنزعج إذا قلت لك : إننى كافر .. ملحد .. وهذه قصة أخرى .. إذا جلسنا معا فسوف أحدثك كيف أننى كفرت بكل أحد وبكل شىء .. ليس الآن .

ولم يدر الشيخ دهليز أنه هزنى بعنف وصدمنى فى كل حائط وفى كل عمود نور .. ثم ألقى بى على الأرض وراح يدوسنى بأفكاره الجريئة .. ثم يلقى بالطين على رأسى .. فلم أكن أتصور أن هذا الرجل « الهجاص » لديه هذه الأعماق .. أو عنده هذا الفيض من المرارة ..

إذن كل الناس يعرفون حكايتى - وهى ليست حكاية فلا فيها شخصيات ولا فيها أحداث .. ولكن مشكلة كبرى أن يكون لأى إنسان هذا العدد من الأصدقاء الذين يحبون الكلام ونقل الكلام .. إنهم إذاعة متعددة الموجات .. وكلهم يريد أن يكون مدرسا ومحاميا وأديبا وشاعرا ومطربا - جميعا صناعتهم الكلام .. قراءة الكلام وكتابته وأداؤه .. وأنا الحدث الوحيد الذى يستحق كل هذا الاهتمام .. أنا الطوبة التى سقطت فى هذه البحيرة الهادئة .. أنا الجثة التى طفت على سطح هذا المستنقع الراكد .. مغفل - أنا بهذه الصفة ولكن لا أدرى - وكذاب أيضا .. أى يروننى كاذبا . فلا أحد يتصور أن حزنى هذا لأسباب كثيرة

نفسية عائلية اجتماعية . فهم لا يجدون سببا لهذا الحزن : فأنا طالب متفوق .. وأعيش مع أمى ، وأبى حى .. وفى طريقى إلى الجامعة .. إذن لا معنى للحزن .. فإذا كان حزن أو أسى أو شجن فالسبب هو هذه القصة الغرامية .. والحقيقة غير ذلك .. ولكن الناس لا يصدقون إلا ما تقع عليه عيونهم .. فهم إذن لا يعرفون الحقيقة . لأن الحقيقة ليست ما يرون . وليس عند الناس وقت لكى يبحثوا ويحللوا وينصفوا . ولذلك فالناس ظالمون وعيونهم مضللة . وليس حبا من الناس أن يتحدثوا عنى .. ولا أننى صاحب بطولات خارقة .. ولا أنا قيس وهى ليلى .. وإنما الناس يتسلون بظلم الناس وفضيحة الناس وبهدلة الناس وتشويه الناس .. واستغفال الناس . فهم يعاملوننى بشكل ، ويتحدثون ورائى بشكل آخر . وأنا لا أصدق إلا الذى أرى .. والذى أراه كذب .. ولكنى أصدقه .. معك حق يا شيخ دهليز . فمن أين أتتك كل هذه الحكمة .. أنت الذى لا ترى وأنا الذى أرى ؟ وكيف أنك جاد هكذا وهازل فى نفس الوقت .. فلا الهزل حقيقتك ولا الجد .. أو أنك هازل حقا حزين حقا .. ففى وقت الهزل منتهى المسخرة ، وفى ساعة الجد فى منتهى الصدق . ولكنك لا تعرف كم عدد السكاكين التى أغمدتها فى أماكن مختلفة من جسمى ومن نفسى .. حتى ، آ .. ، هى الأخرى .. إننى لم أعد أرى وجهها .. فقط خشيتها .. التى هى لغز .. لا أعرف كيف أصفها .. موسيقى من الإيقاع والإغراء والالتفاف والالتفات .. تمشى وتطير .. بعضها يمشى وبعضها الثانى يحاول الطيران .. أحب أن أراها ذاهبة وأن أراها قادمة .. تمنيت أن أقف فى منتصف دائرة وهى تلف حولى حتى الموت . كرهت هذا أيضا . لماذا أصبحت أرى كل شيء بوضوح .. إلا هى .. أهذا هو الحب ؟!

وفاجأنى الشيخ دهليز : إنه مجرم ذلك الذى اخترع كلمة الحب .. لا شيء اسمه الحب .. إنها لحظة جنون .. رجل يريد أن يفقد عقله .. وامرأة تريد أن تلعب بهذا العقل .. مغفل مثل حضرتك يتوه .. يدوخ .. ويفقد لسانه ويقول لها : أحبك .. ولكنها لا ترد مع أنها تموت عليك ومن أجلك .. ولكنها تبلع حروفها وتستخدم فى كلامها معك كل الحروف إلا الحاء والباء .. كيف لا أعرف .. من الذى علمها ؟ لا أعرف .. ونحن الرجال بمنتهى العبط لا نجد فى كل حروف اللغة إلا هذين الحرفين .. هل تعرف زوجتى .. أنت رأيتها ..

هى التى قالت لى : أحبك .. وبعد أسبوع من الزواج قالت : أنا أحبك لأنك مزقت قلبى .. أى أنها أحبتنى من باب الشفقة .. طبيعى فأنا رجل أعمى .. ولاحظ أقاربى أنها تسرف فى وضع الأبيض والأحمر . لمن إذا كان زوجها أعمى ؟ ومن شهر بعد الزواج قالت لى : إنى أنا نمرود .. فلم أكد أتمكن منها حتى بدأت أجرى من البيت .. فهل معقول أنى أنا أتمكن منها .. كيف .. تريد أن تقول اننى أنا أقوى ، وأنها أضعف .. وأنا استطعت ان أستغل عطفها لكى أنال إيمانها .. كذب طبعا .. وبعد سنة من الزواج قالت : أننى صعبيت عليها حتى جعلتها تقول : أنها تحبنى .. أى أنها لم تقل ذلك .. ولا وجدت سببا معقولا .. وإنما هى أرادت أن تسكتنى فقالت إنها تحبنى .. والآن أنت تعرف الباقى .. مع أننى لا منظر ولا منصب ولا أى شىء .. ولا يوجد عندى أية وسيلة للضغط عليها .. إذن هى التى ضغطت على لكى تتزوجنى . وأفهمتنى أنها تتزوجنى لأنى رجل طيب .. كله كذب .. أبدأ حياتك فى مصر بشكل آخر .. عفا الله عما سلف .. وكأنك لا رأيت بنات ولا جلست إليهن ولا تخيلت ولا تمنيت .. اهرب بجلدك .. اهرب يا سيدى .. اهرب يا حبيبى .. وسوف تهرب . ولن أقول لك كيف تهرب .. وكل واحد له طريقة فى الهرب .. وسوف تهرب .. اذهب بى إلى بيتنا .. ربما لآخر مرة فسوف ننفصل قريبا وبسرعة إن شاء الله ..

قلت : وأين ستذهب بعد ذلك ؟

قال : أين ؟ إلى حيث بدأت .. إلى شبشب الست شج شج .. هاها .. هاها .. وأمام بيته وجدت بعض الزملاء فى انتظارنا . غريبة .

وقالوا معا : إننا فى انتظاركم من ساعتين ..

وقال الشيخ دهليز : أهو .. استلموه .. الآن أحسن من أى وقت مضى .. شفاه الله بعد الكلام الفارغ .. وإن شاء الله سوف يتم شفاؤه عندما يذهب إلى القاهرة ولن يرى أحدا منكم يا كدابين يا اولاد الكذابين .. أصبحوا كما أمسيتم على زفت !

وضحكوا .. وضحكت أنا بصورة عصبية .. وإذا الشيخ دهليز يقول : الله .. الله .. أسمعها تانى .. إضحك والنبى بالقوى .. الله .. إضحك يا سيدى .. عندى لكم جميعا مفاجأة كبرى .. غدا تجيئون وتنزل معا ..

وترتدون أحسن ملابسكم .. مفاجأة كبرى .. أنا الذى سوف أقودكم أيها العميان .. غدا ..

ما هى المفاجأة .. لم يقل .. ولكنه كان جادا .. واقتربت منه أسأله فهمس فى أذنى : لطفى السيد .. سنجلس إليه فى بيت أقاربه .. الساعة العاشرة صباحا . !

لطفى السيد ؟! لقد زلزلنا هذا الرجل الأعمى الأعرج الهجاص الجاد ، المستهتر المتفلسف الكافر الهلس الذى لا يغنى إلا شعرا جيدا .. ويكره اللغة العامية فى الغناء .. أنا لا أصدقه .. ولكنه يتظاهر بذلك .. فهو عندما يقسم بالله يقول : عندما أقسم بالله فأنا لا أكذب .

إذن كيف يقدس ما يكفر به .. إنه هو الآخر يكذب .. ويريد أن يهزنى بعنف .. وهو قد وعد بأن نلتقى بالأستاذ لطفى السيد ، الذى هو من أقاربه ، وقد وفى بالوعد .. ورغم الهيصة والفوضى التى حوله والتى يتردى فيها كل ليلة ، فهو لم ينس .. ورغم أننا نراه معظم الوقت فنحن لا نعلم من الذى كلفه بالاتصال بلطفى السيد وتحديد موعد لنا قبل أن نرى الرجل الذى هو مفخرة الدقهلية مثل على باشا مبارك .. وحسين هيكل باشا والشاعر على محمود طه والشاعر الهمشرى وأم كلثوم ..

• • •

بيت له حديقة على النيل . وتولانا الصمت والاحترام الحاضر للطفى السيد . ولكن أحدا منا لا يعرف من هو بالضبط لطفى السيد .. ماذا كتب ماذا قال .. ولماذا هذا الاحترام العظيم له .. فكل حديث عنه يجب أن يكون بحساب وباحترام بالغ .. فعندما اقتربنا من البيت .. وجدنا بوابا جالسا على مقعد أمام الباب .. اقتربنا منه لم ينهض . قال له الشيخ دهليز أنه على موعد مع البيه الكبير .. وقام البواب متكاسلا وهو يرمقنا جميعا بما لا نستحقه من الاحتقار .. وطلب منا الشيخ دهليز أن نصف له البواب فضحك وقال : أعور ؟ ..

وإذا بدهليز ينطلق كالمدفع : أنت يا ولد يا عبد الرسول يا بواب يا أعور .. تعالى .. إن هذا البواب كان يعمل فى المقهى المجاور لبيت الست شخ شخ .. وهو يعرفنى جيدا . وإن كان يتجاهلنى الآن .. ولكن لابد أن يعرف مقامه .. لابد ..

وجاء البواب . وقال : تفضلوا في الصالون بالدور الأرضى .. وسعادة البيه سوف يجيء إليكم بعد شرب القهوة ..

وقاطعه دهليز : يا عبد الرسول ..

قال البواب : نعم ..

ـ طبعا تعرفني .. أنا الذى كنت أدفع لك البقشيش .. تمام ؟

ـ تمام يا سيدنا الشيخ .

ـ كذاب .. أنت تعرف أننى لم أكن سيدنا الشيخ .. هل تعرف أن سعادة البيه يبقى ابن خالتى .

ـ أعرف ..

ـ هل تحب أن ترى سعادة البيه وهو يقبل يدى .. لا .. مش صحيح .. هذا « فشر » من عندى .. هاها .. هاها ..

وجاءت القهوة . وجاء لطفى السيد . وقد ارتدى عباءة فوق جلباب . وصافحنا وعندما جاء الشيخ دهليز قال له : وأنت يا إبليز كيف حالك .. لا تزال تسهر وتسكر وتغرر بهؤلاء الأطفال .. اخرج من بينهم أيها الشيطان .. كم عمرك يا إبليز ..

لم يرد دهليز ..

قال لطفى السيد : أنت فى سن عبد الكريم .. إذن أنت في الثامنة والعشرين الآن .. وإن كنت تبدو أصغر من ذلك كثيرا .. قل لى آخر ما نظمت من الشعر ..

ودهليز لا يرد .. لكن وجهه قد امتقع .. وجلس قبل أن نجلس وقبل أن يطلب إلينا أن نستريح ..

وقال لطفى السيد الذى بدا شمعى الوجه مشدود المعالم يتحدث باللغة العربية بطريقة غير مألوفة .. كان يحدثنا وكأنه يخطب فى اجتماع سياسى كبير .. كأنه لا يرى أننا ستة أشخاص .. ستة طلبة جاءوا للفرجة عليه ، لأنهم لا يعرفون من هو .. وإنما فقط ليروا من هذه الشخصية العظيمة الاحترام فى بلادنا .. ولم يتكلم دهليز .. ويبدو أن لطفى السيد قد اعتاد أن يتكلم دون أن يتوقع ردا من أحدا .. ولذلك لم يحرص على أن يطلب إلى دهليز أن يتكلم .. ولابد أنه لا يعرفه جيدا .. فلو كان يعرف أن دهليز غلباوى لأدهشه هذا

الصمت . ولكنه لم يندهش إذن هو لا يعرفه فى جلسات الهلس والعربدة !

وأخيرا تكلم : العيال دول .. أرادوا أن يجلسوا إليك قبل سفرهم إلى الجامعة !!

ولا أعرف ولا أتذكر شيئا مما قاله لطفي السيد : قال كثيرا في موضوعات شتى .. ووجدتها فرصة لكى أسرح وأستحضر أشياء كثيرة قالها دهليز .. ومما قلت ومما قال غيرى .. فى الماضى البعيد وأخيرا وما قال والدى .. وما قالت أمي .. وما قلت .. أو ما تخيلت أننى قلت ..

وراح الكلام ومعالمه .. وصداه .. وتداخلت الصور .. ولم تبق إلا صورة « مشيئها » بعيدا .. وكلما ابتعدت وتلاشت عادت وتجددت لتتلاشى .. فهى لا تمضى إلا لكى تظهر .. ولا تظهر إلا لكى تختفى .. وكذلك كل الأصوات والعبارات وأبيات الشعر والموسيقى .. ودقات الطبول .. ولوعة الكمان وتباريح العود ، وخفقان الطبلة .. وشهقات الشيخ دهليز ..

انتهى .. ما الذى انتهى .. لا أعرف كل شىء انتهى .. المنصورة انتهت .. المدرسة .. هى .. وأنا انتهيت .. وتخيلت أننى أصعد فوق الكتب .. سلمة سلمة .. أصعد .. وأصعد وفجأة أتزحلق ثم أقع من فوق .. طائراً بعيداً .. كأنى سحابة .. لا تحتى ولا فوقى .. ولا أنا أى شىء .. انتهى .. انتهيت .. !

• • •

وفى محطة مصر وجدت والدى فى انتظارى .. لا أعرف ما الذى قاله .. ولا أدرى من شوارع القاهرة شيئا .. ووقف التاكسى أمام بيت ..

وقال والدى : حمد الله على السلامة .. تمام العنوان ٣٩ شارع شجرة الدر ..

وابتسمت لآخر شجرة در فى حياتى .. ولم أقل ، ولا هو قال شيئا !



شجرة الدر : آخر العنقود

شجرة الدر آخر العنقود

لم أعد أجد كتابا أقرؤه فى « المكتبة الفاروقية » ولذلك أخذت كتبا معى . وجلست إلى جوار النافذة المطلة على النيل . ولأول مرة أنظر إلى النيل . مع أنه هناك كل يوم . ولكن بدأت أنقل عينى بين النيل والسماء .. وأقفلت الكتاب . اعتدت أن أطوى الكتاب . دون أن أفكر فى شىء ، وأن أنظر إلى الجالسين معى فى المكتبة . أكثرهم من طلبة المدارس . ولاحظت أنهم يقلبون الكتب بعنف . الورق فى أيديهم يصرخ . أيديهم غليظة . الورق يتكرمش . إنهم لا يعرفون كيف يتعاملون مع الكتب .. لماذا جاءوا ؟

اقترب منى أمين المكتبة وسألنى : مالك ؟

قلت : لا شىء .

قال : أنت لا تعجبنى . أنت شخص آخر غير الذى عرفته . لا تقرأ . لا تتكلم . لم تعد الكتب الموجودة هنا تعجبك . صحيح أنك قرأت أكثر الكتب هنا . ولكن ما تزال هنا كتب تستحق القراءة . كتب قديمة ولكنها قيمة .

ثم أشار إلى جانب من المكتبة . واتجهت عينى إلى حيث أشار . ولم أشأ أن أقول له أن هذه الكتب عندى فى البيت . وأنها من أحب الكتب إلى والدى . وأننى قلبت فيها كثيرا . ولكن لم أقدر على استيعابها .. حاولت ولكن لم أستطع إنها « الفتاوى الكبرى » لابن تيمية . إذا كان من الضرورى أن أقف على مقعد لكى تصلها أصابعى ، فإن عقلى يحتاج إلى سلالم طويلة لكى يبلغها ويحيط بها . حاولت ويكفينى هذه الآن .. ومن المؤكد أننى سوف أعود إليها عندما أكبر ..

ولكن الذى لاحظه أمين المكتبة صحيح . وأنا أيضا قد لاحظت على نفسى أننى سرحان .. مأخوذ .. شىء ما يسحبنى إلى مكان ما بعيد .. ما هو هذا الشىء . لا أعرف . هل هناك ما يضايقنى ؟ هل هناك ما يشغلنى ؟ لا شىء !

لا أحد . ولكنى غير قادر على التركيز .. عقلى مثل أصابع مشدودة ممدودة .. لا تحتفظ بشىء . بل كل شىء يتساقط دون أن أجد القدرة أو الرغبة فى التشبث به .

وتعلمت أن أنظر لنفسى فى المرآة . ونظرت وتركزت عيناى على عينى . النظرة حزينة . العين سادرة .. المرارة على شفتى . الشعر قصير جدا . لأول مرة ألاحظ ذلك . وأعود مرة أخرى أنظر إلى وجهى . شىء ما أعجبنى فى نظرتى . إننى أفكر . وتذكرت كيف بهرتنى صورة الفيلسوف الألمانى هيجل . الجبهة عالية واسعة . والرأس كبير . والعينان واسعتان قد امتلأتا بالكون . والشفتان ممتلئتان . حتى الفم يبدو وكأنه هو الآخر قد امتلأ بكل ما فى الدنيا .. ولم أر بقية جسم الفيلسوف ولكن هذا الذى رأيت يكفى .. ورأيت صورة الشاعر الألمانى جيته .. وصورة للموسيقار بتهوفن .. وتداخلت كل هذه الصور .. ولا أعرف ما هو الفرق بين كل هؤلاء .. ولا ما هى القيمة الحقيقية . فأنا أعرف عن الفيلسوف ، والقليل عن الشاعر ، ولم أستمع إلا مرة واحدة للموسيقار .. وكان ذلك فى إحدى حفلات السيد هرش ووسط هذه الجالية اليهودية فى المنصورة .. ولكن هذه الوجوه الرائعة تطل من كل الصفحات .. حتى عندما نظرت إلى نفسى فى المرآة .. كنت أحاول أن أقلد أى واحد من هؤلاء .. فكنت أفتح عينى وأطبق شفتى وأبدو كما لو كنت كبير الرأس ممتلىء الفم . ولكن ليس عندى ما هو أكثر من ذلك ..

ولما قرأت ما كتبته فى مذكراتى التى اخترت لها عنوانا غريبا عجيبا ، قال لى القدر قل .. فقلت ، ولا أدرى من أين جئت بهذا العنوان ولا بهذا الحوار ولا بأن يكون الحوار على هذا المستوى الرفيع . ولو سألت نفسى فى ذلك الوقت عن معنى القدر ، ما وجدت تعريفا لذلك .

وقرأت فى المذكرات : لا أعرف أين أدير وجهى . لا أعرف أين أحدد مسار عينى . لا أعرف ما الذى أقوله لزملائى لو قابلتهم . لم يعد عندى كلام . ولا عندهم أيضا . هم يقولون وأنا لا أسمع . هم يضحكون وأنا لا أرى سببا لذلك . إذا ساروا تقدمتهم أو تخلفت عنهم . كأننى لا أريد أن تكون هناك علاقة .. أو إذا كانت علاقة ، فأنا حريص على تبديدها .. تمزيقها .. إهدارها .. لماذا ؟ كل شىء ممل : أصواتهم .. وجوههم .. الطريق ..

الناس .. الكتب .. كلامي ممل . تفكيري ممل .. المرآة مملة .. أو الوجه الذي يطالعني منها فيه إلحاح كثير . فقد رأيته أمس ، وأول أمس .. ولا معنى لأن أراه اليوم أو غدا .. ممل .. الدنيا مملة .. هذه الكتابة .. هذا الورق هذا القلم .. هذا الحبر ..

إذن هذا هو الذي أصابني بصورة واضحة : إنه الملل !

عندما وجدتني محتاجا إلى أن أغير الوجوه والطريق ومواعيد الخروج والعودة إلى البيت ، ذهبت إلى حديقة « شجرة الدر » .. اختلفت الألوان في عيني .. أوراق الشجر صفراء .. الأوراق أكف تتسول الاهتمام بها .. الأعشاب على الأرض جافة . المقاعد ضاقت .. صغيرة تهتز عندما جلسنا عليها .. لم أجد شيئا من كل هذا الذي كنت أجده قبل ذلك .. أين اللون الأخضر وأين الأحمر والأصفر والأبيض .. وأين زرقة السماء .. وأين الفضة في قرص القمر ..

شيء عجيب .. كأن العالم الخارجي ليست له ألوان . وأن هذه الألوان تخرج من عيوننا . فالسعيد يجعل الدنيا حوله سعيدة .. والشقي يجعلها كذلك . والذي لا يستطيع شيئا تقف الدنيا كلها في حلقه . أو تسقط من عينيه أو تنهار من أذنيه . فالدنيا كلها تخرج منا وتتشكل وتتلون وتقرب وتبعد كما تريد .. فهذا المقعد جلست عليه وقلت وسمعت . وتخيلت . وكان يتسع لثلاثة معا .. وضاق بي وحدي .. شيء عجيب . والكتب التي كنت أجدها من نعم هذه الحياة . لم تعد من هذه الحياة ولا حتى لها حياة . وكنت أنا قلبها الذي يدق كل يوم ومنذ سنوات .. فلا أنا قلبها ولا القلب يدق .. مرض أصاب الدنيا .. شلل .. ولكنه أصاب دنياي أنا .. فالناس كما هم . والزملاء يجيئون في نفس الموعد . ويمشون معا ويتناقشون ويضحكون . لم تتعثر دنياهم . لأنهم لم يتغيروا . إذن أنا مريض . ولزمت البيت ..

وجاءني الزملاء يضحكون واستعدت شيئا من الانتعاش . وقال واحد منهم : هل من المعقول أن تجلس بالساعات أمام ملجأ الأطفال ثم تريد أن تكون سعيدا ؟

وكنت قد نسيت تماما أنني مررت بملجأ الأطفال . وتوقفت عنده طويلا . ورأيت السيارة تنقلهم وترميهم أمام الباب . وتتهاوى الأيدي والأرجل تدفع الأطفال إلى داخل الملجأ .

وجذبني هذا الملجأ تماما .. وظللت أياما أتردد على بابه .. وأقف عنده .. وأرقبه من بعيد . فقد تصورت يوما أن السعيد من لا أب له ولا أم .. السعيد : طفل ولد فى الطريق . وألقى فيه . ثم امتدت يد رحيمة ونقلته إلى ملجأ . وكبر فى الملجأ إبنا لكل الناس . قريبا منهم . فإذا خرج من الملجأ استطاع أن يختار لنفسه من يشاء من الإخوة والآباء والأمهات . لا شيء مفروض عليه . إذا تعذب فهو الذى اختار وإذا أسعدته الأيام فهو أيضا الذى اختار . وأما الذين يقومون بتربيته والعناية به فهم موظفون . الأب مدرس والأم مدرسة . وإخوته كل الأطفال اللقطاء .

إن ملجأ اللقطاء مثل « مشاتل الورد » .. فالورد ينقلون شجراته من الأرض إلى أوعية فخارية فى المشتل .. في البيوت الصغيرة الزجاجية .. وينمو الورد فى الوعاء الفخارى .. ثم ينقلونه إلى الحديقة .. فهو ينقل من مكان إلى مكان .. كل يوم هو فى أرض .. ليس مرتبطا بأرضٍ ولا بأحد .. ويلقى العناية من الجميع .. إنه اللقيط مثل الطيور فى المزارع .. ينقلونها من بيوت الفلاحين إلى حظائر الدواجن .. فالحظائر أرحم كثيرا من البيوت .. والأوعية الفخارية أكثر حنانا وحفاوة من الأرض الشاسعة .. .

ولكن لم أر السعادة على وجوه الأطفال ولم أفهم . ووجدت أنه لابد أن يدلهم أحد على هذه النعمة التى هم فيها ولا يعرفونها .. لابد أن يكون من واجب المدرسة أن تقول لهؤلاء الأطفال .. أنهم لا ينتظرون عودة الأب وشفاء الأم .. إنهم لا يدورون فى الشوارع يبحثون عن الدواء .. ولا يقفون أمام الأفران يبحثون عن الخبز .. ثم إن أحدا لا يغمز ولا يلمز إذا تأخروا عن دفع الإيجار .. وعندما ينام الواحد منهم فإنه يغرق في النوم .. فلا يسمع آهة مريض ولا سعال أطفال .. ويكون هذا المريض أباه أو أمه ويكون الطفل أخاه .. إنه ليس مسئولا عن أحد .. فكل الناس مسئولون عنه .. نعمة .

ولكن لم أشهد إلا الحزن فى عيون الأطفال . وأنا أحب الأطفال . أو أحب أن أكون على مقربة منهم . هل لأننى لم أجد أطفالا فى بيتنا . هل إذا زارنا أطفال فالفترة قصيرة ؟ ربما .

ولابد أننى كنت سارحا تماما عندما استنكر أحد الزملاء أننى أتردد على ملجأ اللقطاء القريب ..

ثم قال زميل آخر : لقد رأيناك منذ أيام وقد وقفت توزع الملبس على الأطفال أمام باب المدرسة .. من رآك يقول أن لك أخا أو أختا .. هاها .. هاها ..

فعلا حدث . فقد ظننت أن هؤلاء الأطفال يحتاجون إلى بعض الحلويات . واشتريت. وذهبت . ولكن الأطفال خطفوا الملبس . وكانت أصابعهم مثل مناقير الدجاج تخطف حبات القمح وتجرى دون أن تبدو عليها السعادة بذلك . ليسوا سعداء . ووجوههم هى الحزن الدفين . وعيونهم دموع جافة . والمدرسون في غاية القسوة . وجوههم مجرمة . وعيونهم كرابيج لا الأطفال سعداء ولا المدرسات . ليس ملجأ . وإنما هو سجن للأطفال . وكان هؤلاء الأطفال محرومين . لابد أن يلقوا جزاءهم . مع أن الأطفال ضحية .

وتشاء الصدفة وحدها أن أزور صديقا من أغنياء المنصورة . كبيرا فى السن . أنيق الملبس . يغير ويبدل فى ملابسه وقمصانه وكرافتاته كل يوم كيف ؟ إنه كذلك .. إنه غير بقية الناس .. وفى بيته وجدت إحدى المجلات الأدبية .. وقلبت ووجدت مقالا لمصطفى صادق الرافعى عن « عربة اللقطاء » .. فقد رأى عربة تنقل اللقطاء إلى الشاطىء .. والعربة يجرها حصانان . والحصانان فى حوار حول هؤلاء الأطفال المساكين . وقرأت مقارنة بين هذه العربة وعربة الكلاب .. وأنكر له وصفا لهؤلاء الأطفال فقال : إنهم أولاد الجرأة على الله . والتعدى على الناس والاستخفاف بالشرائع . والاستهزاء بالفضائل . وهم الكراهية الخارجة من الحب . والوقاحة الآتية من الخجل . والاستهتار الصادر عن الندامة .

وما أصدقه عندما قال : ابتسم الأطفال بوجوه يتيمة !

وكرهت الأستاذ الرافعى . فقد كان قاسيا . ومن أدراه أنه ليس إبناً غير شرعى ، كيف عرف أنه ابن والديه ؟ من الذى قال له ذلك .. ومن هذا الذى على يقين من أنه إبن حلال ؟ ثم ما ذنب هؤلاء الأطفال ؟ .. إنهم ضحايا .. ولكنهم بشر . مساكين . والذى ينتظرهم فى الدنيا أكثر قسوة وتعاسة من كل ذلك .. إنهم يعانون كل يوم .. إننا لم نفلح فى إلقاء القبض على المجرم فحبسنا القتيلَ .. وكان القتيل طفلا ولم يكن قتيلا ولكننا نتولى قتله بانتظام كل يوم !

فما الذى أحزننى ؟ ما الذى ضايقنى ما الذى أفزعنى ؟

فقط انهارت أمامى ، وانهارت بى أيضا : أفكار كثيرة كنت أقمتها فى الصمت وحدى . وهى أن أسعد الناس : اللقطاء ..

وما دام اللقطاء ليسوا سعداء ، إذن فلا سعادة فى هذه الدنيا !

وكان من بين الزملاء شاب لطيف رقيق . كان أكثرنا هدوءا . أما أبوه فهو خطيب مسجد الحسينية . وهو من أحب الناس إلى الناس . وأكثرهم فصاحة وبلاغة . وكان صوته قويا مليئا . وقلت للزميل : أريد أن أرى والدك وحدى .. ممكن !

قال : طبعا . متى ؟

قلت : اليوم ..

قال : هل نترك الزملاء ؟

فقلت : أرجوك ..

وفى الطريق سألنى : إن كان شىء قد أصاب والدتى .

فقلت : لا شىء .

قال : والدك ؟

قلت : لا شىء .

قال : إذن أنت تريد منه أن يقرأ لك سورة « يس » لتخفف عنك الألم . أو تريد أن يكتب لك حجابا ..

قلت : لا ..

قال : إذن أنا عرفت .. وكان بودى أن أنصحك .. ولكن لم أشأ أن أتدخل فى شئونك .. تريد أن تشكو له ابنة أخته ؟

قلت : مين ؟

قال : « آ .. »

ولم أكن أعرف ذلك . ولم يكن عندى سبب واحد لكى أشكوها . أو أشكو أحدا من الناس .. عندى إحساس أننى « صفيت » حسابى مع الدنيا كلها .. فليس لى حق الحياه . انتهى . لافى البيت ولافى الشارع .. وكل صور السعادة قد انهارت أمام ملجأ اللقطاء .. ثم إنه ليس هناك أحد يعنيه أمرى ، ولا يعنينى أمره ، كل الخيوط تقطعت .. والأرض تحت قدمى بئر عميقة مظلمة باردة ..

وأنا أهبط .. فلا شيء أراه ولا شيء أسمعه .. ولا أرض تحت قدمي .. ولكنى أهبط .. أهبط ..

فقلت عندى مشكلة أريد أن أعرف رأيه فيها ..

قال : مشكلة الشيخ دهليز .. تريد أن تترك المدرسة وتحترف الغناء .. لا تؤاخذنى إذا كنت أحاول أن أسألك .. فالطريق أمامنا طويل ..

قلت : لا ..

قال : إذن هل صحيح ما يقال من أن جمال ابن صاحب البيت يريدك أن تعمل معه فى دكان الورنيش .. دكان الورنيش فى شارع السكة الجديدة .. إن أقاربه يملكون هذا الدكان وهو يتردد عليه بانتظام ..

قلت : لم أكن أعرف ذلك ..

وأعتقد أنه سألنى كثيرا ولكننى لم أجد ما أقوله .. ووقفت أمام البيت . وقال : فى الدور الرابع .. والسلالم مظلمة وملتفة ومكسرة . ويجب أن تتساند على الجدران ..

وقد تولانى شعور غريب .. إن السلالم هى أيضا بئر مقلوبة .. إننى أصعدها دون وعى منى .. فأنا لا أصعد وإنما أنا أهبط .. ولن تمضى لحظات حتى تنقلب السلالم وتكون بئرا .. وأهبطها على رأسى .. دوخة . من المؤكد أننى دائخ وأننى الذى أدور حول نفسى .. أما الدنيا فهى على حالها ، معتدلة مستقيمة عريضة .. وتستأنف نشاطها اليومى كما هى .. ولكننى .. نعم ولكننى أنا الذى ارتبكت كل خيوطه . وتضخمت كل عقده .. وأصبحت مثل عنكبوت أفرز كل هذا النسيج ثم سقط ضحية لكل ذلك .. فأنا الذى أفرزت خيوطى وعقدها .. وتعلقت فيها مشنوقا .. وأنا الذى شنقت نفسى وأنا الذى أدنت نفسى وأنا الذى حكمت بإعدامى . منتهى الظلم !

ووجدتنى أمام الشيخ محمود عبد البر أخطب خطباء المنصورة . وحده . وقد ارتدى جلبابا أبيض وطاقية بيضاء . واقترب علاء الدين إبنه وهمس فى أذنه . فقال الشيخ محمود : تفضل يا إبنى أهلا وسهلا .. أخرج أنت يا علاء ! خيرا يا إبنى .. كيف حال الأسرة الكريمة ؟

ـ الحمد لله يا أستاذ ..

ـ وصحتك

ـ الحمد لله ..

ـ إذن خير يا إبنى !

ـ لم أعد قادرا على القراءة يا أستاذ ..

ـ استرح يا إبنى .. أنا أيضا تمر بى أيام لا أفتح كتابا . وأحاول ولكنى لا أستطيع .. العقل تعب . العين تتعب .. النفس تتسد .. قال رسول الله ﷺ : « إن لبدنك عليك حقا » ! أنا أعرف انك تقرأ كثيرا ..

ـ ولا حتى كتب المدرسة .

ـ إنها جميعا كتب .. كتب المدرسة وكتب المكتبة .. ولكن منذ متى يا ولدى ؟

ـ منذ شهور ..

ـ هل تنام جيدا ؟

ـ نعم ..

ـ وتأكل ؟

ـ نعم ..

ـ لم أعد أراك فى المسجد ..

ـ صحيح . إننى لا أذهب .

ـ لماذا ؟

ـ فالمسجد هو الآخر أصبح مثل الكتب .

ـ آه .. أنت جلست مع الشيخ دهليز . إن هذا الرجل مفسد . لقد كان خطيبا لمسجد فى دمياط . وطردوه لأنه طلب من المصلين ألا يدخلوا المسجد لأنهم جميعا كذابون منافقون . وفى يوم وقف على باب المسجد . معلنا أن الذى كذب أمس لا يدخل . وحاول منع الناس فمنعوه من الصلاة وخطبة الجمعة .. ثم طردوه ..

فقلت : ولكنه لم يخبرنا بشىء من ذلك .. إنه يغنى ونحن كنا نغنى وراءه .. ولم أعد أراه منذ شهور ..

قال إنه هو .. أنا أعرفه .. هو .. لا أحد سواه ذلك الشيطان اللعين ..
قلت : ولكنه ليس شيطانا .. إنه رجل لطيف رقيق ..

وجاءت فناجين القرفة . وطلب منى أن أشرب . وكانت القرفة ساخنة جدا . ولسعتني وصرخت صرخة مكتومة . وضحك وقال : منذ هذه اللحظة لن تعرف طعم القرفة .. فاللسان الملسوع لا يتذوق شيئا .. فما الذى لسعك يا ولدى ؟ حتى لم يعد لشيء طعم على لسانك .. أهى « آ .. » .. أنت صغير وهى صغيرة يا ولدى .. وأفكار كما صغيرة .. والطريق أمامك طويل .. ولا تحمل على كتفيك شيئا الآن .. سوف تحمل الكثير على رأسك وقلبك .. المثل الشعبى يقول : خفها تعوم .. أى أبعد الأحمال من فوق المركب فتكون خفيفة تعوم بسهولة .. والمثل حكيم . وأنا لم أفكر فى الزواج إلا بعد أن تخرجت فى الأزهر وإلا بعد أن استقرت الدنيا تماما . ولما تزوجت اخترت واحدة تعرف بالضبط ما هى طبيعة عملى .. فزوجنى أبوها إمام مسجد سيدى شمس الدين الشربينى .. وهى كريمة من أسرة كريمة . والحمد لله ..

هل ضحك الرجل . هل أغمى عليه . هل سقط من فوق المقعد ، هل تحطم فنجان القرفة فى يده هل جاءت زوجته هل جاء كل الأولاد ؟ هل انفتحت النوافذ ورأيت كل الجيران حولى يضحكون عندما قلت له : يا أستاذ أنا أريد من حضرتك خدمة .

قال : بكل سرور يا ولدى .

قلت : أريد أن أدخل أى ملجأ للقطاء !

ووجدت نفسى أتعثر فى الشارع عائدا إلى البيت !

• • •

وفى اليوم التالى أحسست بشيء من الإرتياح . فلم يقل الشيخ محمود شيئا . ولكنه استقبلنى وحدثنى وسألنى . وحاول . أنا لم أقل شيئا فأنا لم أعرف ما هذا الذى أشكو منه .. وهو حاول . ولم يهتد إلى حل لأنه لا يعرف المشكلة .. يكفى أنه كان أبا .. أو فى لحظة كان أبا .. وإذا كان قد أضحكه الذى قلت ، فلأنه شيء مضحك . فهو لا يعرف التاريخ الطويل لهذا المعنى . ولا العناء

اليومى الذى أرزح تحته . ولكن لا أجد نفسى مضحكا . وإنما هى المفاجأة التى أضحكته . ولو جلس معى واستطعت أن أحكى له لكان أقل ضحكا . بل لعله يبكى .. كما يبكى الناس وهم يستمعون إلى خطبته فى المسجد .. إن الشيخ دهليز نفسه هو الذى لم يكف عن الضحك عندما قلت له : ولماذا لا ندخل القبر .. لنرى الملائكة كيف يحاسبوننا ؟

فقال ضاحكا : أما أنا فلن يحاسبنى أحد .. إذا جاء الملائكة فسوف أقول أنا لا أعرفكم .. أنا أعمى .. فتحوا لى عينى ثم حاسبونى .. ولو فتحوا عينى لهربت منهم هاها .. هاها .

وكنت أعجب بأفكار الشيخ دهليز . أو على الأصح كانت تعجبنى فيه أنه يوافقنى على أفكارى . وكان يقول : والله ملجأ اللقطاء أحسن من القرف الذى نعيشه مع الست شج شج .. على الأقل نغنى ونرقص على مزاجنا .. ليس بالقوة ولا بالكرباج والشخط والنطر .. تعرف أول أمس كان عندى مغص يمزقنى .. ومع ذلك كنت أغنى : إفرح ياقلبى لأم كلثوم .. وغنيت البحر بيضحك ليه وانا نازله ادلع أملا القلل .. والله حصل .. قرف .. سخرة .. يمكن لأنى أعمى محتاج لمن يجرجرنى هنا وهناك .. ولكن أنت ما الذى يجرجرك .. الدنيا واسعة أمامك .. إفعل ما بدالك .. فالملجأ للعميان فقط !

قلت : ولكنى لم أعد أرى

قال : إذهب لطبيب عيون !

قلت : ليس هذا ما أقصده

قال ضاحكا : والله هذا ما أفهمه .. إنك تحدث أعمى عن جمال الدنيا .. أو إنها لم تعد جميلة .. فكيف تنتظر رأيى .. فمن لا رؤية له لا رأى له !

معقول ولكنه ليس مريحا . وإن كان لم يرفض مثل هذه الأفكار الجنونية .. وفوجئت بالشيخ دهليز على باب بيتنا ..

وقال : قل لى أدخل ..

قلت : اتفضل أدخل ..

قال : أين غرفتك ؟

قلت : تفضل ..

قال : إقفل الباب .. أنت أعطيتنى فكرة كانت غائبة عنى تماما .. وأنا جئت

أطلب مساعدتك . بأي شكل . أنا تعبان مع زوجتي . وهي تعبانة . وهي تعبت وأنا كما تعلم . وأريد أن أطلقها . لابد . هي قد تحملت الكثير من مشاكلي . ولابد أن تكون سيدة طيبة القلب . وإلا كيف تزوجت مصيبة مثلي .. أما الخدمة التي أطلبها منك فهي أن تذهب معا إلى قريبك المحامي ..

فقلت : لماذا ؟

قال : موضوع خاص ..

وذهبنا معا ، وفاتحه الشيخ دهليز قائلا : يا صاحب السعادة .. جئت أطلب خدمة إنسانية لرجل أعمى . الله يسترك لا تفضحني . أريد أن أدخل السجن .

فضحك المحامي كثيرا . وسأله : لماذا ؟

قال : لأنني في سجن . كما ترى . ودخولي أي سجن لا يضيف لي شيئا جديدا . ولكن في داخل السجن سوف أجد حريتي . لا شغل . لا إكراه في الغناء .. لا بحث عن الطعام لا زوجة تمن عليك بالطعام والشراب والحياة معا . الله يسترك إسجني . أنا معي الآن قطعة حشيش . وأرجو أن تبعث الخادم يطلب البوليس لإلقاء القبض علي .. الله يخليك يا معالي البيه .. ربنا يكرمك كما أكرمتني . إذا لم يكن السجن .. إذن أتقدم لك بطلب آخر لي ولقريبك هذا .. أدخلنا معا ملجأ اللقطاء !

وعندما عدت إلى البيت وجدت جدتي لأمي ..

وفي ملامحها كل الذي يرهق الأعصاب .. ولابد أنها جاءت لأسباب قهرية . فأنا لا أراها كثيرا ولا أحب .. فهي طويلة عنيفة مشدودة العود .. مشدودة الوجه زرقاء العينين . تتباهى بأنها فرنسية أوربية . لم أرها جالسة قط . وإنما كانت دائما واقفة لأن الوقوف يعطيها هذا الشكل الذي يأمر وينهى ويتوعد . وقد ضربتني كثيرا . وتؤكد من حين إلى حين أنها على استعداد أن تفعل ذلك لأي سبب .. دون خجل تؤكد هذه المعاني . ودون أن تلاحظ سخريتي منها واستنكاري لهذا الذي تقوله . ولا تسمع ما يقال لها من أنني كبرت .. وأنه ليس من شأنها أن توجه لي نقدا أو توجيها .

ولم تكد تراني حتى قالت : عندك إيه يا كلب ؟!

وكل الناس عندها كلاب صغيرة وكبيرة . وهي تذلل الناس بهذه الصفة .

أما بقية الحيوانات فهى للإهانة . ولكن الكلب دليل على المودة والرقة والتلطف وفتح أبواب الكلام . فقلت : لست كلبا !

محاولا أن أقفل باب الكلام .. أو أى باب بينى وبينها . ثم قالت : اليوم تسافر معى إلى بيت جدك .. لبضعة أيام لكى تعود كلبا قويا وفى صحة جيدة وبدلا من أن تنبح جدتك فإنك تعضها وتأكل ذراعها ..

أين والدك ؟

آه .. هذا هو السكين القديم ، الذى كانت تغمده فى قلبى ويخرج داميا وتتفرج عليه لتغمده فى مكان آخر .. من أجل ذلك كرهتها .. ولم أمش فى جنازتها . ولم أترحم عليها لحظة واحدة . ومن أجل ذلك كنت آتى بالتراب وألقى به فى حلل الطبيخ .. ومن أجل ذلك حاولت إشعال النار فى ملابسها .!

• • •

وفى القرية .. اتجهت إلى بيت صديق تركنا ودخل الأزهر .. أما النور فوجهه ، وأما الهدوء فكل جسمه .. وأما الراحة والسعادة ففى كل الناس حوله . كيف استطاع ذلك ؟ كيف صار هكذا مختلفا عنا .. ثم إنه راض تمام الرضا ..

قلت له : كيف .

قال : القرآن ..

قلت : أى شىء فى القرآن ؟

قال : نحن حفظنا القرآن معا . ولكنى انشغلت به أكثر وتعلمت كيف أتوسل إلى كنوزه وكيف أنحنى عليها وأحرص .. وأصلى وأصوم وأتوب .. هذه هى السعادة الحقيقية .. واذهب إليه فى كل الأيام ..

وفى كل مرة أزداد راحة وتتفتح أمامى نوافذ الأمل .. شىء ما أضاء فى داخلى .. أضاءنى .. لا أعرف ما هو ..

وخرجنا معا . وتحت شجرة على ترعة صلينا . وأخرج من كيس كتابا . وقال سوف أقرأ لك :

وقرأ :

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إصبروا وصابروا » ..

وقال تعالى : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين » .

وقال تعالى : « واستعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين » .

وقال تعالى : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين » .

وقال رسول الله ﷺ : الطهور : شطر الإيمان ، والحمد لله : تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله : تملآن ما بين السماوات والأرض ، والصلاة : نور والصدقة : برهان .. والصبر : ضياء ، والقرآن : حجة لك أو عليك . كل الناس يغدو : فبائع نفسه ، فمعتقها أو موبقها ..

ويقال أن الرسول عليه السلام أعطى أناسا فسألوه حتى لم يبق معه شيء . فقال لهم : ما يكن من خير ، فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله . وما أعطى أحد عطاء خيرا من الصبر .

وقال رسول الله عليه السلام : عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا المؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له .

ولما ثقل المرض على رسول الله قالت فاطمة رضى الله عنها : وأكرب أبتاه . فقال عليه السلام : ليس على أبيك كرب بعد اليوم .

فلما مات قالت فاطمة : يا أبتاه أجاب ربا دعاه . يا أبتاه جنة الفردوس مأواه . يا أبتاه إلى جبريل ننعاه .. فلما دفن قالت فاطمة رضى الله عنها : أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب ؟

مر الرسول عليه السلام على المقابر فوجد امرأة تبكي فقال لها : إتقى الله واصبرى . فقالت : إليك عنى ، إنك لم تصب بمصيبتى .

فقيل لها : إنه النبى ﷺ .

فذهبت إلى بيت رسول الله فلم تجد عنده حراسا فقالت له : لم أعرفك . فقال الرسول إنما الصبر عند الصدمة الأولى !

سألت عائشة رضى الله عنها رسول الله عن الطاعون فقال : كان عذابا يبعثه الله تعالى على من يشاء فجعله الله تعالى رحمة للمؤمنين ، فليس من عبد يقع فى الطاعون ، فيمكث فى بلده صابرا محتسبا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له ، إلا كان له مثل أجر الشهيد ..

وقال رسول الله : يقول الله عز وجل : إذا ابتليت عبدى فصبر ، عوضته الجنة ..

كان رسول الله مريضا . فقيل له : يا رسول الله إنك توعك وعكا شديدا . فقال : أجل إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم . فقيل له : ذلك أن لك أجرين ؟ قال الرسول : أجل ذلك كذلك . فما من مسلم يصيبه أذى شوكة مما فوقها . إلا كفر الله بها عن سيئاته وحطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها ..

قال رسول الله : لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه ، فإن كان لابد فاعلا فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى .

ذهب جماعة من المسلمين إلى الرسول عليه السلام وكان جالسا إلى جوار الكعبة فقالوا : ألا تدعو لنا ؟

قال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض ، فيجعل فيها .. ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصرفه ذلك عن دينه . والله لن يتم هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه . ولكنكم تستعجلون !

قال رسول الله : إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا ، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه ذنبه حتى يوافى به يوم القيامة .

وقال أيضا : إن عظيم الجزاء مع عظيم البلاء . وإن الله تعالى إذا أحب قوما إبتلاهم . فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط ..

قال رسول الله : من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه ، دعاه الله سبحانه وتعالى على رؤوس الملأ يوم القيامة حتى يخيره من الحور العين ما شاء ..

قال رجل للنبى ﷺ : أوصنى يا رسول الله قال له : لا تغضب .

وفى إحدى الغزوات قال الرسول عليه السلام لرجاله بعد أن غربت

الشمس : يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف .

ثم قال عليه السلام : اللهم يا منزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، إهزمهم وانصرنا عليهم ..

كم أمضينا من الوقت .. لم أشعر بشيء من المكان أو الزمان .. وإنما كل الذى أنكره فى ذلك الوقت أن استردت الدنيا كل ألوانها .. الزرع أخضر والأشجار .. والقنوات .. وانطلقت عطور من كل شيء .. والفراشات كأنها ملائكة .. أو كأنها كلمات طائرة .. أو كأنها دعوات صالحة .. وفجأة ظهر الأطفال والأبقار والجواميس والأغنام .. وكل شيء له لون وله صوت وله حجم .. وكل أضواء الدنيا انعكست على وجه زميلى الشيخ نور الدين .. كيف قرأ .. كيف كان صوته .. كيف كان سحره .. فما الذى فعله كل ذلك بنفسي .. لقد أصبحت أخف وزنا .. أطول .. أعرض .. وجدتنى قد نشرت ذراعى ومددت ساقى .. واقتطع وأقتطف أعواد البرسيم وأضعها فى فمى .. كأننى أريد أن أعيد الدنيا كلها إلى أعماقى .. كأننى أستطيع أن أحتوى كل شيء .. وكنت قد رفضت ورفضنى كل شيء ..

نعم : لا تغضب ..

قالها رسول الله .. لا تغضب من أحد .. لا تغضب على أحد .. لا تغضب من نفسك .. لا تكن قاسيا عليها .. لا تغضب .. لا تسخط .. لا ترفض .. أمسك نفسك ، تظل الدنيا أمامك .. إذا أطلقت الغضب على نفسك ، فقدتها ، ولم تجد ما يعوضك عنها .. صدق رسول الله .. ما أعظمه ما أحكمه .. إذن لابد أن أصالح نفسى على نفسى . فهذا قدر .. وهذا قضاء وقدر . وهذا مستحيل . وهذا صعب . والطريق طويل .. ولابد من الصبر على الطريق وويلات الطريق . وأكثر ويلات الطريق : الناس !

وعندما نهض الشيخ نور الدين وهو يتساند على الشجرة قال :

قيل لرسول الله : يا رسول الله من هو أكرم الناس ؟

قال : أتقاهم .

فقالوا : ليس عن هذا نسألك !

قال : يوسف .. إنه نبى الله بن نبى الله بن نبى الله بن خليل الله ..

قالوا : ليس عن هذا نسألك !

قال : فعن معادن الناس تسألونني ؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام ..

وقال رسول الله : إن الدنيا حلوة خضرة . وإن الله مستخلفكم فيها ، فناظر كيف تعملون . فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء ! وأخيرا هذا دعاء رسول الله عليه الصلاة والسلام : اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى ..

* * *

وفي بيت الشيخ نور الدين جاءت فتاة طويلة ومدت يدها فقال : زوجتي ..

قلت : مبروك . لم أكن أعرف أنك تزوجت .

قال : وعندي أولاد .. هذه أصغرهن جميعا .. إنها آخر العنقود .. تزوجت مبكرا الحمد لله . عندي ثلاثة أطفال .. هذه الرضيعة سوف تكون زوجتك . هذا أمر .. لن تجد خيرا منك !

فضحكت أنا وهو وزوجته قائلا : بل لن أجد خيراً منها !

ثم قال : إن جدتها سيدة قوية جبارة .. أنت تعرفها عاشت في لبنان بعض الوقت . ثم في فرنسا .. وهي التي اختارت لها اسما غريبا وحكت لنا قصة طويلة .. المهم أنها تتمنى لها أن تكون ملكة على مصر !!

فقلت : اسمها شجرة الدر ؟

قال : نعم . كيف عرفت ؟

وضحكت وقلت له : أنت لا تعرف كم عدد شجرات الدر في حياتي إنها غابة .. وفيها كل الوحوش البشرية !



شجرة الدر الأخضر مرة

شجرة الدر الأخيرة

مضى وقت طويل قبل أن ينفض المولد في رأسي وفي أذني وفي عيني .. وتساقطت خطوط كثيرة كانت تربطني بالآخرين .. ووجدتني وحدي مرة أخرى .. ولكن أكثر عزلة من أى وقت .. وأخف وزنا وحركة وأميل إلى المرح دون سبب واضح . ولكن شيئا ما ثقيلا كان هنا على رأسي .. كان هناك في قدمي .. كان هناك في قلبي ..

في الصباح الباكر ذات يوم وقفت على كرسي في غرفتي لأنظر إلى الشارع .. لم أجد شارعا . إنها حارة ضيقة . وفي مواجهة البيت توجد خرابة .. وفي البيت المجاور وجدت فتاة صغيرة تنظر هي الأخرى من النافذة . وجدتها تضحك .. طبعا تعرفني وكنت أداعبها عندما كانت تحبو وفي حجم الكرة .. وكنا نتنافس في حملها إلى البيت .. إنها ألعوبة الشارع كله .. ولم أجدها كما كنت أراها قبل ذلك ..

وخرجت من البيت .. وأمام الباب نظرت يمينا وشمالا .. ثم إلى عتبة البيت .. إنها متآكلة منهارة .. وإلى مدخل البيت إنه كئيب كالح .. والسلالم سوداء قذرة .. ولم أكن قد رأيت ذلك بوضوح قبل ذلك ..

وقررت أن أتجه يسارا . وأن أمر أمام بيت « آ ... » ولا أتوقف . ولا أحاول أن أستمع إلى شيء يجيء من النافذة . فلم تعد تهمني : لا بيتها ولا صوتها ولا صورتها .. ولكن إذا كانت لا تهمني فما الذى يجعلني هكذا أبذل جهدا خارقاً على تفادى ذكراها .. ولا أرى أخاها وصديقاتها .. ولكن ما دمت أفعل ذلك ، فهي إذن ما تزال تهمني .. نعم تهمني . ولكن أقل من ذى قبل . فهل يا ترى لو رأيتها الآن .. هل تسرى الكهرباء في جسمي .. وأجدني سنذرت إليها وسألتها .. وانتظرت أن ترد .. أو اتجهت إليها لكي أرمقها بنظرة عتاب ثم لا أنطق بكلمة .. أو أمسك يدها وأقول لها : أنت فضحتني ..

وقبل أن ترد مستوضحة معنى ذلك أبادر بقولى : نعم أنت فضحتنى فى المنصورة كلها .. وأنت تعرفين السبب !

ولكن ماذا يحدث لو قالت هى : بل أنت الذى فضحتنى وأنت تعرف ماذا جرى فى المقهى المسخرة الذى تجلسون فيه .. أنت مالك .. لماذا تتعمد أن تسىء إلى سمعتك .. ما علاقتك بهؤلاء العاطلين الذين يغنون ويرقصون .. لماذا لا تتفرغ لدروسك .. ما الذى أصابك ؟ أين الكتب ؟ أين الفلسفة ؟ أين ما كنت تحلم به ؟ كل ذلك تبدد مع الطبلة والمزمار ؟ وأين ما كنت تقوله عن المكان المقدس الذى تحتله وانتك من حياتك ؟ وتريدنى أن أصدقك بعد ذلك ؟ .. إننى لم أفضحك .. أنت كتبت خطابا وبعثت به . وقرأته صديقتى .. وهى مستودع أسرارى .. وهى حكت كل ما قرأت لصديقات أخريات أقل تحفظا فانتشرت قصتنا فى البلد .. ولكن لا تقلق .. فالناس يعرفون أنك خجول .. ويعرفون أننى على خلق .. ولم يحدث ما أخجل منه ولا أنت أيضا .. فأين هى الفضيحة ؟

أو قالت : إننى الآن مخطوبة فابعد عن طريقى ..

ووجدت أن الحوار فى داخلى يدينني .. يتهمنى .. واقتربت من بيتها . ودفعت الباب . وانفتح ودخلت . لا أعرف كيف . وكانت هى التى تفتح الباب . وقالت : أهلا .. تفضل .

ودخلت . وغابت لحظات . وعادت تقول : شكرا . أنا كنت متوقعة أنك سوف تجىء تسأل عن صحة ماما .. الحمد لله .. اليوم أحسن !

ولم أكن أعرف أن أمها مريضة . وإنما أنا قررت أن أراها . والحقيقة أننى لم أقرر . وإنما صدر قرار من جهة ما فى جسمى ، فامتدت يدى إلى الباب تدفعه ..

الشىء الوحيد الذى تغير هو أننى الآن أراها بوضوح ، لم أعرفه من قبل .. لا يهم أن أصف لك البيت والصالون .. ولكن هى ..

وقد ارتكبت غلطة فى أول لحظة فقلت لها : يا فاطمة ..

فقالت : الحمد لله فاطمة أحسن .. فهى التى كانت مع ماما ، لما سقطت على السلم .. فأدركتها أختى فاطمة .. وقد أصيبت بجروح بسيطة الحمد لله ..

الحمد لله .. إنها لم تنتبه إلى أننى أخطأت . والعجيب حقا أننى لا أعرف أحدا بهذا الاسم . ولكن لابد أن رغبة قوية في داخلى أوقعتنى فى هذا الخطأ لكى أضيف مشكلة تنهى هذه العلاقة ..

دعنى أصفها لك .. فلم أرها قبل اليوم بهذا الوضوح : سمراء خمرية .. متوسطة القامة .. ولكن فى تكوينها عجائب المتناقضات .. أما ابتسامتها فعريضة مضيئة .. دعوة فاخرة لكى تكون أكثر قربا .. أما عيناها . فسوداوان جميلتان لامعتان .. متألقتان قلقتان .. نجمان فى رعشة دائمة .. كأنهما حائرتان .. كأنهما لإنسان آخر غيرها .. والذى تقوله شفتاها تنكره عيناها .. والذى تعد به إبتسامتها الكريمة السخية ، ترفضه عيناها الخائفتان الرائعتان المروعتان .. شيء عجيب . كل ذلك فى وجه واحد .. ولم أكن أعرف أن فى رأسها كل هذه العمليات الحسابية المعقدة .. كل ذلك واضح فى عينيها .. ولها مشية غريبة لا أعرف كيف أصفها .. خطواتها قصيرة : عصفورة على غصن يتمايل .. أما الساقان فأنوثة كاملة .. الساقان ملفوفتان مستديرتان .. وأما خصرها فصغير .. والحزام الذى تضعه دائما ، يلفت العين إلى هذه التحفة الجميلة .. وأما ما فوق خصرها . فشيء آخر .. كأن نصفها السفلى لامرأة جميلة ، أما نصفها العلوى فلطائر كبير .. فهى إذا مشت باعدت ذراعيها عن جسمها .. كأنهما جناحان وكأنها تهم أن تطير .. ولكن نصفها السفلى يعارض ذلك .. فهى الإنسان الطائر وهى الضاحك الخائف .. وإذا هى ذهبت بعيدا ، فكأنها لا تريد ذلك ، وإذا جاءت فكأنها تريد ذلك .. حيرة أن تعرف إلى من تتحدث إذا جلست معها .. إلى هذه الدعوة .. إلى إلغاء الدعوة إلى الإنسان .. إلى الطائر إنها كثير : كائنات مختلفة فى جسم واحد .

لعنة الله على الشاعر الألمانى الذى قال عن محبوبته : كلماتها مخدات أتوسدها .. ضحكاتها شعاعات أستدفيء بها .. غضباتها عواصف فى فنجان ..

ولم أنشد من كل هذه الصفات إلا البحث عن مخدات الكلمات .. عن الراحة فى الكلمات أو بسبب الكلمات ..

قلت لها : كم من الوقت أستطيع أن أجلس هنا ؟

قالت : ما تشاء ..

قلت : عندى ما أقوله لك .. لآخر مرة ..
قالت : ولماذا آخر مرة ؟
قلت : تعرفين أننى سوف أدخل الجامعة .
قالت : كلية الآداب .
قلت : قسم الفلسفة ..
قالت : إذن أنت اخترت ما هو مناسب لك تماما ..
قلت : نعم .. هل أستطيع أن أعيد حوارا قديما بصورة أخرى ..
قالت : لا بأس ..
قلت : تعلمين أننى أحببتك ؟
ـ لم أكن أعرف ذلك !
ـ قلت لك .
ـ ليس الاعتراف بالحب دليلا عليه .. فكثيرا ما انفعل الإنسان ، فقال كلاما كثيرا ..
ـ نعم إنفعلت ، ولازلت . فعلا أحبك .
ـ والآن ؟
ـ لا أعرف .
ـ وأنا الآن مثلك تماما لا أعرف . أنا بدأت هذه العلاقة بأننى لا أعرف مشاعرى ، ولست على يقين من مشاعرك . وأنت بدأت على يقين من مشاعرك ، وانتهيت بأنك لا تعرف . إذن نحن فى ذلك سواء .. مع فارق واحد . إنك نادم على ما كان ، وأنا لست نادمة على ما لم يكن !
ـ من علمك هذه الحكمة ؟
ـ أنت الذى قلت أن المرأة تنضج أسرع من الرجل . وتدرك أوضح . ثم أنها رغم دموعها ، أكثر واقعية من الرجل الذى لا يبكى لشىء أو من شىء ..
قلت : وما الذى جعلك هكذا خائفة .. هذا الخوف الرهيب فى عينيك .. من أين جاءك كل ذلك ..
ـ ما سمعت فى أسرتى وما حدث لصديقاتى .
ـ ولكنك لست خائفة رافضة .. وإنما أنت ترغبين وترفضين فى وقت واحد .. إبتسامة تدعو ، ونظرة ترفض .. يدك فى يدى تضغط على أصابعى

وهى ترتجف .. فهي لا ترفض يدى ولكنها ترتجف بسبب ذلك .. إننى أكاد أسمعك ترتجفين .. أكاد أسمع الجذب والشد في أفكارك .. مشيتك نفسها ..

نصفك العلوى يسحب نصفك السفلى .. والنصف السفلى يقاومه لا يبالى به .. ولكن تعايش النصفان معا .. كما تتعايش إبتسامتك العريضة ، وشكوكك الرهيبة فى عينيك .. أقول لك حاجة .. أريدك أن تتصورى سائقا ركب سيارة : وراح يدوس البنزين والفرامل فى وقت واحد . فالسيارة تحترق ، ولكن الفرامل تمنعها من التقدم شبرا واحدا .. أنت هذه السيارة .. أنت الموتور الصارخ والفرامل العنيفة .. أقول لك حاجة أخرى .. أنت مثل أهل الإسكيمو .. إنهم يبنون بيوتهم من الجليد .. وأنت تخافين أن يقترب منك أحد ، خوفا من أن تؤدى أنفاسه الحارقة وأنفاسك إلى تذويب الجليد فينهار البيت فوقك .. أقول لك حاجة أيضا : أنت مثل حيوان القنفد .. لا تريدين القنافد الأخرى أن تقترب منك حتى لا تنغرس الأشواك بعضها فى بعض .. أقول حاجة أخيرة : أنت هذا القنفد ولكنك نزعت جلدك وارتديت هذا الجلد بالمقلوب .. فالملمس الخارجى ناعم مثل إبتسامتك ، ولكن الشوك مثل نظراتك قد إنغرس فى لحمك فأنت ترتجفين فى صمت .. أنظرى إلى عينيك فى المرآة ..

قالت : يعنى ماذا ؟

قلت : يعنى أنك معذبة ولذلك لا يضايقك أن تعذبى الآخرين .. بل أنت تتعمدين تعذيب الآخرين ..

قالت : أنت مثلا ؟

قلت : خطيبك اليوم وزوجك غدا وأولادك بعد غد ..

قالت : أشكرك على هذه النصيحة سوف أحرص على إسعادهم جميعا ، والاكتفاء بعذابى لنفسى ..

قلت : لا أستبعد ذلك .. فأنت سوف تقومين بنفس الدور ، ولكن على نحو آخر .. سوف تكونين الشجرة التى تحرقها الشمس .. ولكنها سوف تحمل هذا العذاب ما دام الجميع ينعمون بظلها الوارف ..

قالت : هذا صحيح .. ولكنك لم تكن تصلح أن تكون زوجا .

قلت : ولماذا ؟

قالت : أنا لا أحب الرجل الذى يتفانى فى غيره من الناس وينسى نفسه ..

لا تغضب منى .. إننى رأيتك قد تعذبت تماما فى حبك لأمك .. هذا خلق عظيم .. ولكن لا أحب الرجل الذى ينسى نفسه .. ولا أحب الرجل المتواضع .. أحب الرجل المتكبر .. أحب المغرور .. فأنت أشهر تلميذ فى المدرسة .. وأول كل الشهادات .. ولكن عندما التقيت بك كنت أستوضحك إذا كان هذا صحيحا . فكنت تقول : إنه صحيح .. ولكن صوتك وطريقتك وأنت تقول ذلك : كأنك تعتذر عنه .. لا أحب ذلك .. ولا تغضب منى ولا أحب الرجل الخجول .. أحب الجرىء .. الذى يفعل أى شىء ، وبعد ذلك يفكر فيما حدث .. أن يعتذر عنه .. أو لا يعتذر مطلقا ..

قلت : هل تعرفين أننى لم أكن أعرف أن شيئا قد أصاب والدتك . لقد قررت أن أراك . ولهذا جئت .

قالت : أحب هذا ..

قلت : ولم يخطر على بالى أن أناقشك ولا أن أسألك عن الحب .. كل ذلك خطر ببالى الآن .. وإنما جئت أسترجع كتبى .. عشرون كتابا . أريدها الآن فورا قبل سفرى إلى القاهرة .. وأرجو أن تكون نظيفة كما كانت .. ألا ترين أننى مختلف تماما .. أننى شخص آخر غير الذى عرفت من قبل . هل أشكرك .. هل أشكر الشيخ دهليز .. هل أشكر نور الدين .. هل أبوس قدمى ويدى والدى الذى جاءنى منه خطاب طويل يهنئنى بنجاحى ويتمنى مزيدا من النجاح ويدعونى أن أسافر إلى القاهرة وحدى بعض الوقت قبل أن تلحق بى والدتى وإخوتى .. تغيرت الدنيا فجأة .. حتى أنت تغيرت فى عينى ..

قالت : أنا تغيرت .. هل ترانى قبيحة .. هل خاب أملك .. هل كان يعنيك أن نبقى معا .. وأن نتزوج فيما بعد .. أرجوك تقول لى : كيف أبدو الآن .. وكيف كنت أبدو قبل ذلك .. هل تعرف أنك لم تقل كلمة واحدة .. إننى كنت ألاحظ أن عينيك تركزان مرة على شفتى ومرة على عينى ومرة أصابعى .. ومرة أجدك تتابعنى بنظراتك عندما أتركك .. وكنت أتمنى أن أسمع منك كلمة واحدة عن هذه الإحساسات .. ولكنك لم تقل كلمة .. ويوم قلت لى : أن صوتى كله أنوثة وأن نبرات صوتى أصابع ورموش .. كلها تداعبك وتدغدغك وتثيرك وتحرك مواجعك ، لم أنم تلك الليلة .. فلم أسمع كلاما أعمق وأجمل وأصدق وأقوى من هذه المعانى . وتوقعت منك أن تقول شعرا .. ولكنك لم تفعل ..

ما الذى صدك ؟ ما الذى أسكتك ؟ ما الذى صدمك ؟ إذن حدث شيء ما جعل صورتى تتغير وتتبدل فى عينيك .. ماذا حدث قل لى .. لآخر مرة !

ولم أجد ما أقوله .. ولكن تنقلت عيناى بين السجاجيد التى بدت متعفنة .. وحذائها القديم .. الذى خلعته وهى جالسة معى .. فظهر قدماها وأظافرها .. وتراب أو طين هنا وهناك .. ورأيت ذيل فستانها قد خرجت منه خيوط .. ثم إنها لا تستطيع أن تضع ساقا على ساق .. فساقاها ممتلئتان جدا .. وهززت كتفى عندما لاحظت أنها بسرعة قد مسحت دمعة من عينيها .. ورأيت أن وجهها جميل .. وشفتيها جميلتان وعينيها أيضا .. وعنقها مستدير ممدود .. وأذنيها صغيرتان .. وذراعيها متناسقتان .. وخصرها صغير .. ولكن فى استطاعتها أن تضع ساقا على ساق .. فالبالطو هو الذى جعل ساقيها تبدوان كما رأيت .. ثم إن حذاءها ليس قديما .. إن لونه بنى .. وقدميها ورديتان .. فلاتراب ولا طين .. وهذه البقع فى السجاجيد ليست إلا ورودا داكنة .. ونهضت تأتى بالكتب ورأيت الكائن الخرافى الذى نصفه إنسان ونصفه طائر .. وجاءت وقد أسندت الكتب إلى صدرها .. إلى حيث تمنيت يوما أن أجد رأسى .. أن أجد نفسى .. أن أجد حياتى كلها . وكنت صغيرا لا أعرف . ولا أفهم . أصغر منها كثيراً .. فهى أكثر ولعية وأبرع فى الحساب وأذكى .. فشكرا على أنها أقفلت الباب والنوافذ والطريق فى وجه الحب الرومانسى الساذج ..

ومددت يدى . وحملت الكتب .. وهززت رأسى خارجا . فقالت : ولا كلمة .

قلت : شكرا .

قالت : هذا كل ما عندك .

قلت : أشوفك بخير فى مصر ..

قالت : وإذا كنت أريد أن أراك ؟

قلت : تعالى ..

قالت : سوف أفعل ..

وانشغلت طول الطريق إلى البيت بأننى قلت لها : تعالى .. ولم أحدد لها أين تجيء .. فى شجرة الدر .. أمام المكتبة .. فى بيتنا .. فى مصر ..

وأحسست أننى أخف وزنا .. وأننى استطعت أن أسكت أصواتا كثيرة فى أعماقى .. انتهى .. أو يجب أن ينتهى هذا .. الحب .. أو ما توهمت أنه الحب ..

وعرفت فيما بعد أن الكلمة التى قالها صديقى جمال .. وهو يصف حالتى النفسية والجسمية قد جاءت فى التوراة .. فى سفر « نشيد الانشاد » .. قال لى : أنت مريض حبا !

فعلا مريض . ومرضى لا أعرف مكانه . إنها صاعقة أخذتنى . إنها عاصفة صدمتنى . إنها أمواج صفعتنى .. ولكن أنا الذى لا خبرة لى بالسباحة ، نزلت المحيط ووضعت رأسى تحته .. وهى التى تعرف السباحة ، كانت حريصة على أن يظل رأسها فوق الماء ..

هل هى جميلة حقا ؟ نعم . هل ساحرة حقا ؟ نعم . هل مشغول بها ؟ نعم .. غارق .. هل أنا مهموم القلب موجوع الخطوات ؟ نعم .. هل هى تدرى ؟ نعم .. هل يهمها الأمر ؟ يهمها ولكنها لا تريد .. أو تريد ولكنها تخاف . لأنها سيئة الظن . وهى سيئة الظن لأنها لا تثق فى أحد . وهى لا تثق فى أحد لأنها لا تريد أن تجرب . لا تريد أن تكون طرفا فى قضية . فى مشكلة .. ولذلك قطعت ذراعيها حتى لا تصافح ولا تعانق .. اعتمدت على ابتسامتها لتقوم بتزوير كل هذه المشاعر .. فإذا نظرت إلى ابتسامتها وإلى عينيها معا ، كانت الدوخة من نصيبك .. فإذا دخت هربت منك .. لأنها لا تريد أن تشاركك أو يشاركها أحد .

وعندما جاءت إلى بيتنا لزيارة أمى .. دخلت غرفتى . وطلبت إليها أن تجلس على مقعدى . وأجلس أنا على المكتب . وقلت : لا أعرف أين رأيت هذه الصورة .

قالت : أية صورة ..

قلت : أن أجلس هنا وتجلسين أنت هناك .. فكرت فيك أمس .. وفى خطيبك وضبطت نفسى شامتا فيكما ..

قالت : تشمت فينا . لماذا ؟

قلت : سوف تكونان معا أتعس زوجين . أقول لك لماذا ؟ أنت جميلة جدا ..

وهو غني جدا .. نموذجان للتعاسة وسوء الاختيار .. فكل امرأة جميلة محرومة من حب الناس .. فالناسُ يقتربون منها لجمالها .. لا لشخصها أو أفكارها .. أو إنسانيتها .. وكل رجل غني محروم من الأصدقاء .. فالناس يقتربون منه لفلوسه .. فهو محروم من الصديق الذى يريده لشخصه .. وهو لن يصدقك .. فأنت أيضا تريدينه لفلوسه .. وأنت لن تصدقيه فهو اختارك لجمالك .. لبشرتك .. لا بتسامتك لعينيك . لهذا الذى يراه كل الناس .. فقد خطبك قبل أن يعرفك .. ووافقت قبل أن تعرفيه . فالتقى الكذب فى لحظة واحدة .. وغدا فى فراش واحد ..

وكلام آخر قلته .. وردت هى عليه .. فهل كنت صادقا فيما أقول .. هل أردت أن أفرش طريقها بالشوك .. هل أردت أن أوجعها كما أوجعتني .. هل أنا حاقد عليها .. عليهما .. إنتهى ما قالت .. ولم يبق إلا كلمات وعناق وقبلات للأصدقاء .

• • •

ومضى وقت طويل .. وكل شيء يمضى ببطء .. فقد لزمت البيت والفراش؛ وغرفتى وأفكارى .. ألملم نفسى وكتبى لكى أنسحب من المنصورة .. من الطفولة والشباب .. والحيرة والدوخة والسذاجة .. وأتجه إلى المدينة الكبرى القاهرة .. وأجدنى أزرر القميص والبنطلون والجاكت كأننى أواجه عاصفة .. فأنا أختصر فى حركاتى .. وفى كلماتى .. وأختصر فى الكتب والملابس التى سآخذها معى إلى القاهرة .. وكأننى أريد أن أتسلل من المنصورة ، حتى لا يرانى أحد .. كأننى ارتكبت جريمة .. وأخشى أن أدور حولها فيضبطنى الناس .. أو كأنى أكره أن أبدو خائفا .. أو أن يرى أحد ترددى .. أو أن تكتشف هى « أننى مريض حيا » ..

وقد اتسمت كل حركاتى بالتطرف .. فأنا أندفع خارجا وداخلا .. أندفع إلى الرفض وأندفع إلى القبول .. خوفا من أن أتردد .. وبعد أن كنت قد قررت أن أسافر فى أقرب وقت ، قررت البقاء وقتا أطول . ما الذى أفعله بهذا الوقت ؟ لا شيء .

وأمام البيت نظرت فى كل الاتجاهات كأننى أبحث عن وجهة . ثم اندفعت .

وكانت الدنيا مظلمة والشوارع ضيقة . والأرض قد بللها الماء والوحل . وتعثرت وسقطت أمام بيتها . وتساندت على الباب . فأحدثت صوتا . وسارعت حتى لا تتصور أنني تعمدت ذلك إثارة لاهتمامها أو لشفقتها .. ووصلت شارع السكة الجديدة .. واتجهت إلى شارع صغير .. ثم إلى الشارع الكبير .. وعند النهاية يوجد مقهى .. واتجهت إلى المكان الذى أعرفه .. إلى ما وراء المقهى . مفاجأة .

لقد وجدت الزملاء . والشيخ دهليز .. وأعجب من كل ذلك : زميلى الشيخ نور الدين .. وابن ناظر المدرسة ومدرس الألعاب الرياضية ..

ونادانى الشيخ دهليز : تعالى يا سيدى .. تعال .. يا خيبة الأمل بدرى يا حبيبى .. تعالى إلى جوار عمك الذى هو الخيبة الكبرى .. يا عدلية .. يا بنت يا عدلية .. تعالى ..

وجاءت عدلية .. إنها راقصة صغيرة .. ريفية جميلة الوجه .. قصيرة القامة ..

ونادى الشيخ دهليز : يا نور .. تعالى يا حبيبى ..

نور الدين ؟ .. الشيخ نور الدين هنا ؟ .. رجل التقى والورع فى هذا المكان .. وسوف يغنى .. لقد ارتبكت أشياء كثيرة فى رأسى ..

وجلست ساهما غائبا . ولكن الشيخ دهليز بحيويته وخفة دمه .. وملابسه الواسعة المتنافرة الألوان .. يخرج من جيبه زجاجة يشرب منها الذى لا أعرف بالضبط . وراح يزعق ويقول : إيه يا سى نور ماذا تريد أن أغنى .. أنا أقول لك .. تحب أغنى لك روحى وروحك .. آه .. وهو كذلك ..

قال الشيخ دهليز وظهرت الطبول والناى والعود فى أيدى أناس جاءوا من داخل المقهى ..

وفجأة وجدتهم معا يقولون :
قل لى يابتاع الفلسفة : سفه
بذمتك ده وش ولا قفا .. قفا
قل لى يا بتاع الجغرافية ..
بذمتك ده شعر ولا قافية ..

وكان الشيخ نور الدين أعلاهم صوتا .. واندمجت أنا أيضا .. ورحت أقول وأقول ..

وتغيرت المقاعد والدكك تحتنا .. فهي قديمة مكسرة .. ثم هبطنا .. وجلسنا على الحصير .. على الأرض .. وأغلقوا علينا الباب ..

وارتفع صوت الشيخ نور الدين يقول في هدوء ووقار :

روحي وروحك مضموتان في جسد
يا من رأى جسدا قد ضم جسدين
ويا محرك عينيه ليقتلني
إني أخاف عليك العين .. من عيني !
أخاف عليك العين .. أخاف
من عيني .. آه من عيني !

وكان صوت الشيخ نور الدين جميلا محترما .. فهو إذن رجل يحب الشعر ويحب الطرب . ولا يشترك فيما هو أكثر من ذلك ..

وكأنه عرف ما الذى أريد أن أقوله فقال : إننى أعرف الشيخ دهليز من وقت طويل . ولولاه ما اجتزت المصائب التى مررت بها .. صحيح أنه هو شخصيا عنده مصائب ولا يعرف كيف يخلص منها .. ولكننا نساعده بكل ما يحتاج إليه من فلوس وطعام وملابس .. إنه شخصية فريدة .. ليس له مثيل ..

وارتفع صوت الشيخ دهليز : دعوني أغني أنا .. تحب ماذا يا شيخ نور الدين .. يا من كله نور لا أراه ، ودين لا أعرفه .. هاها .. هاها .. أيوه يا سيدى .. تعالى يا حبيبتى هنا يا عدلية .. التموين .. القزازة .. لم تعد بها قطرة .. ياواد زهيرى .. القزازة ... يا واد .. أغني يا سيدى .. هذه الأغنيات توجع القلب والله .. الشاعر يريد أن يقول للمحبوبة .. إنها تركت أثرا ساحرا في أربعة مواضع من جسمه .. لن أقول لكم .. عرفوها انتم .. يا الله يا سيدى سمعنى الطبلة .. آه سمعنى الرق .. آه .. اسحرنى بالناى .. آه .. نطنطنى على العود .. آه يا سيدى .. تعال انت يا قيس .. (يقصدنى) هنا .. إلى جوارى .. إسمع وإتعلم .. إسمع عمك الشيخ دهليز طيب الله ثراه ..

وفى أربع منى خلت منك أربع معناها : فى أربعة أماكن منى أنا ، وجدت حاجات حلوة فيها هى ..

وفى أربع مني حلت منك أربع
فما أنا أدرى أيها هاج لى كربى
أوجهك فى عينى ؟ أم الريق فى فمى ؟
أم النطق فى سمعى أم الحب فى قلبى .

ويصرخ : وفى أربع منى .. آه .. وأربع منك آه .. أوجهك ؟ ..آه .. أريقك ؟ آه .. أصوتك آه .. أحبك آه .. خليك معايا .. إسمع .. يا سيدى ..

إخلع ببغداد العذارا
آه يعنى إكشف وجهك .. خليك على راحتك .. آه
إخلع ببغداد العذارا
ودع التنسك والوقارا
إخلع ..
فلقد بليت بعصبة
ما أن يرون العار عارا
آه ..
لا مسلمين ولا يهود ..
ولا مجوس ولا نصارى !
إخلع ..

آه .. تعالى عندى هنا .. وسمعنى الدربكة على الآخر .. تعالى بالقوى .. اوجع .. أقتل .. إدبح .. معايا يا شيخ نور .. معايا والنبى ساعدنى على بلوتى .. قول يا حبيبى قول .. الله يكرمك .. قول خليك معايا .. سيبك من العيال دول .. بكره يديهم الزمن بالجزمة .. يمكن بعدما تخلص الجزم كلها ، بكره يديهم الزمن بالبرطوشة .. تعال لى .. قول يا حبيبى

إن الزمان زمان « سو ... »
وجميع هذا الخلق بو ..
أى زمان سوء .. والخلق بؤس ..

لِن الزمان زمان سو
وجميع هذا الخلق بو
وإذا سألتهم ندى .
فجوابهم عن ذاك هو ..
لو يملكون الضوء بخلا
لم يكن للخلق ضو ..
ذهب الكرام بأسرهم ..
وبقى لنا : ليت ولو

آه يا سيدى آه .. يا ميلة بختك يا دهليز .. بين السوء والبؤس والضوء والهو ..

ووجدت الشيخ نور الدين يتمايل فى نشوة .. ولكنه لم يفعل أكثر من الوقوف والاهتزاز ثم راح يعيد كل أغانى الشيخ دهليز مع شرح للمقامات الموسيقية . وشرح لهذه الأبيات .. ورفض كل الأغنيات الهلس التى كان فى نية الشيخ دهليز أن يغنيها مع الراقصة الصغيرة فى تلك الليلة ..

مفاجأة أخرى لقد وجدت إبن ناظر المدرسة . إنه أطيب مما تصورت . وأكثر أدبا وأكثر انسجاما . وهمس فى أذنى قائلا : والدى يريدنى أن أدخل كلية الهندسة .. ابدا وحياتك .. سوف أتعلم الموسيقى والطرب .. أبى غنى وأمى غنية وأنا أبحث نفسى عن الوظيفة لماذا ؟ وقد اتفقت مع والدى على ذلك .. والدتى تركت والدى وتزوجت رجلا آخر .. وهى لا تحب أبى .. نشرب ؟

قلت : أشرب ماذا ؟

قال مشيرا إلى الزجاجة فى يد الشيخ دهليز قلت : لا . أشكرك .. لا أشرب

قال : إلى متى ؟

قلت : لا أشرب .

قال مخمورا : حدادا على « آ .. » .. لقد رأيتها من يومين فى فرح .. حزموها ورقصت أحسن من العوالم .. وأنت حزين عليها .. يا خويا .. سيبك !

قلت : كل البنات ترقص .. طبيعى !

وقد ضايقنى ذلك . واقتربت من الشيخ دهليز أكثر .. وهمست فى أذنه : أريد أن أسمعك يا شيخ دهليز .

قال : الحمد لله على السلامة .. أين كنت .. لا أسكت الله لك صوتا .. تعال جنب عمك .. تعال يا روح قلبى .. يا حزين الدهر .. آه .. ثانى يا نور الدين من الأول ..



اللهم احمني من فولتير

اللهم احمني من فولتير

كالأطفال الصغار ، إذا عرفنا اسما جديدا أو تعبيرا غريبا ، فإننا نكرره بمناسبة ومن غير مناسبة ..

لا أعرف متى وقعت عينى على اسم فولتير .. فقد كنت أسرف فى استخدامه حتى أننى فى مناقشة مع والدتى قلت لها : أنت مثل فولتير !

ولم تفهم طبعا ولم أكن أحسنَ حالا منها ..

وكنت أقصد أنه لا يعجبها العجب ولا الصيام فى رجب .. وأن كل من يفعل ذلك فهو مثل الفيلسوف الفرنسى فولتير !

وفى يوم كنا فى زيارة أحد زملائنا فى المدرسة . إنه تلميذ مجتهد . وكان أكثرنا تفوقا فى اللغة الفرنسية ـ فأمه فرنسية . وفى بيته كل ما ليس فى بيتنا ، أو فى بيت أى أحد أعرفه من أقاربى ، أغنياء أو متوسطى الحال مثلنا . فالبيت له شكل غريب . وله رائحةٌ غريبة لا أعرفُ من أى شىء تتكون . ولا أذكر أننى شممت لها مثيلا .. ثم إن البيت هادىء جدا إلا من أصوات العصافير فى الأقفاص ، صفراء وحمراء ..

باب الشقة مغلق تماما ـ لا هو مفتوح ولا هو موارب ، كما هى عادة البيوت التى بها أطفال أو التى ليس بها خدم يفتحون الباب ويغلقونه . وزجاج الباب ملون . والشقة ليست مفتوحة النوافذ . وإنما مغلقة وعليها ستائر . ودرجة الحرارة منخفضة .. كأنك تجلس فى ظل شجرة . والشجرة تتساقط منها زهور . والزهور تحملها إليك طيور . والطيور تفتح بمناقيرها عينيك وشفتيك وأنفك لتتذوق معنى غريبا عجيبا للحياة . أما أثاث الشقة فلا أعرف كيف أصفه . ولكنه مختلف تماما عن أى بيت . ولم نجلس إلى جوار الباب .. وإنما فى غرفة بعيدة عن الباب . الغرفة رطبة . وفى جوانبها الورود . شىء

عجيب . وجاءت خادمة بسرعة . الخادمة نظيفة الملابس . ظننتها أول الأمر أخت هذا الزميل .. جاءت بالشاي . والشاي مغطى : البراد .. والحلوى أيضا . وقبل أن تمتد أيدينا إلى الشاي أو الحلوى ظهرت والدة الزميل . طويلة شقراء زرقاء العينين ذهبية الشعر . مدت يدها . صافحتها . لغتها العربية مكسرة . إنها فرنسية . وسألتني عن أحوالي . ولا أعرف بالضبط ماذا قلت . وقالت إنها تعرفني من إبنها . وكان إبنها يروى لها كل ما يحدث في الفصل وفي المدرسة .

ثم قالت :ألم يقل لك ، وجيه ، إبني أن تجيء في عيد ميلاده ..

قلت : آه .. نسيت .

قالت : بلهجة الأم المنضبطة : لا تقل نسيت .. قل آسف كانت ماما مريضة .. كان بابا عائدا من السفر .. أو تأخرت عن الموعد . فانكسفت أجيء متأخرا .

قلت : حاضر ..

قالت : لا تقل حاضر .. أنت مش خدام .. أنت مثل وجيه إبني تماما .. وإنما أحسن أن تقول : متأسف .. أرجو أن تقبلي عذري .. كان من الواجب أن أبعث بخطاب اعتذار أو بإرسال وردة أو تقول : كان في نيتي أن أجيء في اليوم التالي .. ولكن ..

قلت : حاضر ..

قالت : يبدو أنك خجول جدا ..

قال وجيه : جدا يا ماما .. وعنده اعتقاد أن أي شيء سوف يعطله عن القراءة .. وأن أي بنت تكلمه في الشارع سوف تعطله عن المذاكرة ..

قالت الأم : تفضل يا إبني .. ضع الفوطة على رجلك .. اتفضل الشاي .. أو اتفضل الكيك .. سوف أترككما معا لتكونا على راحتكما تماما ..

ثم عادت تقول : إبني غلباوي .. إنه فولتير الأسرة .. قصير ونحيف ودماغه كبير ولسانه طويل !

وأضفت صفة أخرى إلى معلوماتي عن فولتير هذا : إنه قصير القامة نحيف كبير الرأس طويل اللسان !

وظل اسم فولتير في رأسي ولكن لا أعرف كيف أجمع أية معلومات عنه .. وفي ذلك الوقت من أوائل الأربعينات لم أكن قد رأيت قاموسا أو سمعت عن دائرة معارف ..

وفي إحدى حصص الفلسفة ذكر لنا المدرس واسمه مصطفى خالد متوسط القامة أسمر ، له جبهة عريضة منحنية عبارة واحدة غريبة التكوين لم أستوعب معناها في ذلك الوقت . العبارة تقول : حتى إذا اختلفت معك في الرأى . فسوف أموت دفاعا عن حريتك في التعبير عنه !

وقال إنها للفيلسوف الفرنسي فولتير الذى مهد بأفكاره الجبارة إلى الثورة الفرنسية .. هدم كل الخرافات السياسية والدينية .. وهيأ المسرح فى باريس لقيام ثورة ضد الأسرة المالكة الفاسدة ..

وفي حصة التاريخ تحدث المدرس عن الذين مهدوا للثورة الفرنسية فأضاف اسم جان جاك روسو الذى توفى مع فولتير فى سنة ١٧٧٨ .

وفي مجلة « الرسالة » قرأت مقالا عن فولتير بقلم زميل لنا يكبرنا فى السن اسمه عبد العزيز العجيزى .. كنت أعجب به جدا ، وأراه نموذجا لكل ما في هذه الدنيا : أناقة وثراء ولغة فرنسية عالية ولغة عربية متينة . ثم إنه ينشر مقالات بقلمه في مجلة الرسالة !

ولكنه فى الفصل ليس متفوقا .. بل هو دائم الرسوب .. ولم أفهم فى ذلك الوقت لماذا ؟ وكنت أحب الجلوس إليه .. وأندهش كيف تتجمع لديه كل هذه المعلومات فى الأدب والتاريخ وإن كان زميلى وصديقى خالد حسونة ، هو أكثرنا دراية بالتاريخ وأوسعنا اطلاعا على مذكرات المؤرخين ..

وفجأة ابتعدت عن العجيزى هذا . فقد سمعت أنه يشتم أمه .. وقد يكون هذا الخبر غير صحيح . ولكن ذهبت إلى أبعد من ذلك فى خيالى .. فكنت أروى عنه قصصا من اختراعى وأقول إنه يشتمها ويضربها أمام الناس .. وإنه .. وإنه .. كأننى أردت أن أقطع كل صلة بينى وبينه .. وأبرر ذلك لنفسى .. فأنا لا أتصور أن أحدا يشتم أمه ، هذا شيء فظيع .. وكأن العجيزى هذا قد مات في نظرى ودفنته .. أو كأننى أنا الذى قتلته وسرت فى جنازته ودفنته ورفضت أن يترحم عليه أحد !!

ورغم حرصى على أن أعرف أي شيء عن هذا الفولتير ، فإننى لم أطق أن أنظر إلى المقال الذى كتبه عبد العزيز العجيزى .. ولكن رغبتى فى أن أعرف انتصرت فى النهاية .. ففتحت المجلة على المقال .. وتجمعت لدى معلومات كثيرة عن هذا الفيلسوف الفرنسى .. وعرفت عددا من مسرحياته ورواياته ودراساته الفلسفية ومعاركه وصداقاته مع الملوك والأمراء ..

ولم أفهم فى ذلك الوقت ما هو الغرض من دراسة العظماء .. هل نتخذهم نموذجا للتفكير - أى نفكر مثلهم ؟ هل نتخذهم نموذجا للسلوك - أى نعيش مثلهم ؟

فالمعلومات التى نجمعها ونحن تلامذة لها هدف واضح : أن نعيدها فى الامتحان لكى ننجح .. هذه هى الدراسة وهذا هو الهدف . وفى هذا المجال يكون التفوق - فى جمع المعلومات . وتنظيمها والاحتفاظ بها .. ثم نسيانها بعد ذلك ..

ولم يعلمنا أحد : أن الدراسة ضرورية حيوية . وأن الاحتفاظ بالمعلومات سوف ينفعنا فيما بعد .. فى حياتنا الأدبية أو الدراسية أو العلمية .. ولكى تبقى هذه المعلومات فى مكانها من العقل ، يجب أن نحصلها بمتعة .. بلذة .. وأن تكون هناك صداقة بيننا وبين الكتب وبين المؤلفين .. ولكن الذى يفسد علينا هذه المتعة : الخوف .. الخوف من الامتحان .. والخوف أن نكون قد نسينا شيئا . مع أن النسيان ضرورى . أى سوف ننسى المعلومات التى لا فائدة منها ، وسوف ننسى المعلومات التى جمعناها ونحن متعبون مرهقون .. تماما كما تتساقط الأشياء من أصابعنا المكدودة .. ولن يحتفظ العقل بكل الذى عرف ورأى .. سوف ينسى أشياء كثيرة ، لتحل محلها معلومات وذكريات جديدة . وإن كان العقل لا ينسى بل وسوف يظل عند حاجتنا إليه ..سوف يبقى كل شيء فى مكانه . الذى حدث فى الطفولة سوف يبقى تحت الأمر لحين استدعائه فى أى وقت .. بل إن ما يحدث للجنين فى بطن أمه يبقى أيضا فى الذاكرة . فلا شيء يضيع !

ومن النادر فى ذلك الوقت أن نفتح كتابا كنا قد أغلقناه .. فالكتب تتمزق أوراقها من المذاكرة الطويلة ولذلك يجب إهمالها ونسيانها ..

أما الكتب التي تبقى ، فهي التي ليست مقررة علينا .. أي التي نشتريها لنقرأها أثناء الاجازة . فنحن نقرؤها لأننا نريد ذلك . وإذا قرأنا فبكامل حريتنا وبلذة .. ونرى في هذه القراءة تأكيدا للذات وتنمية للشخصية .. وفرصة لأن نتباهى بذلك بين زملائي الذين يقرأون في موضوعات مختلفة . وكان من عادتنا أن يعرض ويستعرض كل واحد منا الذي قرأه . وما المعنى وما الهدف وما الفائدة وما رأيه هو ..

وفي « المكتبة الفاروقية » بالمنصورة وجدت عددا من مجلة « الرسالة » وفيه مقال للأب أنستاس ماري الكرملي يقارن بين طه حسين وفولتير . وكان طه حسين هو الاسم الجديد الذي لم أكن أعرفه .. فكان لابد أن أعرف شيئا عن طه حسين هذا ؟ وبسرعة قيل إنه أزهري أعمى وتعلم في فرنسا وعاد أستاذا في الجامعة يدرس الأدب العربي وهو ضد رجال الدين ، وقيل ضد الدين أيضا ولم أفهم كل هذه العبارات : كيف يكون أي أحد ضد الدين ؟ يعني ماذا يقول وماذا يفعل ؟ ولماذا ؟ فلم يكن « الدين » قضية فكرية أو وجدانية عندي في ذلك الوقت .. فالذي أعرفه من ديني قليل .. فيما عدا أنني حفظت القرآن الكريم ، ولكن لم أفهم الكثير من معانيه أو فلسفته ..أما الأستاذ العقاد فقد قرأت له .. ومعلوماتي عن مقالاته لا بأس بها .. ولكن هو الآخر لا أعرف ممن جاء وما الذي تعلمه وما الذي جعله هكذا واسع الأفق والثقافة قوي الحجة ؟ وكيف يكون لي شيء من ذلك ؟

ولم أفهم جيدا مقال الأب الكرملي . ولا كيف يكون أبا وأديبا أو ناقدا فلسفيا هكذا ؟ لا أعرف . أما المقارنة فهي أن فولتير وطه حسين يهاجمان رجال الدين . ويريان أن رجال الدين قد أفسدوا حياة الناس في كل العصور . وأن مصائب الدنيا كلها بسبب الخلافات بين علماء الدين . يقول فولتير : إن الصراعات الدينية قد هدمت من الكرة الأرضية أضعاف ما هدمته الزلازل والبراكين !

وأهم ما في المقال صورتان : فولتير وطه حسين بالطربوش والمنظار الأسود .. أما فولتير فعلي وجهه ابتسامة ساخرة . نحيف طويل الأنف ضئيل الحجم جبهته عالية . وطه حسين أيضا له ابتسامة ساخرة . وملامحه حادة .

وفي المقال . وأنا أنقل من مذكراتي المتواضعة من سنة ١٩٤١ ويقول

الفيلسوف الفرنسى فولتير : يجب أن تفكر أنت .. فكر لنفسك .. يجب أن تتشكك فى كل ما يقال لك .. إذا أنا أخطأت فلأننى حاولت أن أعرف ، إذا عرفت فإننى أخطىء ، لأن الذى عرفته قليل جدا ، والذى لا أعرفه كثير جدا ولأن عقلى صغير ووقتى قصير .. ولكن لا يهم ما الذى فهمت وكيف أخطأت المهم أننى حاولت وسوف أمضى فى المحاولة .. وخير لى أن يشنقونى لأننى حاولت فأخطأت من أن يتوجونى لأننى ما طلت وكذبت وانخدعت وخدعت !!

ولا أظن أننى أحطت بكل هذه المعانى الخطيرة التى جاءت بهذه العبارة .. ولكنى نقلتها إعجابا بها .. وإن لم يخطر على بالى ، أننى سوف أعاود قراءتها والتفكير فى معانيها .

وفى مذكراتى عبارات كثيرة وأبيات من الشعر أعجبتنى فى ذلك الوقت .. ونقلتها وحفظتها ونسيتها أيضا . ولكنها تدل على ما الذى كان يهمنى أو يشغلنى .

ومن مقال الأب الكرملى نقلت أيضا أنهم اتهموا فولتير . كما اتهموا سقراط من قبل : بتضليل الشباب وإفساد الرأى العام وزلزلة الإيمان فى قلوب الناس ..

ووجدت هذه العبارة أيضا : إن فولتير هو الرجل الذى حول الغضب إلى سخرية ، والذى حطم الأصنام .

وقال فولتير أيضا : إن الدولة بكل أجهزتها لا تستطيع أن تقاوم سلاحا شعبيا يطلق النار فى كل الاتجاهات وينفجر فى كل بيت : النكتة !

وجاء أن فولتير قد دخل السجن مرتين .. سجن الباستيل الذى هدمته الثورة الفرنسية ..

وبعد ذلك بوقت قصير ظهر مقال للأستاذ على أدهم عن فولتير فى مجلة « الرسالة » : الفيلسوف السياسى !

الآن فقط أستطيع أن أرى بوضوح من هو هذا الرجل . وما هى الفلسفة ، وما هى السياسة ..ثم ظهر مقال ثالث ورابع ومقال للأستاذ العقاد ومقالان لطه حسين ومقارنة بين « فولتير وروسو » .

إنه فيض من المعلومات عن هذا الشخص الفريد في التاريخ .

ولد يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٦٩٤ . ضعيفا نحيفا وقرر الأطباء أنه سوف يعيش من أربعة إلى ثمانية أيام . وكانوا يضربونه ويقرصونه ويهزونه لكي يدق قلبه .. أو لكي يتأكدوا أنه ما يزال حيا . وعاش فولتير ٨٤ عاما وألف مائة كتاب وبعث بثمانية آلاف خطاب لملوك ورؤساء وأمراء وقساوسة وساسة العالم في زمانه .

أبوه يعمل محاميا ، وقرر أن يكون ابنه كذلك . ولم يفلح الابن فقد اختار أن يكون كاتبا . سافر إلى هولندا وهرب مع فتاة . فأعادوه مفضوحا إلى والده في باريس ..

وضاق به أبوه . ولكن لم يمض سوى سنوات قليلة حتى يكون ابنه مشهورا بعد أن اختار له اسما مستعارا هو فولتير . أما اسمه الحقيقي فهو فرنسوا ماريى أرويه ..

ولم يكد يظهر له أول عمل مسرحي . حتى أمسكته الرقابة ومنعت ظهوره .. وأدى ذلك إلى انتشاره فأصبح هذا الشاب الثائر مشهورا في فرنسا وفي أوروبا كلها ..

ودخل سجن الباستيل عاما .

وشاءت الصدفة أن يسمع قصة حزينة استخدمها وسيلة لضرب الكنيسة بعنف . فقد ماتت ممثلة معروفة إسمها أدرين لوكوفرير .. وهي على فراش الموت جاءها القسيس يطلب إليها أن تعترف بأنها أخطأت عندما احترفت التمثيل .. فرفضت . فتركها القسيس دون أن يكمل الطقوس السابقة على الوفاة والدفن .. وكان معنى ذلك ألا يجرؤ أحد على دفنها .. فدفنها البوليس في مقبرة مجهولة !

وهنا نشط فولتير يهاجم القسوة والعنف التي مارسها أحد رجال الدين باسم الدين ..

وقال : معنى موقف القسيس أنه إذا لم أكن من رأيه فإنه يلقي بي في الشارع ، أو يقتلني .. إنها جريمة ضد الحرية وضد الصدق وضد كرامة الإنسان .. وضد الدين !

ودخل السجن . وعندما أفرجوا عنه اشترطوا أن يغادر البلاد .

وذهب إلى انجلترا . وشهد جنازة العالم الرياضى الكبير نيوتن .. ورأى الشعب البريطانى كيف يقدس العلماء . وكيف يحترمون القانون والحرية والديمقراطية .. وكيف أنهم فى فرنسا لا يحتفلون هكذا بالعلماء ويمشون فى جنازات مهيبة ويدفنونهم مع الاحترام والأسى ..

وأكثر من ذلك كله كيف يحترمون ويحبون الأسرة المالكة . لأنها تملك ولا تحكم .. ولأنها تحترم الناس ، فاحترمها الناس !

وفى لندن عرفه بعض الانجليز فصرخوا هذا فرنسى .. اقتلوه ..

فوقف فولتير يقول لهم : أنتم تريدون قتلى لأننى فرنسى .. ألا يكفينى عقابا أننى لست انجليزيا ! وأسعدهم ذلك . وتركوه ..

وحصل على إذن بالعودة إلى فرنسا . وعاد وكان فى الخامسة والثلاثين من عمره .

ولم نعرف بالضبط ما هى موارد الفيلسوف فولتير . ولكن من المؤكد أنه كان يحصل على هبات من الملوك والأمراء . وأنه كان يعمل بالربا .. وأنه لم يكسب مالا من طريق مشروع قط ! بل حدث أن أعلنت الحكومة الفرنسية عن يانصيب قومى .. وكانت المفاجأة الكبرى أن فولتير قد أسس جمعية لشراء كل أوراق اليانصيب .. وكسب مالا كثيرا ينفق منه على الملابس الأنيقة والشقق الفخمة والعربات الجميلة التى يستخدمها ..

وحدث فى ذلك الوقت أن شابا شنقه أبوه لأنه أراد أن يغير مذهبه الدينى .. وحاكمت الكنيسة الأب وأعدمته .. وهنا استخدم فولتير كل مواهبه فى الفلسفة والمنطق والسخرية وهاجم القانون الجنائى فى فرنسا .. فلم يكن قانونا بالمعنى الذى أصبح معروفا بعد ذلك عند نابليون .. ولا بالقانون الذى يعرفه الانجليز .. واكتشف أن القسيس يستطيع أن يحاكم وأن ينفذ الحكم ، وليس لديه قانون .. ولا عنده شهود ولا محلفون ولا المتهم يملك أن يوكل أحدا يدافع عنه ..

وطالب بفتح ملف قضية « كالاس » . وهو اسم الأب الذى شنق إبنه ..

ولما جاء الفرنسيون مع نابليون إلى مصر كانوا يحاكمون الناس بالقانون

وبالعدل . وقد ذكر لنا المؤرخ الشيخ عبد الرحمن الجبرتى جانبا من هذه المحاكمات .

وعلق المؤرخ البريطانى العظيم توينبى على ما ذكره الجبرتى بأن المؤرخ المصرى هذا يعتبر أعظم المؤرخين فى كل العصور .. أولا : لأنه كان أمينا جدا فى كل ما سجل عن أحداث الثورة الفرنسية .. وثانيا : رغم كراهيته للفرنسيين فإنه قد أشاد بالعدالة فى محاكمهم . فهم يأتون بالمتهم ويعطونه فرصة الدفاع عن نفسه ويوكلون محاميا عنه .. فالجبرتى يكره الاحتلال الفرنسى ولكنه يقدس العدل الفرنسى !

وكان فولتير يتنقل بين العواصم الأوروبية وكان الملوك يجلسون عند قدميه .. وكان يضيق بهم أيضا لأنهم كاذبون فالأمبراطور الألمانى الذى يؤكد إعجابه المطلق بفولتير ، يحشد قوات عسكرية فى كل مكان . وفولتير يرى أن جريمة الجرائم هى الحرب !

وفى آخر أيامه قرر أن يعيش حياة هادئة فى جمهورية جنيف ..

ثم اشترى قطعة أرض بالقرب منها داخل فرنسا .. وأقام لنفسه قصرا عظيما . ولجأ إليها الهاربون من الظلم والقهر .. وبنى لهم بيوتا حوله أيضا . وأنشأ الكنائس والمدارس . وكتب عليها : أنشأها فولتير لله ..

وفى هذه المنطقة المسماة « فرني » زاره كل عظماء العالم يسألون عن صحته . ويستمعون إليه . وبدلا من أن يبقى الواحد منهم يومين أو ثلاثة ، فإنه يمكث شهورا يمتع الأذن بما تقوله أعظم عقلية فى ذلك العصر ..

واشتاق فولتير إلى ليالى باريس . فقرر السفر . وعلى الحدود وقف رجال الجمارك يفتشون عربته . وفوجىء أحد رجال الجمارك بصوت نحيل يقول له : لا شىء ضد القانون إلا أنا !

فضحك الجندى وتفحص الرجل الخيال الهزيل المريض وقال : آه .. مسيو فولتير تفضل يا سيدى !

هذه العبارة هى التى اقتبسها أوسكار وايلد عندما ذهب إلى أمريكا فسألوه فى الجمارك إن كان يحمل معه شيئا ممنوعا قال نعم .. عبقريتى !

وفى باريس جاءه القسيس يطلب إليه أن يعترف . فرفض فولتير قائلا :

لا أريد أن تكون آخر كلماتي كذبا !

قال له القسيس : جئتك من عند الله .

سأله فولتير : وأين أوراق اعتمادك ؟

ثم أملى على الذين حوله : إنني أموت مؤمنا بالله ، محبا لأصدقائي ، غير كاره لأعدائي ، محتقرا لكل أنواع الخرافات !

وكان لابد من دفنه في مكان آخر .. ولما قامت الثورة الفرنسية أعادوه إلى مقبرة العظماء بعد أن وضعوا نعشه ليلة كاملة فوق أنقاض سجن الباستيل . تكريما وتعظيما للرجل الذى أودع هذا السجن عقابا على أفكاره العظيمة التى مهدت للثورة التى هدمت الباستيل ومعه الظلم والقهر !

وكان قد زاره الرجل الأمريكي الوحيد الذى يعرفه : الفيلسوف بنيامين فرانكلين . وكان معه واحد من أحفاده . ووضع فولتير يده على رأس الطفل وهو يقول له : الله والحرية !

والكلمتان هما خلاصة فلسفة فولتير !

• • •

ومن كل الذى قرأت عن فولتير فى ذلك الوقت ، وهو قليل ، لم يبق فى ذهنى إلا عبارته الشهيرة :

اللهم احمنى من أصدقائى ، أما أعدائى فأنا كفيل بهم !

الفقير ليس حرا ، إنه يخدم فى كل بيت !

• • •

ثم ملخص إحدى مسرحياته التى موضوعها أن اثنين من سكان الكواكب الأخرى واحد طوله مليون قدم والثانى طوله خمسون ألفا . هبطا معا إلى كوكب الأرض - وراحا يخوضان فى بركة اسمها البحر الأبيض المتوسط .. وفى هذه البركة وجدا شيئا صغيرا عائما .. إنها إحدى السفن .. وفى هذه السفينة وجدا ديدانا ضئيلة تتحرك .. فرفع أحدهما السفينة فوق ظفره وأدناها من أذنيه فوجد أن هذه الديدان ليست إلا مجموعة من فلاسفة بنى الإنسان . وأن هؤلاء

الفلاسفة يتحدثون عن حرب صليبية .. هذه الحرب سوف يموت فيها الملايين من أجل الاستيلاء على جبل مقدس اسمه فلسطين .. ليس دفاعا عن الدين ، وإنما دفاعا عن الملك هنا والسلطان هناك .. فمن أجل هذين الرجلين سوف يموت الملايين !

وسمع العملاقان من أحد الفلاسفة أن الله قد خلق الملك كله من أجل البشر ..

وضحك العملاقان لذلك حتى سقطت السفينة في جيب واحد منهما .. فأخرجها وهو يضحك من هذه الديدان .. ثم ألقاها في الماء !

• • •

نحن الذين نتوهم أننا كائنات ذات أهمية خارقة ، وأن الكون كله قد خلقه الله من أجل هذه الذرة التافهة - الكرة الأرضية - ومن أجل هذه الحشرات الناطقة - نحن البشر - وليس أكثر غرورا منا ولا جهلا ولا إساءة لعظمة الله !

• • •

ولا أظن أن من كل الذى قرأت فى ذلك الوقت وبعد ذلك بسنوات قد ضرب أحد عقلى بالشلوت كما فعل فولتير .. !

لقد أسقط غرورى تماما ، وأوقعه أمامى وطلب منى أن أدوسه بالجزمة .. وأن أجلس إلى جوار الحائط ، وأن أغمض عينى وأن أتذكر دائما قوله تعالى :

« وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

فهذا العلم ، وهذا الشك فى قدرة العقل الإنسانى ، قد دفعنى إلى الإيمان العميق .. والآن أتذكر كيف كنا فى المدرسة ..

فأنا أول الفصل وأول المدرسة ..

ووجدتنى منعزلا عن التلاميذ .. أجلس وحدى .. ولا أشارك فى النشاط المدرسى .. وحتى إذا حاولت أن أشارك فى الألعاب ، فإن مدرس الألعاب يقول :

اقرأ لك حاجة تنفعك .. أما هؤلاء - أى التلامذة الآخرون - فلا مستقبل لهم .

وكنت أشعر فيما بينى وبين نفسى أن أول المدرسة أفضل كثيرا من أوائل الفصول !

ثم أصبحت أول مصرى فى الثانوية العامة وأول كلية الآداب فى الليسانس ..

ولكن وجدتنى أقول لنفسى .. إيه يعنى .. أول المدرسة .. واحدة من ألوف المدارس .. وأول الثانوية العامة .. وإيه يعنى .. وأول الليسانس وإيه يعني .. وأول الجامعة . واحدة من ألوف جامعات العالم .. وأول مصر .. يعنى أول دولة من مائة دولة .. وأول الكرة الأرضية مثل أينشتين .. وإيه يعنى .. الأرض كوكب من ملايين ملايين ملايين ملايين الكواكب فى هذا الكون .. وإيه يعنى .. حتى أينشتين أعظم علماء الطبيعة فى زماننا عندما سئل عن الذى يعلمه والذى لا يعلمه قال : هات طابع بريد ثم ضعه فى الهرم الأكبر .. فالذى أعلمه هو طابع البريد والذى لا أعلمه هو الهرم !!

وقال أيضا : أنا طفل يلعب على شاطىء محيط العلم .. وأنا سعيد بالرمال .. ولا أعرف أكثر من ذلك ..

وعندما ذهبت إلى الجامعة درست الفلسفة وتخصصت وتعمقت .. وأسعدنى ذلك .. ولكن فجأة وجدت فولتير هذا ينكد حياتى ..

فالفيلسوف يحصر كل مشاكل الدنيا ويعيد وزنها وحسابها ووصفها والتعمق فيها .. من أول وجديد .. وكل فيلسوف يعيد « تفنيط » أوراق اللعبة الفلسفية . ولعبة الفلاسفة هى دراسة الكون والنفس الانسانية والإنسان والعلاقات بين الإنسان ، وبين الإنسان والله على أساس من الحرية والعدل والصدق .. ثم تفسير معانى الحق والعدل والخير والجمال والفضيلة والحياة والموت والحياة بعد الموت ..

وكل فيلسوف لا يكتفى بما ذكره فلاسفة قبله ، وإنما يعيد النظر فيها كلها .. ومن أول وجديد ..

فالفيلسوف هو صاحب أعظم العقول ، وأوسع النظرات وأشمل النظريات !

وهو يحتوى البناء الكونى فى عقله ويرتبه وينظمه كأنه هو الذى خلق الخلق .. وكأنه هو الله .. أو نصف إله ..

ولذلك نفختنا الفلسفة وجعلت لعقولنا أكراشا .. فكأن الواحد يمشى منفوخ الرأس ، ممدود الأطراف .. يدب الأرض ويناطح السحاب ..

ولكن كان فولتير هو الذى يقوم بتسريب الدبابيس إلى عقلى سرا .. فكلما وجدت نفخة عندى أو عند غيرى أمسكت دبوسا وأنفذته فى الكرش العقلى ..فإذا به هواء .. وإذا بصاحبه جثة هامدة على الأرض .. كأننى أسقطت بالونا .. أو كأننى نزعت جناحى نسر كبير ..

واتجهت من دراسة الفلسفة إلى دراسة الفلك .. إن الفلك هو العلم الذى يجعلك تشعر بضآلة نفسك وعقلك وأرضك وعالمك ..

ولذلك كان الفيلسوف الألمانى كانت يقول : شيئان أشعر أمامهما بالتواضع : الضمير الأخلاقى فى أعماقى ، والكون العظيم من حولى !

وانتابتنى بعد ذلك فترة من الشك العميق .. الشك فى كل ما يقوله الفلاسفة .. والشك فى قدرتهم على الإحاطة بكل شىء . وبقدرتى على الفهم وعلى أن أكون قادرا على الحكم على الأشياء ..

وقد دفعنى الشك إلى كل الاتجاهات الفلسفية والدينية .. كأن مجموعة من اللصوص والمجرمين يطاردوننى فى كل مكان .. فكنت أختبىء فى كل بيت .. تحت كل مظلة .. فى كل نقطة بوليس .. فى كل مسجد ..

واحتجت إلى وقت طويل ، لكى أعرف أن هذا الشك فى داخلى .. فى أعماقى .. وأنه ليس من خارجى !

وأنها غلطتى عندما أحسست أن كل سقف أجلس تحته سوف يقع فوق رأسى .. وكل سلك كهربى وكل عمود نور .. وكل شجرة وكل سيارة .. وكل كوبرى .. سوف ينهار .. ولذلك فقد امتلأت بالخوف والشك والوسوسة ولم أعد قادرا على الثقة بأحد أو فى شىء .. حتى هذه الكلمات أحسست أنها عاجزة عن أن تقول لى ، وأن أقول عن طريقها أى شىء !

واحتجت إلى وقت طويل لكى أتحرر من شيطان فولتير وغيره من الفلاسفة ..

فنحمد الله على سلامة عقلى ، وإيمانى ويقينى والثقة بالنفس والناس وبالله !



تكلم حتى أراك

تكلم .. حتى أراك ..

كنا نجلس كل يوم على سلم مكتبة المنصورة .. وكل واحد منا يلخص الذى قرأه . ولاحظت أن كل زملائى يتحدثون بصورة عادية .. إلا أنا .. فأنا أرفع رأسى وأتراجع إلى الوراء ثم أنظر إلى الأرض .. ولا أقول شيئا . وبعد ذلك أضع يدى على رأسى وأحاول أن أقول .. ولا أعرف ما الذى يستنتجه زملائى . هل كانوا يقولون : هذه هى طبيعة الفلسفة .. أو هذه هى نهاية كل من يدرس الفلسفة .

أما أنا فلم أكن قد فكرت فى شىء من ذلك ..

وفى مرة أخرى وجدتنى أتحدث إلى نفسى بصوت مرتفع قائلا : لابد أن أعرف نفسى .. أعرف قدرتى ومستقبلى لابد أن أعرف ذلك بنفسى !

ثم أجدنى قد سكت . واتجهت إلى شىء آخر ..

وواضح أننى لست فاهما هذا الذى أقوله وإنما أنا أقلد مدرس الفلسفة . فقد كان يدخل من باب الفصل وينشغل عنا نحن الواقفين تحية له . ويظل يروح ويجىء . وقد ينسانا تماما . ثم إذا هو يفيق من انشغاله العميق . وينظر إلى وجوهنا . ونخاف من نظرته النافذة والتى تكتسحنا عموما ، ثم تخترقنا واحدا واحداً . وقد اعتدنا على أن نقف بلا معنى وأن يتحرك هو بلا هدف .

إذن هذه هى الفلسفة . وهذه هى البداية اليومية لحصة الفلسفة . أما بعد ذلك فهو شىء عادى جدا . فيخلع المدرس طربوشه ويضعه فوق أوراقه ويبتسم ويعود يناديناً واحدا واحدا كأنه كان وسيطا فى جلسة تحضير الأرواح ثم انتهى دوره .. وعاد إلينا .. فى غاية اليقظة . وبعد ذلك يتجه إلى السبورة ويكتب أسماء وعبارات . ويدق الجرس وتنتهى الحصة . ولم نفهم أى شىء .

هل كنت أقلد المدرس ؟ نعم . هل الفلاسفة يفعلون ذلك دائما ؟ يجوز .

وفى جلسة لوالدى مع عدد من رجال الدين والشعراء نمت . وصحوت أقول : ولكن يجب أن يعرف الانسان نفسه بنفسه ! ولم يكن أحد قد طلب منى أن أقول شيئا ، ولم تكن هذه العبارة لها أية علاقة بما يقال . وتلفت الجميع بعضهم إلى بعض .. ووضع والدى يده على جبهتى ليعرف إن كنت مريضا . ثم انتقلت يده إلى خدى ثم إلى كتفى قائلا : الله يفتح عليك يا ولدى !

وكنت فى حاجة إلى هذا الدعاء . لعل الله يفتح لى نوافذ العلم ويفتح لى كنوز الصبر وأبواب المستقبل !

وعرفت أولا أن هذه الفلسفة ليست مما يهم كل الناس . وليس من السهل فهمها . ولكن لابد منها .. ووجدت أن عندى استعدادا كبيرا لدراستها . وإن كنت لا أعرف كيف أنجح فى ذلك . فالذى يقوله المدرس ليس واضحا . وإن كانت هناك بعض العبارات الجميلة . فقط عبارات . ولكن لا يوجد أشخاص . وحتى الأشخاص لا أعرف ما معنى مثل هذه الأسماء : سقراط أفلاطون أرسطو .. فيثاغورس .. انكسا غوارس ديموقريطس .. هرقليطس جورجياس .. ليتس بيكون هيوم .. كنت .. هيجل شوبنهور ونيتشه .. ومفروض أن أعرف كل هؤلاء فى سنة واحدة .. وأسماء أخرى عربية : الغزالى وابن سيناء وابن رشد والفارابى والكندى وإخوان الصفا ..

إذن هذه هى الفلسفة ..

وأول الأسماء وأعظمها : سقراط ..

وهناك أكثر من سقراط .. سقراط الذى سمعت عنه فى الفصل ..

هذا الرجل قال : إن الانسان يجب أن يعرف نفسه .. بنفسه .. وعلاقاته بالناس . ضرورى . وأن يعتمد على نفسه فى فهم ذلك .

وأن هذه هى النصيحة التى قالتها قارئة الأفكار - العرافة - وهى فتاة صغيرة تجلس فى كهف ويذهب إليها الناس . فتتنبأ لهم بمستقبلهم . ولما ذهب إليها الفتى سقراط قالت له : إعرف نفسك بنفسك !

وذهب الفتى يحاول أن يعرف ما هو الجسم ما هو العقل ما هو الفكر ما هذا الحوار الذى بينه وبين الناس !

وهناك سقراط آخر ذلك الذى سمعت عنه فى كلية الآداب .. وهو رجل

مشغول بالفكر عن الحياة . وعما يدور في رأسه ، عن الذى يدور فى رؤوس الناس . بل إن من واجبه أن يفتح أدمغة الناس وأن يستخرج منها العقل والمخ ويفتح بطونهم وأن يستخرج منها قلوبهم وأن يغسلها وينشرها أمامهم فسقراط يقول : إن أمي « داية » .

وهو الآخر يقوم بنفس العمل فيولد أفكار الناس ..

وكل ذلك بالعقل . فهو يفتش عن كل الأفكار الخفية والظاهرة . ويناقشها . ويظل يناقش والناس مبهورون به حتى يصحح كل أفكارهم . وكان يفعل ذلك وهو يتمشى في الشوارع . أو وهو جالس على سلالم المعابد . تماما كما كنا نجلس على سلالم المكتبة .

وكان سقراط يمشى حافيا ، وهذا ما لم أستطع .. وعارى الصدر شتاء ، وهذا ما لم أستطع صيفا ..

وله تلميذ ذكي بارع عظيم هو أفلاطون . وهو الذى سجل كل محاورات سقراط مع تلامذته .. كيف سجلها ، لا نعرف . هل كل الذى كتبه أفلاطون هو بالضبط ما قاله سقراط أو هكذا تخيله وأضاف إليه الكثير من الجمال والمنطق ؟ لا نعرف . وإنما سقراط لم يكتب حرفا واحدا ، وأفلاطون لم يؤلف حرفا واحدا . وإنما هو سجلّ قدّم لنا ما قاله الأستاذ . فقدّم لنا أستاذين عظيمين في وقت واحد !

وسقراط ثالث هو الذى قرأته على مهلى وبمتعة لا تنتهي . فلم أكن تلميذا يذاكر ، ولا طالبا يبحث ، وإنما كنت قارئا كاتبا يتأمل ويستمتع . هذا هو سقراط الذى أعجبني والذى أحببته ، بلا خوف : أى بلا خوف من الامتحان ، وبلا ضغط من الوقت الضيق ، والأستاذ المتعجل ، وإنما يبهرني هذا الأستاذ العظيم والإنسان البسيط ، والعبقرية المتواضعة .. والذى لا يستطيع أحد أن يقلده أو يجاريه ، ولا هذا من الضرورى في شيء . إنه هو هكذا ، وهو وحده .. ولا يمكن تكرار ما حدث له أو ما أحدثه ..

في ساعة مبكرة من كل يوم يلاحظ الناس أن سقراط قد خرج مسرعا . حافى القدمين عارى الصدر والرأس . ويخرج من شفتيه صوت معناه : صباح الخير .. ونحن لا نعرف إن كان خيرا أو شرا .

ثم هو يمضي يحدث نفسه : ولكن ما هو الخير .. خيرى أنا أو خيرك أنت .. أو هو خير الناس جميعا .. الخير الذى يريده الأغنياء أو الخير الذى ينشده الفقراء .. وما هو الخير الذى يريده المظلوم ؟ أو الخير الذى يريده الظالم ؟ وهل إذا صنع الانسان سكينا لتقشير الخيار واستخدم فى قتل إنسان فما هو الخير .. ما هو الخير الذى يمكن أن يحققه السكين .. وهل إذا كان السكين مسروقا والخيار ليس مسروقا ؟ فهل من الخير أن تقشره بسكين ليس لك ؟ وهل هذا خير أن يكون السكين مسروقا والخيار أيضا وأنت تفعل ذلك من أجل إنسان جائع ؟

وكثيرا ما سمع الناس سقراط يهمهم ويقول : ولكن لا أعرف الحقيقة ؟ إننى أحاول أن أفهم ولكنى لا أستطيع ..

ثم يخرج سقراط قطعة من الاسفنج وينظف بها التماثيل فى المعابد . فهذه هى وظيفته فالعصافير قد تركت مخلفاتها . ولابد من أن ينظف التماثيل كل يوم .. وكثيرا ما سقط الجير على وجهه . ونسى أن يمسحه . ويقال إن هذا الجير هو الذى ترك البثور الغائرة على وجهه . وبذلك أضاف مزيدا من القبح إلى صاحب العبارة الجميلة . وكان سقراط دميما جدا . لدرجة أن تلامذته كانوا يعتذرون عنه . فحين يقدمه الواحد للناس يقول : ولكنه سقراط أستاذنا العظيم .

أى رغم هذا القبح والدمامة فهو أستاذنا ومعلمنا ..

وكان سقراط يمشى منفرج الساقين . وكأنه ينحنى إلى الأمام ويخيل إلى من يراه أنه يستعد لأن يقفز .. أو للسقوط على الأرض ، لكى يمشى على أربع .. وكان يمد يديه إلى الأمام . كأن يديه كانتا ساقين من قبل ، وأنه حديث العهد بالمشى على رجلين ، وكانت عيناه واسعتين .. وكان تلامذته إذا نظروا إلى عينيه فإنهم يفهمون كل الذى يريد أن يقول . قال واحد من تلامذته : لم أر الأستاذ يأكل قط .

وقال آخر : ولا رأيت لديه أية رغبة فى النوم .

وقال ثالث : كنا ننبهه إلى ضرورة العودة إلى البيت .

وقال رابع : ولا مرض قط ..

وقال خامس : ولا سمعته يجيب عن سؤال إلا بسؤال آخر .. فكل عبارة يقولها تنتهى بسؤال .. فهو السائل إلى الأبد .

وعندما هبطت حمامة فوق رأسه انزعج وقال : كأننى شجرة أو كأننى تمثال .. كأننى ميت .. هل أنا لم أتحرك منذ وقت طويل ؟

فقيل له : منذ ساعة .

فقال : ولا أنتم ؟ .

قالوا : ولا نحن .

قال : ولماذا ؟!

قالوا : ننتظر ردك يا أستاذ .

قال : على ماذا ؟

قالوا : على السؤال .

قال : أى سؤال ؟

قالوا : وهل نسيت يا أستاذ ؟

قال : فما هو النسيان ؟ هل الانسان ينسى الذى كان يعرفه .. هل تنسى شيئا كنا نعرفه .. ثم جاء شيء قد جعلنا ننسى .. فأيهما الأقوى .. وأيهما الأنفع : الذى عرفناه ونسيناه .. أو الذى عرفناه أخيرا فجعلنا ننسى ما كنا نعرفه .. هل النسيان نعمة ؟ هل من الضرورى أن يتذكر الانسان كل شيء ؟ هل هناك أشياء تافهة ولذلك يجب أن ننساها ؟ هل هى ضارة ولذلك يجب أن ننساها ؟ هل نحن ننسى الذى نحب أو ننسى الذى نكره ؟

ويقال إن تلميذة أفلاطون كان غنيا وأنه هو الذى كان ينفق على أستاذه . كما حدث فى القرن التاسع عشر عندما كان إنجلز ينفق على كارل ماركس .

ولا نعرف كثيرا عن الذى كان يحدث فى بيت سقراط .. فقط نعرف أنه متزوج وزوجته اسمها اكزنطيبة . هو الذى حدثنا عنها . وهو الذى قال أن له أولادا . ماذا كانت تقول الزوجة والأولاد ؟ لا نعرف . فقط هو الذى أضحكنا على زوجته . وهو الذى أبكى نساء العالم عشرين قرنا . فقد كان قاسيا على المرأة عظيم الاحتقار لها . وكل فلاسفة الإغريق وأوربا حتى نهاية القرن التاسع عشر .

فما الذى يجعل زوجة سقراط تهجم عليه بالكلام الجارح أمام الناس ؟ فإذا أضحكه ذلك ، إنهالت عليه ضربا ! فإذا أضحكه ذلك عادت إلى البيت بسرعة وملأت وعاء بالماء القذر وألقته على صدره العارى .

فإذا أفاق من هذه الإهانة ، التي تؤكد احتقاره العظيم للمرأة قال : إن زوجتي كالسماء ترعد وتبرق ، ثم تمطر بعد ذلك !

ولم تكن زوجته كالسماء ، وإنما كانت كالأرض يدوسها ويضربها بلسانه ويلفها في أبشع صورة فلسفية عرفها الفكر الانساني !

وطبيعي أن تضيق امرأة برجل من هذا الطراز : عاطل .. لا وظيفة .. ولا مال .. ولاحضور له في البيت .. ولا يدري من أين جاء أولاده .. ولا من هم أولاده .

فإذا قالت له الزوجة : ألا تشعر أن لك بيتا ؟

فيجيب : لست على يقين من ذلك !

- وأن لك زوجة .

- تمنيت ألا تكون .

- وأولاد ؟

- طبيعي أن يكون هناك أولاد ، ولكن ليس بهذه الكثرة !

- فما الذي تقترحه حلا لذلك ؟

- ما رأيك أنت ؟

- هل نغرقهم أحياء !

- ممكن . ولكن هل هذا يحل مشكلة الأولاد في كل بيت ؟

- لا شأن لي بالبيوت الأخرى . إنني أتحدث عن هذا البيت ..

- ولكني مشغول بالبيوت الأخرى !

- إنهم أحسن حالا .. فهي بيوت لها أزواج .. لها آباء ..

- وأنا ألست زوجا ؟

- ولكني لا أجدك .

- هل أنا زوجك ما دمت في البيت ، فإذا خرجت لم أعد زوجك ؟ .. هل ينبغي لكل زوج أن يسحب زوجته من يدها وأولاده وراءه لكي يؤكد للناس أنه زوج وأنه أب وأن هؤلاء أولاده .. فإذا لم يفعل ذلك فليس زوجا وليس له أولاد ؟ هل إذا جاء أخوك لزيارتك ، هل يكون هو الزوج لأنه موجود في البيت ؟ هل إذا خرج معك إلى الشارع وسحبك وأولادك يكون هو الزوج وأكون أنا العشيق ؟

ولا تملك زوجة سقراط إلا أن تنهض وتحشر قطعة من الاسفنج فى فمه وتحاول أن تخنقه . فهى قد تعبت من مثل هذا الحوار .. تعبت لأنها لا تعرف إن كانت زوجة أو تلميذة فى مدرسته .. تعبت فهى لا تعرف إن كان زوجها يتحدث إليها أو يتحدث إلى نفسه .. ينظر إليها أو ينظر إلى أشباح فى الظلام ..

وفى يوم عاد سقراط إلى بيته فوجد الباب مغلقا . وراح يدق الباب . فلم يفتح أحد . فجلس أمام البيت . وجاءه تلامذته يسألونه : ماذا حدث ؟

فقال سقراط : لعلها خرجت . ولكن لا أعرف إلى أين ؟ فهى عادة لا تذهب إلى السوق ؟ ولا تستطيع أن تذهب إلى أهلها .. ثم أنها ليست من الشجاعة بحيث تقتل نفسها .. ولا من الجنون بحيث تقتل أولادها .. فهى لا تقصد ذلك .. وإنما هى تريد أن تقتلنى ؟ ولا أعرف إن كان هذا هو الحل ؟ فإن قتلت أولادها فلا أعرف ما هو الهدف ؟ وإن قتلت نفسها وتركت أولادها فهل هذا هو حب لأولادها وكراهية لنفسها ! وإذا قتلتهم ثم قتلت نفسها فما هى المشكلة التى انحلت على يديها ؟ وهل الانتحار حل ؟ وأيهما أشجع : القاتل أو القتيل . فإذا كان القاتل هو القتيل ؟ فمن هو المجرم ومن هو الشهيد .. وما هو الفرق بين قاتل نفسه وقاتل غيره ؟

وكان الحل هو أن واحدا من تلامذة سقراط قد انتفض من مكانه ، ونبه سقراط إلى أنه يدق الباب الخطأ . فلم يكن ذلك بيته !

وكانوا إذا قدموا لسقراط تلميذا جديدا يقولون له : يا أستاذنا هذا هو التلميذ الجديد فلان الفلانى .. أبوه .. وأمه .. وطبقته الاجتماعية .. وهو لا يعمل وإنما يريد أن يتعلم على يديك قبل أن يعمل .. الخ .

وهنا تبرق عينا سقراط وتنفجر فى داخله ألوف الأسئلة . وليس من الضرورى أن يجيب عنها التلميذ . فسقراط لا يسأله وإنما هو يتساءل أمامه : ولماذا اخترت الفلسفة ؟

ـ وإنما أنا اخترتك يا أستاذ .

ـ وما الذى اخترته .. إن كان جسمى فهو ملك لى ، ثم إن جسمك أكثر حيوية وشبابا .. وإن كان عقلى فهو ليس ملكا لأحد .. لا لك .. ولا لغيرك .. ثم ما هذا الذى تريد أن تعمله .. إن كنت تريد أن تصبح نجارا ، يجب أن تذهب

إلى النجار .. وإن كنت تريد أن تصبح طبيبا ، فاذهب إلى الطبيب .. ولكن الفلسفة ؟ ما الذى تريده منها ، وما الذى تريد أن تكونه ؟ ثم من الذى قال لك أننى أحسن الناس ، أو من الذى قال لك إنك أحسنت الاختيار ؟ ثم هل أنت اخترت بكامل حريتك .. أو تقليدا لزملائك ، أو هربا من بيتك ، أو عنادا لوالدك الذى لا يحبنى ، أو اتفاقا مع أمك التى تريد أن تغيظ والدك ، وتضحى بمستقبلك .. قل لى بالضبط !

وفى يوم التف التلامذة حول الأستاذ العظيم وسألوه جميعا .. إلا واحدا .. ظل ساكنا . كلما اتجهت إليه عينا سقراط ، جعل ينظر إلى الأرض إلى قدميه .. وكلما حاول سقراط أن يقترب منه ، هرب بعينيه بعيدا عنه .. وأخيرا قال له سقراط كلمته الحكيمة البليغة : تكلم حتى أراك !

أى تكلم لكى أعرف من أنت ؟ ما تفكيرك ما هدفك ؟ ما أملك فى الحياة ، ما الذى يقلقك على نفسك !

• • •

هكذا كان أستاذنا العظيم سقراط . قد علمنا : أنه إذا لم تسأل فلن تعرف . وإذا لم تسأل أكثر ، فلن تعرف أكثر . وإذا لم تندهش فلن تسأل . فالدهشة هى بداية المعرفة لنفسك .. ولنفوس الآخرين .. لعالمك ودنيا الناس ..

وكل أب يبحث عن ابنه فلا يجده ، فإنه يعرف أين هو .. فيذهب إلى أحد ميادين أثينا .. ليجد مجموعة من الشباب قد التفوا حول سقراط .. فالشبان قد تركوا المدارس والوظائف والأعمال والحياة البيتية .. لا يريدون أن يأكلوا ولا أن يشربوا .. ولا أن يسمعوا إلى نصائح الوالدين .. فلا أب إلا سقراط .. ولا حكمة إلا لسقراط .. ولا هدف إلا سقراط ..

ثم ما الذى يقوله لهم ؟

إنه يشكك فى كل شىء .. ولا يتقبل كل حقائق الدين والحياة دون بحث ودون مناقشة ..

لقد زلزل سقراط كل أسس الدين والتقاليد والأسرة والأبوة والأمومة .. ثم أنه المحتقر العظيم لكل صاحب سلطة وصاحب مال وصاحب جمال . فكل

شيء فان والانسان ما دام فانيا ، فكل ما له علاقة بالانسان زائل .. أما الباقي فهو الفكر .. فهو الحقائق التي تجيء بعد تأمل : الخير والجمال والحق والعدل والفضيلة التي هي جوهر كل سلوك إنساني !

• • •

وضاق الآباء وقرروا أن يقضوا على سقراط ذلك المفسد العظيم والمحطم لآمال الآباء .. والخائن للوطن والداعية إلى ديانة جديدة . هكذا اتهموه !

وفي مكان عام قرر أحد الآباء أن يحرض الناس على سقراط فأتى بواحد من أبنائه وسأله أمامهم :

ـ أنت تلميذ لسقراط ؟

ـ مع الشرف العظيم .

ـ ولست تلميذا لوالدك الذي يخدم الناس في كل مكان ، والذي سوف يترك لك ثروة عظيمة ولزوجتك وأولادك وأحفادك ..

ـ ليس أعظم من سقراط .

ـ أغنى من أبيك ؟

ـ نعم بأفكاره العظيمة .

ـ وأبوك بلا فكر ؟

ـ لم أجرب الحوار معه .

ـ إذن حاورني الآن ..

ـ موافق .

ـ هل تؤمن بزيوس كبير الآلهة ؟

ـ إنني لا أعرف بالضبط من هو .. ولا معنى أن يكون أحد إلها ، وأن يكون أحد آخر كبيرا للآلهة .. ما فائدة أن يكون هناك إله ؟ فما هي صفاته وما هي قدراته الخارقة ؟ ومن الذي صنعه .. لابد أن أحاوره هو أيضا ؟ فإذا كان هو إلها لك ، فأنا لم أتخذ قراري بعد ..

ـ ما الفرق بين الانسان والاله إذا كان لابد أن يحاوره وأن يزيل الفوارق بينهما ؟

- إننى لا أزيل الفوارق إننى أضيقها فقط .. لكى أراه ويرانى .. لكى أعرف منه بعض المعلومات .

- مثل ماذا ؟

- مثل ما معنى القداسة ؟ وأى فائدة للانسان أن يعترف بها .

- إن الإله لا يتزوج ؟

- ولكنه يعتدى على الزوجات .. فلماذا ؟ هل لكى يؤكد قدرته .. ألا توجد وسائل وصور أخرى يقنعنا بها ؟ إن الذى يحتاج إلى قوة خارقة لكى يكون خارقا ، ليس خارقا .. فالغنى جدا ليس هو الذى يقترض فلوس الآخرين ... وإنما هو الغنى بماله هو ، وبما ملكت يداه ..

- ألا ترى أننى غنى ؟

- أرى ذلك .

- وأنت غنى ؟

- لا أرى ذلك ..

- إن مالى هو مالك .

- ليس صحيحا .

- لا تصدقنى ؟

- لا أفهمك فقط .

- حاول .

- سوف أحاول : أنت تملك مالا كثيرا ؟

- نعم .

- هل أنت أغنى أو عمى ؟

- أنا

- من قال ذلك

- أنا

- ولكنه يقول أنه أغنى منك .

- سوف أكون أغنى منه .

- إذن أنت لست راضيا عن حالك .. كأنك فقير .

- كأننى

ـ إذن أنت لست غنيا . وأنا لست غنيا أيضا .

ـ عندما أموت سوف ترث أموالى ؟

ـ وقد أموت أنا قبلك فترث أنت ما كان يجب أن أرثه .. ولكنك سوف تكون أشد فقرا .. لأنك فقير بمالك ، وسوف تكون بلا ولد .. وسوف تزداد فقرا .. إذن أنت لست غنيا .. ولن تكون غنيا بعد موتى .. هل تكون غنيا إذا مات عمى ..

ـ نعـم ..

ـ ولكن أموال عمى سوف تذهب لأولاده ..

ـ سوف أكون أغنى من كل أولاده .. لأن أمواله سيوزعها عليهم ..

ـ ولكن ما قولك إذا أولاده قد أعطوك هذه الأموال كلها . هل تكون غنيا ؟

ـ أكون غنيا جدا ..

ـ ولكن أنت لا يهمك أن تكون غنيا . أنت يهمك أن تكون أغنى من أخيك وأولاد أخيك .

ـ صحيح .

ـ فإذا لم تجد أحدا تشعر بأنك أغنى منه ، هل تكون سعيدا .

ـ لن أكون سعيدا ؟

ـ إذن أنت لست سعيدا الآن .. ولا سعيد إذا أنا مت .. ولا إذا مات أخوك .. ولا إذا ترك أولاده ثروتهم لك .. فانت لست غنيا إذن !

ولم يكن الآباء فى حاجة إلى ما هو أكثر من ذلك من اجل القضاء على سقراط .. إنقاذا للشباب والأسرة والبلاد والدين والسلطة والمستقبل ..

وكأنما أراد هذا الأب أن يقضى على سقراط بالضربة القاضية الفنية . فسأل ابنه : وأمك ؟

ـ ما لها ؟

ـ أليست أمك !

ـ هى التى تقول ذلك .

ـ وأنا ألست أباك ؟

ـ أنت الذى تقول ذلك .

ـ إذن كيف تتأكد من أنك إبن لى وإبن لأمك !

- لا أعرف الآن . سوف أبحث ذلك مع سقراط ..

- هل هناك شك فى أننى أبوك ؟

- ممكن

- إذن لماذا أحبك ؟

- إن الانسان يحب إناسا كثيرين .. خاتمه وكلبه وزوجته وعشيقته .. وتمثالا ووردة .. والسماء والنجوم ..

- وأنت ألا تشعر بشىء ناحيتى ؟

- بالامتنان

- لأننى أبوك ؟

- لك أيا كانت صفتك .

- فما هى صفتى ؟ .

- لابد أن أتأكد من ذلك .

- إذن أنت لست على يقين من أننى أبوك وأنك ابنى .. وأن أمك هى والدتك ..

- بالضبط .

- وحتى تتأكد

- سوف أحاول ..

- فإذا لم تتأكد هل تبقى فى البيت ؟

- الأمر متروك لك ..

- وليس لك رأى ؟

- سوف يكون لى عندما أتأكد .. لكن إذا أردت أنت أن أترك البيت فورا سوف أفعل .. ونظر الأب إلى بقية الآباء . واتجهوا جميعا إلى القضاء . ووقف سقراط وحوله الشباب . ووجهوا إليه تهمة : تكفير الشباب وإفسادهم ، ودعوتهم إلى إسقاط النظام والحكومة والتقاليد وتحقير كل الآلهة وكل الأديان . ولم تسمع المحكمة لوجهة نظر سقراط فى أجمل وأروع مرافعة فى التاريخ فحكمت بإعدام سقراط .

ونصحه تلامذته بأن يطلب العفو .. رفض . بأن يطلب الرأفة .. رفض . وجاءت زوجته وأولاده يبكون . وانتظر القضاة أن يستعطفهم رفض .

وخيروه بين أن يموت شنقا وأن يموت بالسم . فاختار أن يموت بيده . وسجل لنا تلميذه أفلاطون الساعات السابقة على موت سقراط . وهي صفحات من أروع ما عرفت الفلسفة والأدب وعلم النفس والتربية ..

تذكرت كل ذلك يوم جلسنا حول سرير الأستاذ العقاد مريضا ممددأ شاحبا هامس الصوت متوقد العينين حاضر الذاكرة لا يغيب عنه شيء مما نقول .. وكان هو أيضا يتحدث عن الدين والموت .. وما الذي خرج به من هذه الدنيا .. وما الذي يساويه كل هذا العناء . قلت : هل هذه الدنيا تساوى ؟

قال : تساوى . فنحن لم نعرف غير هذه الدنيا .. لو كانت للواحد منا أكثر من حياة كما تقول الديانة الهندية .. لعرفنا إن كانت حياتنا هذه أفضل من حياة سابقة .. أو من حياة لاحقة .. إذن هذه الحياة تساوى ..

- لو عدت إلى الوراء ..

- لو عدت إلى الوراء لأخذت هذه الحياة بكل ما فيها من قرف .. لأننى عندما أعود فسوف تعود كل ظروفى النفسية والاجتماعية والسياسية .. وسوف أتحل فى آلة العصر .. مسمارا ضمن آلة ضخمة .. وتدور الآلة وأدور معها .. وأبلغ هذا الذى بلغته ..

- وهل تأسف على شىء

- وما جدوى الأسف يا سيدى . لقد انتهى كل شىء ..

- والذى تفكر فيه الآن ؟

- أفكر فى أن التفكير لا جدوى منه .. ولن يكون عندى متسع من الوقت كى أعرف .. ولكن عندى إحساساً غريباً الآن .. هدوء وصفاء .. وأفكار كثيرة ومشاريع أدبية .. كانت كلها نائمة .. ومعنى ذلك أننى عندما كنت مشغولا ، كنت مشغولا عنها .. تماما كما تنصرف إلى عملك ، وتنشغل عن الواقفين على باب مكتبك أو عن الجالسين معك .. أو عن سماعة التليفون التى وضعتها وتركت واحدا على الخط .. أما الآن .. فلا أحد أمام الباب ولا فى المكتب ولا على الخط ، فلم تعد مشغولا عن الذى فى داخلك .. بل أنت لا تستطيع أن تنشغل بهذا الطارق الطارىء الجديد .. لا وقت !

وقال أحد الحاضرين وبسرعة خوفا من أن تخونه الكلمات : إن كانت فى حياتك امرأة يا أستاذ فلماذا لا تتزوجها فورا ؟

وضحك الأستاذ العقاد حتى خشينا عليه أن يموت من شدة الاهتزاز بكل جسمه .. بكل البطاطين والسرير أيضا .. وضحكنا نحن أيضا ، حتى أحسسنا أن البيت سوف يهدم فوق رؤوسنا فنحن أيضا نهتز مجاملة للأستاذ وسعادة لسعادته وتوقعا لشيء سوف يقوله : أنت فقط تريد أن ترى أرملتي : هاها !

ولم نجد ذلك مضحكا . وإنما استرحنا إلى أن الأستاذ العقاد قادر على الضحك ، وعلى تشجيعنا على ذلك ..

وحول سقراط جلس تلامذته أكثر حزنا وأكثر حيرة . ولا يعرفون كيف يقنعون سقراط بألا يموت بالسم .. ولم يفلحوا ..

وجاء من يحمل له السم . وودع سقراط تلامذته . وأوصاهم بالتساؤل ليعرفوا أكثر .. ونصحهم بأن يعمقوا ما يعرفون . وطلب أن يكون وحده عند شرب السم . وأخذ الكأس وأدناها من فمه . وتقلصت أساريره . وأحس بمغص عنيف . ووضع يده على بطنه . وأخفى وجهه . وسحب الغطاء . وتمدد دون أن يظهر الألم على وجهه ..

وتوارى مثلا أعلى ونموذجا رفيعا لحب الحقيقة والسهر عليها . والدعوة لها . والموت في سبيلها بشجاعة وكبرياء !

مات سقراط عن سبعين عاما سنة ٣٩٩ قبل الميلاد واختلف تلامذة سقراط .

أناس حاولوا أن يقلدوه في طريقته في الكلام . وفشلوا . مثلا : يوم ودعوه وقفوا صامتين لا أحد يريد أن يتكلم ولا يعرف . حتى تشجع واحد فقال :

– هل سنقف هنا طويلا ؟

– وهل وقفنا ؟

– إذا لم نكن جالسين ، فنحن واقفون .

– ليس الوقوف والجلوس هما الوصفان الوحيدان للانسان .. فمن الممكن أن ينام واقفا وأن ينام جالسا ..

– هل تريد أن تقول أنك الآن تتكلم أثناء النوم ؟

– بل أنا لا نائم ولا حتى أتكلم .. إنني أكلم نفسي .

– ولكنك تتكلم .

– وأنت سمعتني بالصدفة .. أنا لم أقصدك .. أنا أقصد هذا الكلب القادم نحونا !

ومثل هذا الحوار السخيف جعل التلامذة يهربون من بعضهم البعض . فقد مات الراعى ، فتفرقت الأغنام ..

انقطع الخيط فتفرقت حبات العقد . !

لقد أخذ سقراط المعانى معه ، فأصبحت ألفاظ تلامذته بلا معنى !

وبعض تلامذته اختار أن يمشى عاريا حافيا وأن ينبح .. تماما كالكلاب .. وقالوا : إننا ننبح الرذيلة !

وبعضهم قرر ألا يعود إلى البيت . وأن ينام فى الشارع .. وفى براميل ال[illegible] .. وبعضهم اتجهوا إلى الشذوذ الجنسي احتقارا للمرأة واستغناء عنها ..

أما تلميذه العظيم أفلاطون فقد نشر هذه المحاورات . وحاول أن يطبق آراءه فى السياسة . فأعطوه جزيرة لكى يقيم عليها المجتمع السعيد الذى يتساوى فيه كل الناس . والذى يكون فيه الفيلسوف هو الملك .. فقد كان الفيلسوف هو الصعلوك سقراط ..

وفشل أفلاطون فى تحقيق حلم الفلاسفة فى أن يكونوا ملوكا يطبقون آراءهم .. وتحقيق حلم الملوك فى أن يكونوا فلاسفة أى لهم القوة والحكمة .. لهم السيف والمصباح .. لهم الطريق والطريقة !

• • •

وفى إحدى ليالى الشتاء فى جمعية « الاخوان المسلمين » بامبابة .. وكانت « ليلة القدر » .. وكانت لى قصيدة .. ألقيتها وجلست . وكان فى أذنى صفير وتصفيق وضوضاء .. ولا أدعى أننى عرفت شيئا مما يقال حولى .. ولا رأيت بوضوح . واقترب منى أحد الاخوان وسحبنى إلى ركن فى غرفة مغلقة . وأقفل الباب وقال لى : هل تعرف معنى الذى قلت :

ـ ما الذى قلت ؟

ـ هذه القصيدة .

ـ مفروض أننى أعرف وأننى نظمت وأننى ألقيت .. وأننى مسئول عن كل كلمة . فماذا قلت !

- لا تغضب منى .. أنت صغير .. وأنا فى مقام والدك .. ووالدك لا يرضيه الذى قلت .. فهو رجل متدين متصوف . وأنت شاب مؤمن ما فى ذلك شك .. ولكن هذا الذى جاء فى القصيدة .

- لا أفهم

- كيف تتساءل : ما السماوات .. ما الجنات .. ما النار .. ما الطريق بين المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ؟

- ألا يصح أن أتساءل ؟

- يصح . ولكنك تعرف الإجابة .. ثم ما الذى تتوقعه من السامعين إذا قلت لهم : ما عقول بلا سؤال .. ما سؤال بلا تعجب .. ما تعجب بلا عيون .. ما عيون بلا حدقات .. ما حدقات بلا إنسان .. ما إنسان عين لا يرى إنسانا .. ما سماء لا تظل أحدا .. إنك تفزع الناس أنك تشكك فى كل شيء ..

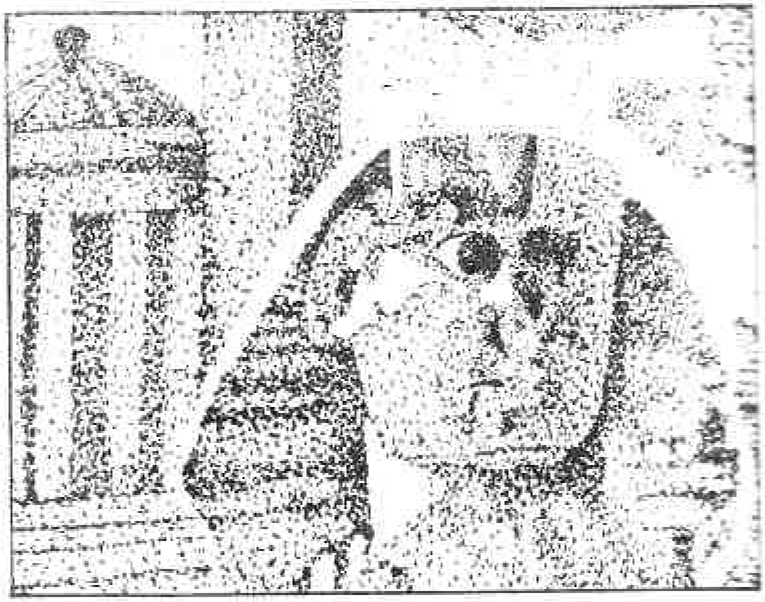
- معك حق ؟

- معى حق فى أنك تشكك فى الدين .

- لا أفهم .

- انتهى كل شيء !

ولم يفهم أننى استسلمت للفيلسوف العظيم سقراط .. ونسيت المناسبة والمكان والزمان .. فقد تخيلت أننى ما زلت جالسا على سلالم المكتبة .. أحنى رأسى وأدور بعينى فى الأرض وفى عيون الناس ، واتقلب بين السماء والنجوم .. وعلى فراشى رسمت علامات الاستفهام والتعجب وعلى مخدتى صورة أستاذ أساتذتى : سقراط !



لكن سقراط لا يعيش في
بولاق الدكرور

لكن سقراط لا يعيش في بولاق الدكرور ..

كان من عادتى وأنا طفل فى المنصورة أن أذهب إلى محل حلوانى فى شارع السكة الجديدة . ولا أعرف السبب .. أما الحلوى فأراها كما هى كل يوم . لا تغيير .. ولكن عرفت فيما بعد أن الذى يشغلنى هو شكل الرجل صاحب المحل .. إنه قرفان دائما .. وإذا تناول طعاما فهو يأكل العيش والملح .. أو العيش والجبن القديم . ولكن لا يذوق الحلوى .. بينما الأطفال سعداء بالذهاب إلى المحل والوقوف عنده .. وإنتظار دورهم فى أن يقدم لهم ما يريدون .

وأحيانا تتسلل أيديهم إلى الحلوى فيراهم ويعطيهم .. أو يشجعهم على ذلك .. والذى يأخذه الأطفال يحذفه من القراطيس التى يعطيها لهم .. واندهش لرجل .. وكذلك لأولاده عندما يجيئون إلى المحل ويبيعون .. إنهم أيضا لا يأكلون شيئا من الحلوى .. ولابد أن يكونوا قد زهقوا منها .. فهى عندهم طول الوقت ..

فقط هذه الملحوظة هى التى أسجلها لنفسى كل يوم .. ولكن لا أذهب فى الفهم إلى أبعد من ذلك : إن بائع الحلوى لا يذوقها .. أو لأنه ذاقها كثيرا ، فقد قرف منها ..

وكنت أرى بائع العرقسوس يضع برميلا زجاجيا على صدره ، فيتراجع إلى الوراء .. وأرى الذى يحمل القربة يضعها على ظهره فينحنى إلى الأمام .. وأرى الذى يعمل فى صباغة الملابس أسود اليدين والأظافر .. وأرى الحداد غليظ الذراعين ..

فكانت المهنة واضحة الأثر فى كل هؤلاء .. فالمهنة تترك أثرا عضويا أو أثرا نفسيا ..

وفى الريف كنت أرى المرأة ، المعددة ، التى يستأجرونها لكى تعدد مزايا الميت وتبكى عليه وتثير النساء فيبكين .. إنها تقوم بدور عصير البصل فى العيون ، بدور الشبطة على كل لسان : هذه المرأة جامدة .. تذيب النساء دمعا وهى لا تبكى ولا تحزن . إنها احترفت إذابة الدموع ، ورؤية الدموع دون أن يهتز لها جفن ..

ولو تطلعت فى وجوه الناس فترة أطول وأعمق لرأيت العجب .. ولكنى كنت أتوقف بسرعة وألاحظ وأمضى لكتبى .. فلم يكن عندى وقت لكى أتأمل واستسلم وأرتب النتائج وأخرج منها برأى أو نظرية .. فلم يكن الوقت كافيا ، ولا كنت قد تعلمت أن أتأمل وأن أسجل كل ذلك ..

وكلما رأيت أساتذتى فى الفلسفة استعدت كل هذه الصور ..

فالشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة الإسلامية : لطيف رقيق أنيق واضح القلق .. ولكن كل الحزن فى صوته وهو يتلو القرآن والأحاديث ويستعرض النظريات الفلسفية . فبالله ما الذى استفاد ، وكيف يفيدنا ؟

د . عبد الرحمن بدوى أستاذ الفلسفة والمنطق صارم الملامح جاف خشن لا عواطف لا مشاعر جارح الألفاظ قرفان دائما .. فما الذى أعطته الفلسفة وما الذى يستطيعه لنا ؟

د . على عبد الواحد وافى أستاذ علم الاجتماع نحيف جاد ، لا يكن حبا لأحد من زملائه ، ولانحن نكن له شيئا من ذلك . لا هو أفلح فى أن يجعلنا نحبه ، ولا أفلحنا نحن أيضا فى أن نجعله يحبنا ..

د . عبد العزيز عزت أستاذ علم الاجتماع إنه قصير دائرى التكوين لطيف يضحك بصورة عصبية ولكنه لا يكف عن اتهام كل الناس بأنهم جهله - ونحن أيضا .. ولا يضحك ولا يعطى أملا لأحد أو فى شىء ..

د . يوسف مراد أستاذ علم النفس ، إنه هو الآخر فى حالة قرف وملل يتكلم وهو كأنه يخاف أن يقول ، ويخاف أن يسكت .. وهو دائم النظر إلى وجوهنا .. يتوقع أن تسقط عيوننا تحت قدميه ليدوسها ويسحبنا جميعا عميان وراءه فى ظلمات النفس البشرية .. لا هو مستريح ولا هو مريح !

د . عثمان أمين أستاذ الفلسفة الحديثة : إنه فتح أبواب الفلسفة وأقفلها على

فيلسوف واحد هو الفرنسى « ديكارت » .. هو أول التفكير وهو آخر التفكير .. هو البداية ويجب أن يكون النهاية .. وكلّ الفلاسفة قد أخذوا منه . كلهم لصوص . أما أساتذة الفلسفة ، أساتذتنا ، فهم جهلاء وهم كذابون وهم أميون جميعا .. وسوف نرى ذلك فيما بعد .. أما الفلسفة الإسلامية فهى أيضا قد بدأت وانتهت بالإمام الشيخ محمد عبده .. وقد تخصص د . عثمان أمين فى هذين الرجلين وكتب عنهما أجمل وأوضح ما ظهر فى اللغة العربية . ولكنه هو شخصيا قد تجمد تماما عند هذين الرجلين ويريدنا كذلك !

الأستاذ محمد محمود خضيرى أستاذ الفلسفة الإسلامية . فهو رجل لطيف خفيض الصوت له ابتسامة حلوة صافية .. وهو لا يكره أحد ولايحقد على أحد . ولا يعمز ولايلمز .. ولكن المادة التى يدرسها لنا جافة ولغتها جافة أيضا .. فهو صورة مختلفة عن الذى يقوله لنا .. وإذا رفع عينه عن الكراسة التى يملى منها ، كان ألطف وأوضح .. وكان هو الوحيد من الأساتذة الذى به أبوة وأخوة .. ولكن هذه الأبوة يفسدها ما يقوله ، وهذه الأخوة تحرقها لغته الجافة ..

د . لامونت رئيس قسم الفلسفة .. رجل انجليزى فى غاية الرقة واللطف . وهو إذا تكلم أحسسنا كأنه يمشى على بيض أو على شوك أو على نار .. يمشى بحساب شديد . يريد أن يقول كلاما دقيقا جدا . ولذلك فمن خوفه أن يقع أو يخطىء شديد الكآبة ويقسم بعض الزملاء أنه رآه يضحك مع عميد الكلية . وتمنينا لو رأينا هذا المنظر !

ود . بريستيانى أستاذ علم الاجتماع وهو رجل يونانى . وله كتاب مشهور عن بعض القبائل البدائية . وهو يدرس لنا هذا الكتاب . يدرسه فقط لطلبة الامتياز . وكنت أنا طالب الامتياز الوحيد فى قسم الفلسفة . وهو رجل لطيف ظريف . وكثيرا ما دعانى إلى بيته بين زوجته وأولاده .. ولكنه يتكلم فى موضوع واحد لا يمل تكراره . وقد مللت !

ود . مصطفى حلمى أستاذ التصوف وهو رجل ضرير . وكان أخف الأساتذة دما ، فهو يعلم أن الفلسفة مرهقة للأعصاب ولذلك كان يداعبنا لنضحك . وكان هو يضحك أيضا .. وكان يستخدم النكت والقفشات لتجديد نشاط الطلبة فى محاضراته . ولكن فجأة ينقلب غاضبا ساخطا لأتفه الأسباب

ويلعن الطلبة والفلسفة واليوم الذى « رآنا » فيه .. ونقول : معذور !

ود . منصور باشا فهمى ، وكان يدرس لى وحدى ، « علم الجمال » وكان قد انقطع عن القراءة وقتا طويلا . لقد أصبح من معالم المجتمع المصرى الجامعى والثقافى . ولابد أن يكون الأستاذ العقاد قد ساعدنا على أن نراه فى أسوأ صورة . فقد كان دائم السخرية منه ومن علمه وثقافته .. وكنت أشعر بالتعاسة فى محاضراته . فقد كان يختار أصغر حجرة فى الكلية .. نجلس نحن الاثنين معا .. وكان يدخن البايب . وأنا أختنق . فلم يسألنى مرة إن كنت أضيق برائحة الدخان . وحتى عندما يصاب بالزكام فإنه يظل يسعل ويعطس ويدخن والباب مغلق علينا . ولكنه لا يعتذر ولا يهمه أن تنتقل لى العدوى . وأكثر من ذلك فأنا الذى ترجمت كتابا من الفرنسية إلى العربية عن « مبادىء علم الجمال » .. فأنا الذى أقرأ وأنا الذى اشرح وهو يستمع .. ثم فوجئت به يطلب منى هذا الكتاب ، ويلقى منه محاضرات فى الراديو ..

والسيدة برج أستاذة اللغة الألمانية .. إنها سيدة عجوز لها سيارة صغيرة مثلها . وكانت تطلب منى ان أذهب إليها فى بيتها فى منيل الروضة لأركب معها السيارة ونتحدث قبل المحاضرة . وعرفت فيما بعد أنها فى حاجة إلى من « يزق » لها السيارة كل يوم . وكنت أفعل . فإذا انتهت المحاضرة حملت لها الشنطة المليئة بالكتب والتى لا تفتحها . ولكنها تأتى بها كل يوم .. فإذا عدت معها إلى البيت ، اجلستنى بعض الوقت لكى تقدم لى الشاى والجاتوه .. ولكن قبل الشاى وبعده لابد من معركة طويلة عريضة بلغة عربية مكسرة مع الخادمة ، التى لا تفهم معظم الذى تقول .

د . ابراهيم بيومى مدكور أستاذ الفلسفة الإسلامية ، وكان عضوا فى البرلمان .. وكان يحاضرنا واقفا مرتجلا . وكان هو أيضا متجهما . كأنه قاض فى محكمة الجنايات . وليس أمامه إلا عشرات الأحكام بالاعدام والسجن .. المؤبد .. وكانت محاضراته نوعا من الخطابة مع ضغط شديد على كل الحروف . وبعد المحاضرة لا نجده .. فهو ألقى خطبته واختفى .. والذين عرفوه عن قرب يقولون .. أنه يسأل الطلبة عن أحوالهم وهو يعنى ما يقول لأنه أب وأخ ..

ولكننا لم نر شيئا من ذلك !

.. باترى سويسرى يدرس لنا اللغة اللاتينية . واللغة جافة . معادلات حسابية ، وهو يدرسها باللغة الفرنسية التى ينطقها هو نطقا غريباً . وهو مثل آلة ناطقة . فنحن فى محاضرة اللغة اللاتينية فى ضيق شديد غير قادرين على استيعابها ، وغير قادرين على فهمه .. ولكننا الذين ندرس اللغة الألمانية نجد تشابه شديداً فى القواعد ، ونستعين باللاتينية على الألمانية ، والعكس أيضا . كنت أجد فى اللاتينية والألمانية لذة مؤكدة . وفى اللغة الألمانية كنا نحفظ الشعر وكذلك الشعر اللاتينى . وكنت استخدم الشعر فى الإجابة عن بعض الأسئلة . ولكن الأستاذ باترى لا يستريح إلى ذلك قائلا : يجب أن تتصرف كطفل .. ولا تكن كالببغاء . معه حق . فقد عانيت من ذلك وأنا فى المدرسة الابتدائية عندما كنت أستشهد بالشعر والآيات القرآنية .. وكان المدرسون يتصورون أننى أغش أو أقتبس من الكتب . حتى عرفوا أننى أحفظ شعرا كثيرا وأننى حفظت القرآن الكريم قبل أن أدخل المدرسة الابتدائية .. ولكن الأستاذ باترى قد أنذرنى بصورة قاطعة : إذا كتبت بيتا واحدا من الشعر ، فسوف أعطيك صفرا . هذا نهائى !

وأحيانا كنت أتخيل الأساتذة جميعا فى وجه واحد مثل وجه أبى الهول : حجر جامد أصم أبكم ونحن كالرمال على جانبيه وبين يديه .: وهو لا يدرى بنا ولا يدرى بها !

• • •

ربما كان هذا هو السبب الحقيقى وراء حرصى على أن أذهب إلى دكان الحاج عمران فى بولاق الدكرور .. رغم المسافة الطويلة من إمبابة .. ورغم الوحل والطين والذباب فى الطرقات . ورغم أننا نجلس على الحجارة والرصيف .. وإننا ننهض من حين لآخر إذا مرت عربية كارو .. حتى لا يصيبنا رذاذ الوحل .. ولكن كل ذلك يهون عند دهشتى التى لا تنتهى . ومصدر سببها : الراحة الهانئة عند هؤلاء الناس : لا هم أساتذة . ولا هم فلاسفة . ولا هم فتحوا مدرسة لمحو التعاسة اليومية .. فقط إن السعادة كالمسبحة يداعبونها بأصابعهم ويستعيرها الواحد من الآخر .. إن كل واحد منهم مرآة لصاحبه .. يرى سعادته فيها .. فهم جميعا سعداء ..

مثلا فى أحد من تلك الأيام ، وكنت قد دفعت سيارة السيدة برج ، ذهاباً وإيابا ثم أربع ساعات فى دراسة عقد قضايا المنطق القديم والحديث .. وزيارة مستشفى الأمراض العقلية ، أوجعت القلب وأتعست العقل ، وأطفأت كل نور فى هذه الدنيا .. بعد هذا اليوم الطويل ذهبت بعد صلاة العشاء إلى دكان الحاج عمران .. وكان هو والإخوان قد عادوا من المسجد ..

لا أعرف أكثرهم .. ولكنهم فى حالة من الانتعاش .. الوجوه مغسولة والنفوس أيضا ، وشهيتهم للكلام مفتوحة دائما ..

قال واحد : بل أعظم الشعر هو الذى قاله أبو الأسود الدؤلى :

يا أيها الرجل المعلم غيره
هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى
كيما يصح به ، وأنت سقيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها
فإذا انتهت عنه ، فأنت حكيم
فهناك تعذر إن وعظت ويقتدى
بالقول منك ، ويقبل التعليم
لاتنه عن خلق وتأتى مثله
عار عليك إذا فعلت عظيم

قال آخر : بل هذان البيتان هما أروع ما سمعت :

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله
فأجسامهم قبل القبور : قبور
وإن امرأ لم يحى بالعلم ميتا
فليس له حتى النشور ، نشور !

وقال ثالث : بل هذان البيتان :

علمى معى حيثما يممت يتبعنى
قلبى وعاء له لابطن صندوق
إن كنت فى البيت كان العلم فيه معى
أو كنت فى السوق كان العلم فى السوق

أما الحاج عمران فقال : والله أحسن ما قيل هو ما قاله سيدنا وإمامنا على بن أبى طالب :

قال كرم الله وجهه :
إن المكارم أخلاق مطهرة
فالعقل : أولها والدين : ثانيها
والعلم : ثالثها والحلم : رابعها
والجود : خامسها والعرف : سادسها
والبر : سابعها والصبر : ثامنها
والشكر : تاسعها واللين : عاشيها
والنفس تعلم أنى لا أصدقها
ولست أرشد إلا حين أعصيها
والعين تعلم من عينى محدثها
إن كان من حزبها أو من أعاديها
عيناك قد دلتا عينى منك على
أشياء لولاهما ما كنت تبديها !
الله ـ الله ـ كلهم يقولون معا .
أما هذا الرجل الذى لم أره من قبل ذلك اليوم ، فهو أحسنهم نطقا وأقلهم كلاما وأكثرهم انتباها إلى ما يقال ، وإن كان لا يعلق كثيرا .
فقد قال : أما أحسن ما قرأت للقاضى علي بن عبد العزيز :
يقولون : فيك انقباض وإنما
رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم
وما كل برق لاح لى يستفزنى
ولا كل من لاقيت أرضاه منعما
إذا قيل : هذا منهل قلت : قد أرى
ولكن نفس الحر تحتمل الظما
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى
لأخدم من لاقيت ، لكن لأخدما

أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة
إذن ، فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا
محياه بالأطماع حتى تجهما !
- وأنت ؟

وكان المقصود أن أقول أنا أيضا شيئا من الشعر أو الأدب . وكأننى لا أجد ما أقول .. أو اكتفيت بما سمعت ، مع دهشتى التى لا تنتهى من هذه البساطة والسهولة والارتياح لما قالوا وقيل لهم .. فلم تسعفنى ذاكرتى ، على كثرة ما أحفظ فقلت : عبارة قديمة تقول : إذا اشتد الكلف - بفتح الكاف - هانت الكلف - بضم الكاف .. أى إذا اشتد حب الناس لشيء ، هانت تكاليفه من التعب والعذاب ..

فضحك الحاج عمران قائلا : يعنى الغاوى ينقط بطاقيته - أى أن الحب بهدلة .. حب الأدب والشعر والفلسفة وحب الناس وحب النفس وحب الدنيا وحب الآخرة - والله أعلم .

* * *

إذن .. إذن ..

إذن هؤلاء الناس الطيبون يتكلمون .. يتحاورون .. ويسمعون لبعضهم البعض .. ويصدقون ما يسمعون .. ويصدقون الذى يقولون .. وعندهم استعداد دائم لأن يقولوا .. وهم يقولون أحلى الكلام ، شعرا ونثرا .

أما نحن - طلبة الفلسفة - فلا حوار بيننا .. فالذى نسمعه لانردده .. وإنما هو عبء ثقيل .. نحاول أن نلقى به من فوق أكتافنا ، ونفرغ منه رؤوسنا . ثم أن الذى نسمعه نهدمه .. أو نتحايل على ذلك .. فكلماتنا إن لم تكن طوبا فهى زلط ، وإن لم تكن زلطا فهى رصاص نطلقه على بعضنا البعض .. فكل فيلسوف هو مدفع يجب أن ينطلق على فيلسوف آخر .. وعلينا نحن أن نجمع الشظايا من هنا وهناك ونصنع منها ملابس وبيوتا للوقاية والعلاج والحياة ..

فلا نحن مرتاحون إلى ما نسمع ولا إلى ما نقول .. ولا نحن نقول .. ولأن معلوماتنا متشابهة ومحدودة ، فليس لدينا استعداد لأن نسمع ما نعرف .. ولذلك فلا كلام بيننا ..

وعلم النفس يقول لنا : أنه لا شيء يريح التعبان إلا أن يقول ويقول .. إلا أن يقذف بما في صدره ..

وكان بعض الفلاسفة عندما يضيق بالناس ، يختار إحدى الأشجار ويحدثها ، وهو يعلم أنها لا تسمع .. ولكنه لايستطيع أن يسكت ، وأن يطوى نفسه على نفسه ..

والأطفال يحدثون أنفسهم والشيوخ أيضا ..

وقد ظهرت المقاهي في التاريخ لأن الناس يريدون أن يقولوا .. أي شيء لأي أحد في أي وقت وفي ذلك راحة لأنفسهم ..

وكذلك اعتراف المذنبين في الكنائس ..

والرهبان الذين يحبسون أنفسهم في الصوامع يتحدثون بصوت مرتفع ، وبعضهم يتخيل ملائكة وشياطين .. ليكون بينهم حوار أو لعنات .. فهو يخرج هذه الشياطين والملائكة من أعماقه .. يصنعها يخترعها ، لأنه يريد أحدا آخر يتحدث إليه ..

حتى آدم عليه السلام قال شعرا . قاله لنفسه ، فلم تكن البشرية قد انحدرت منه بعد .. فقط أربعة توائم ولد وبنت ثم ولد وبنت .. وأحد الولدين قد قتل أخاه . قال آدم شعرا ، يحدث نفسه ، فآدم عليه السلام هو اكثر المخلوقات شعورا بالوحدة والدهشة في التاريخ .. فقد جاء في كتاب « مروج الذهب » للمؤرخ العربي أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي على لسان أبينا آدم وباللغة العربية (؟!) :

تغيرت البلاد ومن عليها
فوجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذى لون وطعم
وقل بشاشة الوجه الصبيح
وجاورنا عدو ليس ينسى

لعين لا يموت فستريح
وقتل قابيل هابيل ظلما
فوا أسفا على الوجه المليح
فمالى لا أجود بسكب دمع
وهابيل تضمنه الضريح
أرى طول الحياة على غما
وما أنا من حياتى مستريح !

وسمع آدم عليه السلام صوتا يرد عليه ، لعله صوت الشيطان ، سمعه ولم يره قال أبليس ..

تنح عن البلاد وساكنيها
فقد فى الأرض ضاق بك الفسيح
وكنت وزوجك الحواء فيها
آدم من أذى الدنيا مريح
فمازالت مكايدتى ومكرى
إلى أن فاتك الثمن الربيح
فلولا رحمة الرحمن أضحت
بكفك من جنان الخلد ريح

ويقال ان آدم سمع صوتا ولم ير شخصا ينشد هذا البيت :

أبا هابيل قد قتلا جميعا
وصار الحي بالميت الذبيح !

فازداد آدم حزنا على أن القاتل سوف يكون قتيلا .. وأن كل من عليها فان .. لقد استراح آدم عندما قال وعندما سمع من يرد عليه .. عندما كان هناك حوار ما ، أو تخيل أن هناك حوارا ..

والذين يترددون على أطباء النفس ليس من الضرورى أن يكونوا مرضى ، وإنما كل ما ينقصهم أن يجدوا أحدا يسمع إليهم .. فقط ينظر إليهم وهم يتكلمون .. وكثيرا ما توهم المريض أن الطبيب مهتم به بصفة شخصية .. فيحب الطبيب .. وتكون مشكلة خطرة عندما تكون مريضة تحكى وتروى والطبيب يستمع باهتمام شديد وتتوهم أنه مهتم بها شخصيا .. أى أنه يحبها ،

فحبه هي أيضا .. وتصبح وتتضح مهمة الطبيب : كيف يخلص المريضة من هذا الوهم .. فقد اختلط الأمر على المريضة .. فقد ظنت « الاهتمام المهني » اهتماما عاطفيا شخصيا . ولكن المريضة معذورة ، لقد وجدت من يستمع إليها طويلا دون ملل !

وقد ضحكنا كثيرا عندما نشرت الصحف الأمريكية أن « وكالة للمستمعين » قد أنشئت في أمريكا ، الوكالة أعلنت أن لديها مستمعين من كل نوع .. وأن هؤلاء المستمعين لديهم صبر عظيم .. وهم قادرون على الابتسام ساعات .. وهم قادرون على الإستماع إلى كل أنواع الكلام ؟ في الرياضيات والفلك والفيزياء والفلسفة والدين واللاهوت .. وأن المستمعين على استعداد لأن يجلسوا إلى من يريد في أى وقت وفي أى مكان .. وأن يرتدوا من الملابس ما يحبها المتكلم .. وبعضهم يستطيع العزف على البيانو أثناء الكلام ..

والوكالة أعلنت عن استعدادها لتزويد مستمعين قادرين على التحمس والمتابعة .. وأنهم بذلك يؤدون خدمة عظيمة للذين يشعرون بالوحدة واليأس من الحياة ..

وتقول الوكالة أيضا : أن هناك مستمعين قادرين على أن يشاركوا في الحوار إذا أردت .. وقادرين على أن تكون أصواتهم هادئة وخشنة .. وإذا أردت أن يضربوك ، وإذا أردت أن يمسحوا دموعك إذا بكيت ، فلن يترددوا ..

أى أن الوكالة تعلن عن استعدادها لإمداد الناس بكل أنواع الناس ..

وهذه الوكالة قد نشرت جدولا بنوعيات الوجوه والأصوات والملابس وساعات الليل المناسبة لكل إنسان .. وتؤكد أنها أقل تكلفة من التردد على عيادات الأطباء النفسانيين ..

وليس في استطاعة أساتذة الفلسفة أن يفعلوا مثل سقراط .. أو مثل أرسطو .. فكلاهما يتكلم ماشيا على قدميه : ثم هو يهز الطلبة بالتساؤل .. ويهز عقولهم بتصحيحها والتشكيك فيها . وتشجيعها أيضا .. ثم تقديم معلومات ونظريات جديدة .. إنه يستخرجها من عقولهم .. كما تستخرج « المولدة » المولود من بطن أمه .. وهي تطلب منها أن تساعدها بالصراخ .. لعل صرخة عالية تقذف بالطفل إلى الخارج .. وكان سقراط يقول : إنني مثل والدتي .. هي تستخرج المولود من بطن أمه .. وأنا استخرج المعاني الوليدة من عقول الناس ..

لم يعد أحد من الأساتذة في أي علم قادرا على أن يكون سقراط . ولا نحن قادرون على ان نكون تلاميذه نتمشى في شوارع الجيزة أو بين الكليات .. ولا الفلسفة هي المادة الوحيدة التي ندرسها ليلا ونهارا . ولا أن مشكلتنا الوحيدة هي الفلسفة .. وإنما المسكن والمأكل والمواصلات والأسرة والمستقبل .. وصعوبات ومخاوف وأوهام وخرافات أخرى لا نهاية لها .

ولو ظهر سقراط فجأة في بولاق التكرور ورأى هؤلاء الناس الطيبين ينظرون إلى الأرض دون ضيق من الطين والوحل والذباب وإلى السماء في سعادة ، لكسر الأحجار فوق أدمغتهم وحشرهم في البراميل التي يجلسون عليها ودحرجها في النيل . فهم نماذج لما لا يحب ولمن لا يحب .. للعقول التي لا تعرف القلق ، والنفوس التي لا تعرف العذاب ، والقلوب التي لا تعرف الشقاء .

إنهم لم يتذوقوا لظى الفكر الملتهب ، ولم يبهرهم ضياء المعرفة ، ولم تخفهم الهوة السحيقة التي تفصل بين العلم والجهل .. فإن لم يكن سقراط حاقدا على هؤلاء الناس ، فسوف يلقى هو بنفسه في النيل قتيلا أمام هذه السعادة في الإيمان ، والرضا بالقليل ، والأمل في الحياة ، واليقين من النجاة ..



كأنها نهاية العالم

كأنها نهاية العالم

جلسنا نحن الثلاثة ..

أنا قلت : هل هناك معنى لهذه الحياة . جوابى : لا معنى ! هل هناك هدف من هذه الحياة ؟ الجواب : لا هدف .. هل هذه الحياة تساوى هذا العذاب .. هذا العناء .. هذا الهوان .. هذا الذل .. هذا الشعور دائما بأننا تافهون جهلاء .. وأنه لا وقت لأن نعرف .. فإذا عرفنا فما قيمة هذا الذى عرفناه .. ثم ما الذى نعرف . أن الأرض أصلها من مادة .. والمادة لا شكل لها .. وأن الله هو الذى شكل هذه المادة .. ثم فلاسفة يقولون بل مادتان .. وآخرون يقولون : بل ثلاث .. وغيرهم يقولون : أربع .. وخمسون يقولون بل أصل الكون ذرات صغيرة .. وكل ذرة روح .. وكل روح فى داخلها برنامج .. فى داخلها عقل الكترونى يقول لها : انضمى إلى هذه المادة .. ادخلى فى حلف معها .. فى عداء .. فى صداقة .. فى عناق .. أو هذا الحيوان المنوى ينفرد بهذه البويضة .. ليكون إنسانا .. أنا وأنت .. ليكن . ما المعنى ؟ ما الفائدة .. ما الحكمة .. لا حكمة نحن فقط نحاول أن نجعل لحياتنا معنى .. أن نجعل لوجودنا أهمية .. قيمة .. مثلا مثلا .. نحن نجيء الى هذا البقال كل يوم .. هل هناك هدف ؟ أبدا .. هل هناك معنى ؟ لا معنى .. ولكن إحساسنا بتفاهة المشوار وعيافة الحديث ، نحاول أن نجعل لأنفسنا قيمة أو ضرورة .. فنحدثه عن الذى سمعناه فى الجوامع وفى جمعية الإخوان المسلمين .. بل أحيانا نحدثه عن الذى قاله الأساتذة فى المحاضرات .. ونحاول أن نجعل كل شيء مفهوما له ومضحكا أيضاً حتى اعتاد الرجل أن يسألنا .. إنه هو أيضاً يريد أن يهون علينا هذا الوضع التافه .. نحن اعتدنا أن نقول ، وهو اعتاد أن يسأل . اتفقنا على أن نجمع له الحكايات وهو ينتظرها وأثناء ذلك يجيء الشاى بالنعناع ونحصل على كراريس المحاضرات بالتقسيط .. هل تظن أنه إذا لم يكن عنده

شاى بالنعناع ، وإذا لم يكن يقبل تقسيط الكراريس ، هل كنا نذهب إليه ونحدثه .. أبدا .. فالرجل جاهل وصحته عليلة وهو يبعث على الحزن والأسى .. والمكان قذر والزبالة والوحل والذباب .. ثم إننا جالسون على قوالب الطوب وعلى مقاعد مكسرة .. والرجل ليس أحسن حالا من بقية أصدقائه الذين جاءوا لأنهم يريدون ذلك .. ولأنهم مرتبطون به عائليا وتجاريا .. ثم إنهم يتدارسون فى حدود ضيقة ، آيات القرآن الكريم والأحاديث .. أكثر من ذلك .. أننا رأينا ثلاثا من بناته .. البنات جميلات .. طالبات مثلنا .. ونتمنى أن يكون بيننا حديث هنا أو حتى فى الجامعة .. لم نتمكن من ذلك إلا لحظات .. ولكننا نريد .. وأنت شخصيا لم تمانع فى الزواج من واحدة منهن .. بل انك اقترحت أن نتزوج نحن الفتيات الثلاث .. ألم يحدث ذلك ؟

قال الثانى : عندنا فى « التلمود » وهو كتاب اليهود الأعظم أن الأسكندر زار أحد الملوك . فأجلسه الملك إلى جواره . وجاء رجلان يتشاجران ويحتكمان للملك . قال الرجل : يا جلالة الملك أنا اشتريت منه بيتا . وفجأة وجدت تحت البيت كنزا فذهبت إليه أرد له الكنز .. لأننى اشتريت البيت فقط .. ولم اشتر الكنز .. وقال الرجل الثانى : أنا بعت له البيت . بما فيه .. بما تحته وما فوقه .. ولذلك فأنا لا أستحق هذا الكنز ...

وضحك الملك : هل لك ولد ؟

قال أحد الرجلين : نعم ..

وسأل الملك الرجل الثانى : هل لك بنت ؟

قال الرجل : نعم ..

قال الملك : إذن ليتزوج الولد والبنت ، فيكون الكنز من نصيبهما !

أما الإسكندر فقال : القانون عندنا أن من يجد كنزا فى أى مكان فهو من نصيب الملك !

فقال الملك للإسكندر : هل تشرق الشمس فى بلادك .. هل تنزل الأمطار ؟

أجاب الإسكندر : نعم .

وسأله الملك : وهل عندكم حيوانات ؟ أجاب الإسكندر : نعم ..

وسأله الملك : إذن هذه الشمس وهذه الأمطار تنبت الزرع لتأكله الحيوانات

عشة .. وليس ليأكله الملك الظالم !

معنى يا إخواني : أن هذه الحياة لنا .. يجب أن نعيش ، ونحن البسطاء ... ، أعظم من كل العظماء .. أعظم من هؤلاء الفلاسفة الذين عذبوكم ونفروكم ..

عندنا في التلمود أن الملك سليمان مد يده إلى الأرض فالتقط نملة ، وتركها في باطن كفه وسمعها تقول له : أنا أعظم منك ! فسألها : كيف ؟ فأجابت : لأن الله بعثك أنت لكي اجلس أنا على كفك !

... يعني ، ويجب ألا يهمني من أين جاءت هذه الدنيا .. ولا أين تنتهي .. يهم أنني هنا ، وأنني حي ويجب أن أعيش حتى نهايتي .. ولا أتعجل نهايتي .. ولا أفسد الطريق إليها ..

هذه هي الدنيا .. هذه هي الحياة .. ولا تسأل نفسك : وما الدنيا ؟ وما الحياة !

عندنا في التلمود أن مدرسا كان يقول لتلميذ صغير : قل ورائي .. ألف .. فرد التلميذ : وكيف أعرف أن هذه ألف ؟

فأمسك المدرس : أذنه وراح يضغط عليها بعنف والتلميذ يصرخ ويقول : ... .. فسأله المدرس : وكيف عرفت أنها أذن ؟ فأجاب التلميذ : الناس يقولون ذلك .

وكان رد المدرس وكذلك يقول الناس أن هذه : ألف !

إن فلاسفتكم يتفننون في صناعة الفوازير المعقدة .. وهم يعرفون حلولها مقدما .. ولكنهم يخفون هذه الحلول ليطاردهم الناس يسألونهم عن المعنى وعن الحكمة .. هذا لا يعنيني .. هذه حياتي . انتهى .. نحن أحياء .. انتهى ..

عندنا في التلمود : أن طالبا سأل مدرسا : كيف أفرق بين لبن البقرة السوداء من لبن البقرة البيضاء ..

فأجابه المدرس : عندما تستطيع أن تفرق بين البيضة التي تضعها الدجاجة البيضاء والبيضة التي تضعها الدجاجة السوداء ..

هذه بيضة انتهى !

وعندنا في « التلمود » فوازير كثيرة مثلا : أن رجلا ألقى بيضة فأغرق ستين مدينة .. وأن سيدة مصرية أنجبت ٦٠٠ ألف نسمة ..

حل الفزورة الأولى : أن رجلا كسر بيضة فوق ورقة مكتوب عليها اسم ستين مدينة ..

حل الفزورة الثانية : أن السيدة هي أم موسى عليه السلام : أنه مكتوب عندنا في التلمود أن موسى يساوى الشعب اليهودى كله !

باختصار شديد أتمنى أن اكتب كل الذى قلته الآن فى ورقة وأرمى الورقة في الزبالة .. أو أدفنها في باطن الأرض في احتفال مهيب يليق بصداقتنا وأخوتنا ومحبتنا وحرصنا على أن نعيش معا ونموت معا حتى نستريح من وجع الدماغ ونتفرغ للحياة !

قال ثالثنا : أمى مريضة جدا .. شفاها الله .. وهى عندما تفيق من الدوخة تدعو لنا بالنجاح .. وقد تعلمت منها شيئا أشكرها عليه .. فهى ليست لديها قدرة على التركيز .. ولذلك فأنا أحكى لها الحكاية الواحدة عدة مرات .. وإذا حاولت أن أتوقف لأنها غير قادرة على متابعتى ، فإنها تلح في أن أقول .. وقد تعلمت منها أن « أسرح » إذا جلست إليها .. لأنه لا معنى لأن أقول ، فهى في حالة غياب مستمر .. ان قدرتها على الفهم ، تشبه أصابع اليد العاجزة عن الاحتفاظ بأى شىء .. فلا هى قادرة على الفهم ، ولا من الضرورى أن أقول لها أى شىء .. ونحن إذا جلسنا معا .. هى تنظر ناحيتى ولا ترانى ، وتصغى ولا تسمع وأنا اتظاهر بأن أقول ، ولكنى لا أقول .. وأتظاهر بأن أسمع ، ولا أسمع وبمنتهى الصراحة أنا لم أسمع شيئا من كل الذى دار بينكما .. ولست اسفا على ذلك .. فقد عرفت الخلاف بينكما منذ سنوات .. ولكن الذى يهمنى جدا أننا أصدقاء رغم هذا الخلاف .. وهذه هى الحياة .. أننا سواء كنا راضين عنها أو ساخطين ، فنحن ما نزال أحياء .. والشىء الوحيد الذى يجعلنى أحتمل هذه الحياة ، أن عندى أملا فى أنها سوف تكون أفضل .. هذا ما كان يقوله أبى ، يرحمه الله .. وقد بدأ حياته صغيرا جدا .. ولكن بالإصرار والشجاعة والتضحية صار أكبر وأغنى ، واتسعت حياته وتألقت .. وكان عنده أمل فى أن يكون أفضل دائما .. وقد ورثت منه ذلك ، كما ورثت تعصبه الدينى .. والمسيح هو الذى علمنا : اقرعوا يفتح لكم .. أى أن الإنسان يجب أن يدق

الباب .. وأن يدق .. فسوف يجد أحدا يفتح .. عن رغبة أو عن رهبة أو عن ضيق .. ولكن لابد أن ينفتح الباب .. ومن ورائه باب ثان وثالث .. ولا شيء يدل على أن حاسة الشم عندك أنت قوية إلا رفضك لهذه المنطقة الكريهة الرائحة .. ثم تصورك أن الدنيا كلها كذلك .. ولا شيء يدل على أن حاستى الشم والنظر عندك أنت ضيقتان إلا عدم إحساسك بقبح هذا المكان وبشاعة لونه ورائحته .. ولو أحسست مثلنا ، لكرهت الدنيا كلها .. ولكنك تقبل الدنيا كما هى .. وتريدنا كذلك !

ونهضنا فجأة فقد مرت سيارة ملاكى بسرعة .. وقذفت بالماء والطين علينا جميعا . ونظر إلينا السائق ولم يعتذر . ومعه حق .. فما الذى يتوقعه أناس جلسوا على حافة بركة فى شارع مليء بالحركة ؟

وكأن الماء والطين كرباج لسعنا .. فابتعدنا ..

وعندنا اقتناع صامت بأن الذى أصاب ملابسنا ، ليس أسوأ من الذى اصاب نفوسنا ..

قال أحدنا : الماء والصابون يغسل ملابسنا ، ولكن الذى هنا (وأشار إلى رأسه) والذى هنا (وأشار الى قلبه) والذى هنا (وأشار إلى يديه) ما الذى يغسله ؟

نحن الآن فى أواخر سنة ١٩٤٥ وليست فى حياتنا أحداث هامة .. فالحياة ليس لها طول ولا عرض ولا وزن .. تذكرت ما كتبه الأستاذ العقاد عن أيامه فى السجن .. فكان يقول أنها أحيانا تكون في وزن الحجارة .. وأحيانا تكون ترابا فى حاجة إلى كنس .. ولكنها تمر به أو يمر بها .. ولكن أيامنا نعرفها بكثرة السؤال : اليوم ماذا ؟ فيقال : الأربعاء .. اليوم ماذا ؟ فيقال : السابع عشر .. أليس اليوم ١٩ ؟ فيقال : لا .. بل خمسة وعشرون من شهر ماذا ؟ فيقال : من شوال .. أو نوفمبر .. أو برمهات ..

مات لنا مدرس .. ومن بعده مات عم درويش أهم شخصية فى بوفيه الكلية .. وهو الرجل الذى يعطى بحساب .. ولكن الحساب يتأخر سداده شهرا بعد شهر ..إنه شخصية محورية فى حياتنا .. تبدأ به اليوم بابتسامة مبالغ فيها جدا . فيدرك أنه لا يوجد معنا فلوس .. فاذا دفع واحد منا اندهش الرجل وراح

ينتظر أبي ملابسه .. لعله يعرف إن كان قد باع قميصا أو بنطلونا .. ولكنه رجل حنون .. أخ .. أب .. يرحمه الله .. بكيت عليه كثيرا وعملنا جميعا بدفع ما علينا لأولاده .. ومات الشيخ أحمد الأمير . أحد جماعة الإخوان المسلمين وكان صاحب المكتبة المفتوحة .. نأخذ منها ما نشاء المهم أن نعود بالكتب نظيفة وفي موقعها . وكانت المكتبة ذات باب مستقل . وكثيرا ما دخلنا وخرجنا دون أن يدري بنا ..

وماتت إحدى قريباتي . وكنت أجد فيها شبها غريبا لأكثر ملامح وجهي .. أنا أقول : وجهها وصوتها .. والآخرون يقولون : بل العينان والأنف والشفتان .. مع أن القرابة كانت من الدرجة الثالثة .. وكنت أحب أن أراها وكأنني أنظر في المرآة . ولكن كان هناك ما هو أكثر من ذلك . فهي طالبة في كلية الطب . وفي إحدى المرات سمعتها تقول : نتزوج عندما نكبر .. أنت مهندس زراعي .. عندك الأرض وأنا أقيم مستشفى ونعيش في المنصورة ..

وكانت مفاجأة : أنها تتكلم عن الزواج ونحن ما نزال طلبة . وهي التي ترى أن أدخل كلية الزراعة بعد أن أتخرج في كلية الآداب .. على أن تبقى هي في كلية الطب .. شيء غريب .. حاولت أن أفهم ما الذي تقصده .. هل كان من رأيها أن أترك كلية الآداب وأدخل كلية الزراعة .. أو هل أدخل كلية الزراعة بعد ذلك . حتى نتخرج في الجامعة معا هي طبيبة وأنا مهندس زراعي ..

وقد هزني كلامها .. كلام غريب جديد .. واندهشت كيف أنها هكذا واثقة من نفسها ومني . بينما أنا لست واثقا من شيء أو من أحد .. أدهشني جدا أن يكون لديها هذا اليقين . ووجدت أن هذه صفة من صفات الذين يملكون .. يملكون الأرض أو البيت أو المال . وأن صفاتي قد جاءت من أنني من المعدمين .. ليس في يدي شيء . ولا تحت قدمي شيء . ولا في نفسي ولا في عقلي ولا في دنياي .. لا أنا في الدنيا . ولا الدنيا لها أثر في أعماقي فحياتي هي الريح وعالمي هو البلاط .. ولا شيء تأخذه الريح من البلاط .. أنا هذه الصورة من صور العدم !

وماتت أحب خالاتي .. وأجملهن وألطفهن .. هل لأنها تحبني كابنتها . أو تحبني لأنني ابنها . كما تقول .. هل لأنه لم يعد لديها أولاد .. ماتوا جميعا . وكانت تقول لي : أنت كل أولادي .. تعال وعش معي .. ولك كل ما عندي ..

وكان عندها مال وأرض ومجوهرات .. وعندها ما هو أجمل من كل ذلك : وجهها .. أجمل الوجوه التى رأيتها ، وصوتها أجمل من وجهها .. أما قلبها فهو أجمل وأكرم وأصدق من كل القلوب ..

رحت أزور المدرسة التى تعلمت فيها وأرى أساتذتى . لم أجدها . احترقت وانهارت بعضها فوق بعض .. انتقل والدى إلى « العوامة » ليجد رعاية أكثر من إخوتى .. بقيت أمى وحدها فى البيت ، أشد مرضا . قررت ألا آكل فى البيت حتى لا تضطر والدتى أن تتحرك من فراشها . وسألتنى فى دهشة بالغة : ولكن لماذا ياولدى .

فقلت : إن الجامعة قد جعلت من حق الطلبة المتفوقين أن يفطروا ويتغدوا ويتعشوا على حسابها ..

ولم تقتنع والدتى .. ولكن هذا قرار .

وفى يوم جاءنى صاحب البيت يسألنى : قولى ياسيدنا الأفندى .. ولماذا لا تعمل فى الجيش الانجليزى ..

ـ أعمل ماذا ؟

ـ أى شىء ..

ـ مثلا ..

ـ فى الورش ..

ـ ولكنى ..

ـ أنا كنت مثلك لا أعرف أى شىء ولكنهم علمونى اللحام بالأكسجين .. وعلمونى الفك والربط .. والآن كما ترى الحمد لله .. الأشيا معدن .. ثم أن هناك كثيرا من طلبة الجامعة يعملون أيضا .. ما رأيك ؟

قلت : دعنى أفكر .

قال : إذن أنت لا تريد أن تعمل .. لأن هذه مسائل لا تحتاج إلى تفكير .. والعمل ليس عيبا .. أول شىء .. أنه سوف يمكنك من أن تترك هذا البيت ، تعيش فى بيت أفضل .. مادام أقاربك الذين يملكون البيوت الحلوة فى الزمالك وفى الأزهر والحسينية لم يضعوا فى عيونهم حصوة ملح ويعطوك شقة .. أنا أرى أن هذا أفضل وأكرم . ماذا تقول ؟

وبعدها بأيام جاءنى صاحب البيت يقول : أريد أن أعرفك بشخص موجود عندنا .. تعال ..

وصاحب البيت كان يسكن فى الدور العلوى . مفاجأة : إنه ضابط فى الجيش الانجليزى .. ويتكلم العربية . وقد أقام له الرجل وليمة : الدجاج المحمر وعلى ترابيزة أخرى بطيخة . وكان الرجل لطيفا وابن نكته . تكلمنا بالانجليزية .. ثم فضلنا اللغة العربية حتى يشاركنا صاحب البيت فى الحوار .

وبادرنى بقوله : إن بعض أصدقائك يعملون معنا فى العباسية ..

ثم ذكر لى أسماء أربعة من الأصدقاء .. وقد فهمت لماذا لم أعد أراهم .. فى معظم أيام الأسبوع . وإذا ذهبت اسأل عنهم قيل لى : سافروا .. خرجوا .. نائمون ..

ولكن أحدا منهم لم يذكر شيئا من ذلك . فلا يزال العمل مع الانجليز مما يخجل منه المواطن المصرى .. أو المثقف .. أو الطالب الجامعى .. فهم يعملون عملا شريفا لا علاقة له بالسياسة .. أو لا علاقة له بالاحتلال البريطانى لمصر .. فالانجليز موجودون .. ولن يطيل أو يقصر أعمارهم ، أن يعاونهم أحد من العمال والفلاحين أو المثقفين ..

ولكنى لست فى حاجة إلى عمل .. فأنا لا أريد أكثر من القليل الذى أملكه من أى شىء ..

وكان عندى كلب مات .. وحزنت عليه . ولا أعرف بالضبط ما الذى أحزننى .. كان هذا الكلب يشم رائحتى قبل أن أصل إلى البيت بوقت طويل .. وكنت أطلق صفارة مستوحاة من موسيقى الموسيقار الروسى بورودين .. من مقطوعة « الراعى » .. فإذا سمعه الكلب راح ينبح ويعوى .. وقد عدلت عن ذلك لأنه يزعج والدتى .. ثم إننى كنت أعود إلى البيت من شوارع عكس اتجاه الريح حتى لا يشم الكلب رائحتى وينبح ويزعج والدتى .. مات .. وكان كل الذى يربطنى به هو الترحيب من بعيد ومن قريب .. ثم أنه يجىء ويتمدد عند قدمى .. فإذا نمت كان عند قدمى .. وأحيانا عند رأسى .. وكان يستغرق فى النوم وله تشخير .. وكان يوقظنى فكنت اترك له السرير وأروح أنام فى غرفة أخرى .. مات وافتقدته أصابعى . وفكرت فى أن آتى بكلب آخر .. ولكن لم

حد .. ولم أجد نفسي تطاوعني أن استبدل به كلبا آخر .. فهو لم يكن كلبا ، وإنما هو صديق زميل .. أحد أفراد الأسرة !

وفي يوم وجدت أمام سريري ثعبانا ميتا كيف ؟ لا أعرف . وقد تكاثر عليه النمل ينهشه ويحوله إلى مسحوق .. هل وقع من السقف .. هل مات وسحبوه إلى داخل الغرفة .. هل هي نهاية معركة بين الثعبان وبين القطط .. ممكن . فقد اختفى رأس الثعبان ، لقد ابتلعته إحدى القطط .. مات ..

وسمعت من والدتي أنها أحست بمعركة صامتة بين القطط .. ولكن لم تسمع عن الشجار التقليدي . معركة القطط مع الثعبان !

ونسيت كراسة إحدى الزميلات في الترام .. وتضايقت جدا . وكان لابد أن آتي بكراسة أخرى .. أي لابد أن أعيد نقل كل المحاضرات .. بخط واضح ، ثم أقدمها لها في أقرب وقت مع الاعتذار الذي أرجو أن يكون مقبولا ..

وفي الليل اصطدمت بشيء على منضدة بين الغرف وتحطمت كل الأكواب والأطباق .. وانزعجت وتشاءمت .. وأحسست كأنني في نهاية العالم .. فالناس والكلاب والأشياءحولي تتحطم .. وتختفي .. والأصدقاء يختفون ويتباعدون . ووجدتني اتمشى وحدي بين الكيت كات في امبابه وكازينو الحمام في الجيزة .. وحدي تماما . ولا أعرف كم استغرق من الوقت .. وأمام مستشفى العجوزة هبط إلى « العوامة » التي يملكها واحد من إخوتي وينام فيها أبي مريضا .. ولا أعرف ماذا أقول .. ولا هو في حاجة إلى أن يقول .. إنني حزين وهو مريض وحزين أيضا .. وكثيرا ما أحسست أنني لا أتمشى ، وإنما أنا أمشي في جنازة كل المعاني وكل الناس واليوم والغد .. وحدي .

وأدهشني أنني في بعض الأحيان إذا وجدت جنازة في الطريق ، انضممت إلى المشيعين ورحت أبكي . إنها رغبتي في البكاء ! إنني لا أبكي أحدا . وإنما أبكي ذنوب .. أعتصر عيني وأعتصر قلبي وعقلي .. إنها الرغبة في التفريج عن النفس ..

وعندما أزداد حزنا وهمّا وغما وقرفا من الدنيا ، فإنني أبحث عن صديق لا يكف عن الضحك . ولا أعرف كيف . بيته يبعد عن بيتنا عشرات الأمتار .. ولكني أشعر أن المسافة بيننا أكبر وأطول وأعرض وأعمق من هذا

بكثير .. من أين يأتي بخفة الدم والنظر إلى الجوانب المضحكة أو الهزلية من كل شيء ؟

وفي إحدى المرات كنا نصلي في مسجد سيدى اسماعيل الإمبابي . فوجدته خرج من الصلاة بسرعة وقد لمحت الضحك على وجهه . وبعد الصلاة وجدته يتساقط من الضحك . وسألته قال : إنه اشترى بعض السمك المقلي ووضعه إلى جوار المنبر بالقرب من إمام المسجد .. وتذكرت أن الإمام يخاف من القطط . وأنه لا يستبعد أن تجيء قطة تبحث عن السمك .. وخشي أن يضحك بصوت عال إذا جاءت القطط وهرب الإمام !

ومضى يضحك ..

ووالدته تدعونا إلى الغداء والعشاء وتحرص على ذلك وهي سيدة لطيفة كريمة . وهي عندما تسألنا عن أحوالنا ، فإنما تعني ذلك .. وهي تعرف كل شيء عن أصدقاء ابنها .. وهي قد ذهبت إلى بيوتنا جميعا وهي سيدة قوية اختارت له أصدقاءه هكذا :

فلان هذا أحب أن تعرفه . فهو مثقف وعلى خلق . وهو يحبك .. وفلان هذا ليس مثقفا ولكنه متدين نظيف .. وهو يحبك .. وفلان هذا من أسرة كريمة . وله أخوات بنات . ولذلك فهو لا يستطيع أن يؤذى بنات الناس . وهو يحبك .. وفلان هذا عينه مليانة وأمه لا ترفع عينها عنه وعن أخته .. وهي سيدة كاملة وقد رأيتها تربي أولادها بحزم . والكلمة كلمتها . وأعجبني أن أولادها يقبلون يديها وأحيانا يديها ورأسها . وهي تصر على أن يفعلوا ذلك . هي سعيدة . وهم سعداء ..

وفي أعياد ميلاد أولادها كان لابد من عمل المسابقات التي تنتهي بأن يفوز كل الأصدقاء . هذا ببنطلون وذاك بقميص وثالث بمبلغ من المال ورابع بزجاجة دواء وكانت من نصيبي . وعرفت أنها زارت والدتي . وعرفت حاجتها إلى هذا الدواء ..

وكانت هذه السيدة ، مستورة ، أو هي غنية جدا .. وكريمة جدا .. وكانت أما لنا جميعا . وكانت تحب أن نناديها بكلمة يا ماما .. وكانت تقول : أنا أم لكل أصدقاء أولادى !

ووجدنا أنها أكثر مرحا من كل أولادها ..

وكانت تضحك وتقول : أنا كنت أريد ابنا هو خليط منك أنت ومن ابنى .. بعض العقل وبعض الهزل !

وفى مذكراتى كتبت :

نحن إذن فى نهاية العام .. انتهت الحرب .. وبدأت تصفيات الحسابات .. ألمانيا استسلمت .. الأمريكان فجروا أول قنبلة ذرية فى الصحراء .. وعرفوا الطاقة التى تنطلق من النواة إذا انشطرت . نجحت التجربة . وأسقطوا أول قنبلة ذرية يوم ٦ أغسطس على هيروشيما .. وقنبلة أخرى يوم ١٣ أغسطس على نجازاكى .. واستسلمت اليابان بعد ذلك بأيام ..

الإيطاليون أعدموا موسولينى .. وبعدها بيومين انتحر هتلر وزوجته ايفا براون .. والفرنسيون أعدموا رئيس وزرائهم لافال الذى كان عميلاً لهتلر .. وحكموا بالموت على قائدهم الجنرال بيتان ، ثم اكتفوا بسجنه مدى الحياة ..

ومات روزفلت ..

والنرويج أعدمت الخائن الأول كويزلنج .

والمصريون قتلوا أحمد ماهر رئيس الوزراء ..

وبدأت محاكمات نورنبرج ـ محاكمة القادة النازيين ..

ومات فى هذه الحرب أكثر من ثلاثين مليون نسمة !

وفرقعت فى أوروبا وأمريكا والقارات الأخرى ملايين زجاجات الشمبانيا ابتهاجا بيوم النصر : ٨ مايو سنة ١٩٤٥ ..

ومات الأديب الفرنسى بول فاليرى .

والأديب النمساوى فرانس فرفل .

والفليسوف الألمانى كاسيرر .

والموسيقار الايطالى ماسكانى .

وأصبح تيتو رئيسا ليوغوسلافيا .. وديجول رئيسا لفرنسا .. وطالبت المنظمات اليهودية بضرورة هجرة مليون يهودى إلى فلسطين .. وأعلنت الدول العربية أنها سوف تحارب إذا قامت لليهود دولة . وتأسست الجامعة العربية ، لمواجهة ذلك ..

وتأسست الأمم المتحدة ، عندما وافقت ٢٩ دولة على ميثاقها ..

واكتشف الأطباء : فيتامين أ ..

وأعلنت بريطانيا عن اختراعها العظيم : الرادار ..

واكتشفت أن الزميلة « س م » تحب زميلا غيرى . رأيتها بعينى .. حتى أنت يا .. لكن لم أقل لها شيئا ، ولا هى قالت .. ولا دار بيننا حوار .. ولا صلة .. ولا علاقة .. ولكن إحساسى ، بأن واحدا آخر كان أسرع .. كان أذكى .. انتهز الفرصة .. وصل .. لا أشعر بالحقد عليه ، ولكن عندى الشعور بالخيبة . رغم أننى لم أحاول . شىء مضحك : فلا أنا أحببتها ولا قادر على ذلك ..فالحب ترف .. فالحب كامتلاك سيارة وفيلا وأن يكون فى جيبى مائة جنيه .. كل ذلك ترف .. سابق لأوانه وقد لا يكون له أوان .. ومع ذلك تضايقت وحزنت .. وعلى الرغم من أننى أسخر من نفسى ، ولكن أجد شيئا يوجعنى .. هنا أو هنا .. لا أعرف كيف أحدد مكان الألم ..

حتى ابنة بائع اللب فى امبابة ، لم تعد تكلمنى .. ولم أفهم .. ولكن عرفت أنها شكت لوالدها أننى أحيانا أنظر لها نظرات آثمة .. والحقيقة أننى « أسرح » وتكون نظرتى فى أى اتجاه .. وعلى أى شىء .. ولو عرفت هى ماذا فى داخلى ، ما خطر على بالها شىء .. فأنا لست « هنا » ولا « هناك » .. أنا حائر بين كل الأشياء والناس والمعانى ..

وفى الناس قسوة .. انظر فى عيونهم . إنهم أقسى وأعنف وأكثر شراسة مما تتصور .. رأيت ذلك عند الغضب وعند الحسد . وعند النجاح ..

ولكن أقسى ما صادفنى يوم كنا نصلى فى مسجد سيدنا الحسين ، ولأول مرة . وكنا وراء الإمام ، وإذا برجل عجوز يمسكنى من ملابسى ويطلب منى أن أخـــــرج فـــــورا مـــــن المسجـــــد .. سألنـــــى :

الرجل : أنت شارب !

قلت : ماذا ؟

قال : هل شربت ؟

قلت : عصير قصب ؟

قال : بل خمر ..

قلت : أعوذ بالله .. عصير قصب وهؤلاء أيضا .

وأشرت إلى زملائي ..

واقترب الرجل من أفواهنا وراح يشمها ويقطع بأنها خمر ثم يلتفت إلى الناس كأنه يريد رأيا عاما .. وأخرج أحد الأصدقاء زجاجة صغيرة بها عصير قصب كان قد أخفاها في جيب البالطو ..

واعتذر الرجل .. وخرجنا من المسجد دون صلاة .. آه لو رأيت ما في عيون الناس .. وما في عيني هذا الرجل .. منتهى الوحشية .. !

وسألنا المرشد العام الشيخ حسن البنا . فقال : إن بعض الظن إثم .. وهو لا شك رجل آثم .. وعذره مقبول إن شاء الله !

ولم نسترح إلى ذلك ..

وقال صديقنا الذي لا يكف عن الضحك : أحمدوا ربنا .. لو كنت مكانه ضربتكم جميعا بالجزمة وأطلقت عليكم الناس .. ثم اعتذرت لكم بعد ذلك .. لأنني ضربتكم بالجزمة .. في سبيل الله !

● ● ●

وفي الليل التف حولي الأصدقاء جادين وقالوا لي : لابد أن نتقاضى أجرا .. لابد .. كلهم يفعلون ذلك !

قلت : ولكن نفرض أن الصوت لم يعجبهم .

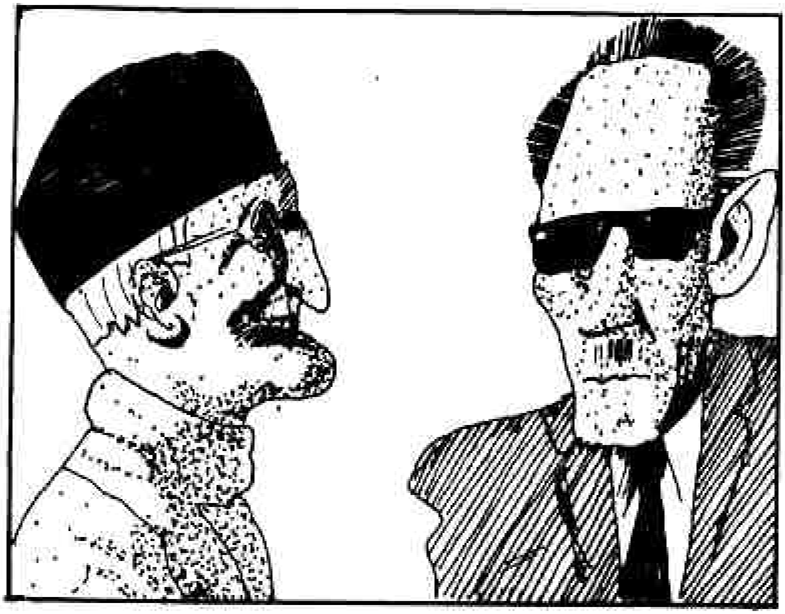
ـ لا .. صوتك حلو .. لابد أن نتقاضى أجرا ..

وذهبنا إلى حلاق واحد . وارتدينا القمصان والبنطلونات النظيفة . وتعطرنا .. وسرنا على أقدامنا من امبابة إلى مصر الجديدة .. وظللنا نبحث عن العنوان حتى قرب منتصف الليل .. ولما يئسنا قررنا أن نجلس على الرصيف ونغني لأنفسنا .. وفجأة اكتشف أحدنا أن العنوان قد نسيه في جيبه ..

ولم يكن البيت بعيدا .

ومرت الليلة بسلام ..

قال أحد الأصدقاء : لم تسألني إن كانوا قد دفعوا أجرا .. لقد دفعوا فعلا . وها هو الأجر في مظروف مقفول .. حلال عليك ياعم !



ولا هذا ولا ذاك .. أو الإثنان معاً

ولا هذا ولا ذاك .. أو الاثنان معًا

كل الناس يتكلمون .. ويتحمسون .. ولكن أحدا منهم لا يتحدث معى .. وأنا أشارك في كل القضايا .. ولا أعرف على أى أساس أفعل ذلك . فأنا لا أتابع كل الأحداث السياسية والإقتصادية والأدبية . ولكن يبدو أنه من الضرورى أن أشارك بكلمة .. أو بعبارة .. أو محاولة إنهاء المناقشة .. ولا أدرى بالضبط ما هى القضية .. ولكن الشىء المؤكد هو أن القليل جدا من الذى أسمعه وأشارك فيه ، يبقى فى رأسى ..

وأنا أعترف بأننى لم يكن لى أى اهتمام بالسياسة من أى نوع .. ولذلك لم أكن أقرأ الصحف بانتظام . أو حتى أفكر فى قراءتها .. ما الذى كان يشغلنى فى ذلك الوقت ؟ هو كل ما يشغل الطالب المهموم الذى لا يعرف له وجهة أو طريقا أو غاية .. ولم تكن عندى إجابة من قبل هذا السؤال : وبعد ؟

أى بعد التخرج فى نهاية هذا العام سنة ١٩٤٧ : ما الذى سوف تفعله ؟ ماذا تريد ؟ لابد أن تكون لديك فكرة واضحة . هذا هو السؤال الذى أسمعه من كثيرين مع الضغط الشديد على كلمة « واضحة » . وهى الكلمة الوحيدة التى لا أجد لها معنى عندى .. فليس عندى شىء واضح فى أى مجال لا فى الدين ولا الفلسفة ولا فى نفسى ولا فى العلاقات التى بيننا ..

ورغم ذلك فالوضوح مطلوب دائما .. أى مطلوب أن أقول : ما الذى أريد أن أعمله بعد الليسانس ؟ هل أكمل دراستى وأحصل على الماجستير والدكتوراه وأكون مدرسا فى الجامعة ؟ إن بعض أساتذتى قد أكدوا لى ذلك .. ولكن هل أستطيع أن أظل طالبا خمس سنوات أخرى ؟ ماذا لو مات أبى ؟ ماذا لو عجز عن العمل وظل مريضا وأمى كذلك .. ماذا لو طلب منى والدى أن أعمل .. ماذا لو اختصرت كل هذا العذاب وعاودت التفكير فى الانتحار . لقد فعلتها فى

إحدى المرات . وفشلت خطتى فى أن ألقى بنفسى فى النيل .. إننى مهيأ تماما لهذه الفكرة لسبب بسيط : هوأنه لا شىء يساوى .. ولا شىء له معنى .. ولا شىء له هدف .. ولا حكمة لوجودى وللوجود كله .. ولا راحة أراها اليوم أو غدا .

وفى يوم جاء عدد كبير من أصدقاء والدى . وكانت مفاجأة . فليس من المألوف أن يزورنا مثل هذا العدد من الناس مرة واحدة . واعتدت أن أكره نوعين من الضيوف : الأطباء وبقية الناس .. فالأطباء يدخلون ويخرجون ويتركون الأدوية ويأخذون الفلوس والأمل .. وبقية الناس لا داعى لأن تراهم فأنا لا أصدقهم .. أى لا أصدق ما يقولون ثم أنهم يجيئون فى ضيق شديد ليقولوا كلمة أو ليرهقوا والدتى بأن تعد لهم الطعام والشراب وتتظاهر بأنها فى صحة جيدة ووالدى أيضا .

فى ذلك اليوم قالوا : لا شاى ولا قهوة .. نحن قادمون توا من المقهى .. جئنا للسلام والتحية .. تعال اجلس معنا .. تعال .

أحدهم من حزب الوفد .. رجل سياسى أنيق .. وأظنه من أصل تركى .. لا أعرف بالضبط .. فهو أبيض أحمر له لهجة أجنبية فى الكلام .. هو الذى بدأ المناقشة هكذا : وهل نكسب القضية .. سوف نشكو بريطانيا إلى الأمم المتحدة بعد أن قطعنا العلاقات معها .. وسوف نساعد السودان على الحكم الذاتى .. ثم إننا رفضنا تقسيم فلسطين بين العرب واليهود .. ولكن بريطانيا الملعونة هى التى قسمت الهند إلى دولتين .. الهند وبرأسها نهرو وباكستان وبرأسها على خان .. وشجعت منطقة كشمير على الانضمام إلى الهند لتغضب باكستان ..

وقال آخر وهو ناظر مدرسة سابق : يا سيدى هذه حكايات طويلة جدا .. السياسة حبالها طويلة .. وإذا انقطعت فإنها تلتحم من تلقاء نفسها.. وكما أن الانجليز احتلوا مصر ثمانين عاما فسوف نناقشهم فى السياسة مثل هذه المدة وزيادة .. نحن نريد من يفكر لنا فى حل سريع لانعاش البلاد اقتصاديا ..

الأمريكان اخترعوا مشروع مارشال لانقاذ أوروبا من الدمار والخراب .. وهذا المشروع هو احتلال أمريكى لأوروبا إلى جانب الاحتلال العسكرى .. وأنت ما رأيك ؟

إنه يقصدنى .. رأيى ؟ وهل من الممكن أن يكون لى رأى ؟ وهل أنا فاهم كلمة واحدة مما يقولون ؟ لقد ذهبت من باب الاستطلاع أتفرج على مصطفى النحاس باشا وهو يخطب .. وسمعته ورأيته .. فكأنى لا سمعت ولا رأيت .. إننى مشغول بما هو فى رأسى من أفكار غير واضحة .. هذه الأفكار مثل طيور جارحة تتصايح وتتضارب بالمناقير والمخالب .. معركة . ولا أعرف السبب ؟ هى تريد أن تقضى على بعضها البعض .. هل هى تريد أن تحطم رأسى .. وتهرب منها .. أو تحطمها وتنهشها .. ولماذا ؟

وكان لابد أن أقول .. مثلا : لابد أن يخرج الانجليز من مصر بالقوة .. كل الغزاة بالقوة .. وأن تبقى القوة فى أيدينا . حتى إذا خرجوا . لن يعودوا مرة أخرى .

فقيل لى : ولكن نفرض أنهم يريدون أن يخرجوا بالذوق . فهل لابد من اللجوء إلى القوة .

قلت : لا أحد يخرج بالذوق ..

قيل : نفرض أنك تضايقت من وجودنا فهل لابد أن تضربنا لكى نخرج . حتى لو قلنا لك دقيقة واحدة وبعدها سوف نعود إلى المقهى .. فتصر أنت على ضربنا بالجزمة لأن أصواتنا مرتفعة مزعجة لوالديك ..

قلت : ولكنكم لا تحتلون البيت .. أنتم زوار ولستم غزاة ..

- ولكن افرض أنه خطر لنا أن نحتل البيت ..

- بالقوة .. قوتى وقوة الجيران والبوليس .. وحتى الموت !

- شباب .. ما يزال صغيرا ..

قال ثالث وهو طبيب المركز وهو من أقارب والدى وكثير السؤال عنه .. ولكنه من النادر أن يبدى رأيا فى علاجه .. فهو طبيب أسنان ..قال هو الآخر : من كل أحداث هذا العام أعجبنى قرار البرلمان الهندى .. أنه لا منبوذ بعد اليوم .. ففى الهند طائفة من المنبوذين .. لا يقربهم الناس .. بل لابد أن يمشى الواحد منهم على مسافة أمتار من أى مواطن عادى .. ولهم زى خاص .. ولا يحق لهم أن يأكلوا أو يشربوا إلا بعيدا عن بقية الناس .. البرلمان الهندى أصدر قرارا بأنه لا منبوذ بعد اليوم .. الإسلام قرر ذلك من ١٣ قرنا : « إنما المؤمنون إخوة » .. لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى .. الناس سواسية كأسنان المشط ..

- ولكن المسافة كبيرة جدا بين القرار وبين تطبيق الناس لهذا القرار ..

- صحيح .. ولكن القرار قد أصدره مندوبو الشعب للشعب .. ورأوا فى بقاء هذه التفرقة العنصرية إهانة للإنسان ..

- أنا أرى كرجل مشتغل بالعلوم أن أعظم خبر نشرته الصحف هو أن عالما كبيرا اسمه بيكت اكتشف أن كل جسم يدور ـ كالنجوم والكواكب فى السماء ـ يخلق مجالا مغناطيسيا .. بل ليس الأجسام المادية وحدها . وإنما البشر أيضا .. فالإنسان الذى يسافر وينتقل له جاذبية ..له سحر خاص .. والناس يلتفون حوله يسمعونه ويكلمونه .. ونحن نلاحظ أننا كنا نتهافت على عم محمد يقصدون والدى ـ فهو قد رأى الدنيا الواسعة .. وحفظ الشعر والتقى بالشعراء والمطربين والباشوات .. ما رأيك أنت ؟

ولكن لم يكن لى رأى .. وكلما ذكرت لهم أننى سوف أشجع والدى على أن يتحامل ويتساند ليخرج إليهم . منعونى من ذلك . وقالوا : إجلس معنا .. نحن فقط نريد أن يشعر والدك أننا جئنا نسأل عنه .. ولا داعى لأن يرهق نفسه .. إجلس .. ما رأيك ؟

ولا رأى لى .

قال أحدهم : أنا سمعت من والدك أنك تكتب مذاكراتك .. صحيح ؟

قلت : محاولات .

- هل تقرأ لنا ماذا كتبت ؟

- ليست مذكرات .. وإنما هو نوع من تسجيل الأحداث .. ولا أعرف إن كنت سأعود إليها وأكتبها بشكل آخر ..

ومددت يدى إلى إحدى كراريس المحاضرات .. وأخرجت منها بضع ورقات صغيرة وقلت : ليست مذكرات .. إنها رصد للأحداث التى تهمنى أو التى يجب أن أعاود التفكير فيها .. مثلا : ظهرت أخيرا رواية « دكتور فاوستوس » للأديب الألمانى توماس مان .. ظهرت رواية « الطاعون » للأديب الوجودى الفرنسى كامى .. ظهر كتاب « الوجودية » للفيلسوف الايطالى روجيرو .. ظهرت مسرحية « عربة اسمها اللذة » للأديب الأمريكى تنسى وليامز ..ظهرت مذكرات الفتاة . « آن فرانك ». التى نجت من مذابح النازيين لليهود فى هولندا .. اكتشف اليهود « لفائف البحر الميت » فى وادى قمران . وهذه اللفائف تتحدث عن حياة اليهود فى القرن الأول قبل الميلاد .. وفاة أعظم عالم فزيائى فى كل العصور اسمه ماكس بلانك .. وفاة فورد مخترع السيارة المعروفة وترك وراءه ثروة بلغت تسعمائة مليون دولار .. استطاع البحار النرويجى هايردال أن يبحر من بيرو إلى جزر بولينيزيا فى ١٠١ يوم على ظهر زورق خشبى ، فى نفس الطريق الذى سارت فيه الهجرات قبل التاريخ .. ظهور الأطباق الطائرة فى أمريكا .. وفاة الفيلسوف الانجليزى هوايتهد .. وفاة رجل العصابات الأمريكى الإيطالى الأصل آل كابونى .. وفاة المطربة أسمهان ..

- أسمهان .. ولكنها ماتت غرقا فى النيل منذ ثلاث سنوات ..

- ولكنى لم أسمع بهذا النبأ إلا أخيرا .. وحزنت عليها .. ولم أصدق أغنيتها التى تقول فيها : أنا اللى أستاهل كل اللى يجرى لى .. فهى لا تستاهل أن تموت غرقا فى ريعان شبابها ..

وضحكوا ولم يعلقوا على ما قلت ..

ونظر بعضهم إلى بعض .. وكان ذلك علامة على أنهم يريدون أن يخرجوا .. ولما رأوا دهشتى وحيرتى . قال لى أحدهم : إسمع يا إبنى .. إنما يهمنا أن نعرف ما الذى تريد أن تعمله عندما تتخرج فى الجامعة . فنحن فى غاية القلق على صحة والدك .. والأعمار بيد الله .. والحياة رسالة نتلقفها من بعضنا البعض .. وبعضنا يجد نفسه رجلا مسئولا . وهو ما زال طفلا .. أنا بعد وفاة والدى عملت فى التجارة لكى أنفق على إخوتى الصغار ..ثم أكملت

تعليمى .. والحمد لله .. أنت أكملتَ تعليمك .. وربنا ينجحك إن شاء الله تطلع الأول .. وتعمل مدرسا فى الجامعة .. والبركة فيك .. وأبوك وأمك راضيان عنك تماما .. البركة فيك يا إبنى .. وبعضنا يكبر ومع ذلك يظل طفلا يعتمد على والديه .. وهذا نوع محظوظ من الناس .. ولد فوجد الملعقة والشوكة والسكين من الذهب الخالص .. فليس فى حاجة لأن يتعب .. ولكن الرجال تخلقهم المتاعب والمصائب والتحديات .. والرجولة ليست صفة .. وإنما هى فعل متواصل .. وأنت رجل ..

- إذن أنت يا إبنى قررت .. إن شاء الله أن تكون مدرسا فى الجامعة .. مثل ابن عمتك وابن خالك وعمك .. إنها أنبل مهنة فى التاريخ .. إنها مهنة الأنبياء والمرسلين .. وشوقى يقول :

كاد المعلم أن يكون رسولا

إذن على بركة الله يا ولدى وربنا يوفقك !

كأنهم قد جاءوا ليعرفوني .. ولا بد أن والدى أراد أن يعرف ذلك منهم .. ولم يشأ أن يسألنى .. وهو يعرف تماما أنه لو طلب منى أن أكون مدرسا ما ترددت .. أو أن أعمل فى أى مكان لفعلت . هل لأننى هكذا سلبى ؟ هل لأن حبى لوالدى أقوى من أى رغبة عندى .. فالقرار قراره .. هل لأننى وصلت نهاية اليأس من الحياة .. هل معنى ذلك أنه يستوى عندى أن أعمل أولا أعمل .. أن تكون لى إرادة أو لا تكون .. هل هذا الاستسلام عقاب فرضته على نفسى .. كأنى أقول : لقد درست وتفوقت .. ولكن كل الذى

درسته وتفوقت فيه سوف ألقى به فى الزبالة ؟ هل كنت أفضل أن أدرس فى كلية أخرى .. هل تمنيت أن أكون أى شىء آخر ..

فى ذلك العام كتبت مقالا فى مجلة « كلية الآداب » تمنيت أن أكون فيها شجرة على ترعة .. أن أكون شيئا حيا .. لا كائنا عاقلا حيا .. أى أن أكون

بلا إحساس بلا فكر بلا هم بلا غم .. أكون شجرة تنمو وتزهر .. ثم تموت في مكانها .. فلا أب ولا أم ولا أسرة .. ولا إخوة ولا أخوات ولا خالات ولا عمات .. ولا من عاش ولا من مات إذن هذا هو شعورى الحقيقى .. وهذا هو سر رفضى لأن أكون أى شيء .. فأنا لا أريد أن أكون شيئا .. فإن لم أستطع أن أكون شجرة ، فلماذا لا أكون شيئا قريبا من ذلك ..

وعرفت فيما بعد أن الانسان تتسلط عليه مثل هذه الأفكار إذا كان لا يتحدث إلى أحد .. إذا كان لايحاور أحدا .. إذا كانت أضواء الآخرين تنعكس عليه .. إنها أفكارى قد توارت فكانت لها رائحة المرض والموت .. فلا أحد يكلم أحدا ..

فى الجامعة : محاضرات .. أى أن الأستاذ هو الذى يتكلم . ولا حوار بيننا ..

فى المسجد : الخطيب هو الذى يتكلم ولا حوار بعد الصلاة ..

وفى جمعية الإخوان المسلمين : الإخوة الكبار يخطبون وينصحون ومن النادر أن يكون حوار ..

ونحن الطلبة معا : كلنا نتكلم .. وكلنا يسمع ولا يسمع .. فنحن إما شبان جادون ودمهم ثقيل .. وإما شبان بلا متاعب مادية ولا مشاكل عائلية ودمهم خفيف ولا يقولون شيئا مفيدا ..

وفى الليل حاولت أن أنام . فلم أستطع . لقد أدرت كل الكلام فى رأسى يمينا وشمالا . وقفزت من الفراش . واتجهت إلى سرير والدى ووالدتى . وقلت له : لا تقلق على مستقبلى . سوف أكون عند حسن ظنك ..غالبا ، والله أعلم ، سوف أكون مدرسا فى الكلية .. وسأكمل دراستى ..

وأشار والدى أن أساعده على الجلوس فقال : إنما أريد أن أراك أحسن حالا . سوف يكون بإذن الله يا ولدى ..

وأشارت والدتى أن أساعدها على النهوض . واقتربت منى وقبلتنى على جبينى . ورفعت يديها أقبلهما . لتقول : ربنا يكرمك يا إبنى ..

ورأيت الذى دوخنى : فوالدى شديد الضعف .. أين الوجه الجميل والعينان الخضراوان ..والإبتسامة الدائمة .. ما الذى جعل الرأس الكبير صغيرا .. ما الذى جعل العينين غائرتين .. ما الذى أحنى الرأس على الصدر .. ما الذى جعل البطل الشهم راكب الحصان قد تكور واتخذ شكل الجنين .. أين ذهب الحب والحنان والحيوية والشهامة .. أين القصص والنوادر .. أين الشعر .. أين الذين أحبهم والدى وضحى من أجلهم .. أين هؤلاء الفلاحون البسطاء الذين ناصرهم أبى ضد أصحاب الاقطاع .. ومن بين أصحاب الاقطاع أقاربه .. وقف معهم يدافع عن فقرهم وعجزهم عن سداد الديون .. أين الذين كانوا يطلبون إليه أن يدعو الله لهم ليشفيهم .. فكان يستخرج الأوراق الصغيرة التى كتب عليها آيات من القرآن لشفاء المرضى .. وكانوا يشفون بإذن الله .. فقد كان والدى يؤمن بأن كل كلمة في القرآن لها سر وسحر .. ولا يعرف هذا السر إلا من درس وقرأ واتخذ عهدا بأن يصون الكلمة والسر .. هذه الأصابع الناعمة فى لون الشمع هى التى كانت تمتد إلى الأفاعى ، فتلتف حولها الأفاعى ولا تلدغه .. ويقال إنه تعهد لأحد مشايخ الطرق الرفاعية ألا يؤذى ثعبانا .. فقدم له شيخ الطريقة شرابا خاصا . من يشربه لا يلدغه الثعبان .. وكانت الأفاعى تقترب منه وتنام فى حضنه ولا تلدغه .. أين كل الناس .. أين الذين أحبهم والذين أحبوه .. والذين تطلعوا إليه وهو يلقى الشعر ، وهو يتلو القرآن وهو يخطب وهو يؤم المصلين .. أين الخيول أين العربات .. أين الدنيا .. كل تلك انحسر .. والضوء انحسر .. والصحة والحياة .. حتى اللغة .. حتى الكلمات حتى النظرات .. هكذا تكون نهاية الخير .. تماما كنهاية الشر .. يبقى الإنسان وحده مع المرض وحده .. مع الموت وحده .. فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وامتدت يد والدى تمسح دموعا من عينى وخدى : البركة فيك إنت يا ولدى ..

(٢)

وفى بيت الأستاذ العقاد تمنيت أن يطرح علينا أى موضوع ينتشلنى مما أنا فيه .. يستغرقنى .. يغرقنى ..

وتطلعت إلى أناس آخرين غير الحاضرين .. نخل أصدقاء الأستاذ : الفنان صلاح والشاعر عبد الرحمن صدقي والمفكر على أدهم والموسيقار الشجاعى والمصور خورشيد والسيدة : ل .. والآنسة : ف .

وتمنيت أن أقوم وأضع قطعة من القطن بين شفتى الأستاذ العقاد حتى لا يمضى فيما يقول .. أو أضع هذا القطن فى أذنى ، ويظل الأستاذ العقاد يتحدث لكل الناس إلا أنا ..

فقد أخذ يدافع عن نفسه ، ويتهم الذين يقولون أنه متشائم .. فهو رجل متفائل . يقول الأستاذ : إننى أقول للحياة نعم .. إنى أقبلها .. واستمر فيها .. وأحاول أن أضيف ما استطعت .. وأن أغير وأن أبدل .. إننى أرفض السلبية وأرفض أن أكون متفرجا .. لأننى أومن بأن هناك حكمة من وجودى .. فالله لا يخلق أحدا أو شيئا عبثا . فأنا حكمة .. أو موجود لحكمة . ومن الحكمة لا أرفض حكمة الله !

وأحسست أننى عندما تسللت وحدى من بيت الأستاذ العقاد ، جعلت أنفض نفسى . حتى لا يبقى فيها شيء من الذى قال ..ما هذه الحياة التى تقول لها : نعم .. حياته هو .. يجوز .. حياتى أنا ؟ أقول : نعم لأى شيء ؟ لهذا القرف والفقر والمرض .. لهذا الغش والكذب .. لهذه المذاهب الفلسفية والدينية التى لم تحقق لى الراحة والأمان .. لهذه الدوخة بين الأرض والسماء .. ألم يحاول الأستاذ أن ينتحر ؟ حاول . فهل عندما انتحر كان يقول للموت نعم .. للفضيحة : نعم .. للفشل : نعم .. لخيبة الأمل : نعم .. هل كان يشفع له عند الناس لو ترك رسالة من ألف صفحة يحاول أن يقنعهم بعمق حكمته فى أنه اختار الموت . إننى لا أصدق ما يقوله الأستاذ .. إنه هو أيضا مثل أساتذة الفلسفة : إنهم شعراء وصفهم القرآن الكريم : **« ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون مالا يفعلون »** ..

وبعد أن هبطت الدرج .. ووقفت أمام بيت الأستاذ العقاد أشم هواءً منعشاً . هدأت نفسى قليلا . وعدت إلى مكانى من الصالون .. ولم ألاحظ أن الأساتذة الكبار قد نزلوا أيضا . فلم يبق إلا السيدة والآنسة .. وبعض الزملاء الصغار

من الطلبة . قلت : يا أستاذ أنت تقول للحياة نعم .. أى حياة يا أستاذ .. أنت تقول : نعم .. فهل كل انسان يقول : نعم .. هل من الضرورى أن تقول نعم لما نكره .. لما لا نفهم .. لمن يظلم .. لمن يقهر .. هل نقولها للجوع والمرض .. فاذا لم نقتنع ، فكيف نقول : نعم .. أنك لم تكن كذلك من عشر سنوات ولا من عشرين عاما .. فهل تقول ذلك لأنك قاربت السنين يا أستاذ .. إن لك شعرا حزينا فاجعا . فكيف كان ذلك يا أستاذ ؟

فقال : يا مولانا إننى أقول للحياة نعم ، بعد أن جربت ومارست . وأنت تريد منى أن أقول مثلك : لا .. مع أنك لم تجرب .. إن الحياة حدثتنى طويلا وحاورتها .. واقتنعت بها . ولكنك يا مولانا لم تسمعها .. لم تلمسها .. لم تعرفها بعد .. فكيف ، وأنت دارس للفلسفة ، ترفض أن تستمع ثم تصدر حكمك عليها .. الذى هو حكم على نفسك .. أنت لم تظلم الحياة ، وإنما أنت ظالم لنفسك .. أعط نفسك فرصة .. وقتا .. انتظر .. خذ نفسك .. ثم قل ما بدالك بعد ذلك .. أنت يا مولانا مثل قاض وقف أمام باب المحكمة وأدان المتهمين .. فلا هو عقد جلسة .. ولا هو درس القضية .. ولا عرف كل وجهات النظر .. إن مثل هذا القاضى ، قد حكم على نفسه بأنه ليس قاضيا ، وإنما طاغية جاهل !

(٣)

وكما هى العادة عندما تنسد النوافذ والأبواب وتنسحب الشمس من سمائنا نذهب إلى دكتور طه حسين . بادرنا بقوله تعليقا على الذى قلت : وماذا قال عباس ؟ يقصد الأستاذ عباس العقاد .

وقلت وأطلت . وكان يصاحبنى بضحكته الرقيقة الساحرة . ويتراجع فى مقعده ثم يضحك عاليا .

قال طه حسين : أنتم تعرفون أن عباس عصبى المزاج .. وأنه لذلك يسرف على نفسه فى اتخاذ مثل هذه القرارات المفاجئة .. كذلك كان فولتير وأبو العلاء .. ومن المعروف أن فولتير كان قد هاجم الإنجليز بعنف وقسوة ..

لأنه رجل عصبى ، مع أنه من أشد الناس إعجابا بالديمقراطية فى بريطانيا .. (يضحك عاليا) .. وفى يوم وجد نفسه فى لندن .. فى شوارع لندن .. وعرفه الناس وقرروا ضربه أو قتله .. والتفت إليهم يقول : تريدون عقابى .. ألا يكفى عقابا ألا أكون إنجليزيا ؟!

واعتدل طه حسين ليقول : إن عباس أكثرنا جميعا استخداما لكلمة : لا .. فهو قد رفض الكثير من الأفكار والأنظمة القديمة فى التاريخ والنقد الأدبى والشعر .. ولولا ذلك ما اكتسب العقاد سمعته الأدبية الواسعة .. إنه رفض التشاؤم ورفض رقم ١٣ ورفض أن تكون البومة مصدرا للشؤم .. ورفض الفكرة التى تقول أن الموت والخراب والدمار يلحق بكل من يدرس الشاعر ابن الرومى .. وقد درسه العقاد وألف عنه أحسن كتبه .. إنه عصبى المزاج .. ولا بد أنه كان كذلك .. ولا بد أن أحدا قد قال له : إننى أقول للحياة : لا .. فقرر العقاد فى نفس اللحظة أن يقول لها : نعم .. وأن يتراجع عن ذلك مثل كل محام بارع .. فى المرافعة .. وليس من الضرورى أن يكون مقتنعا بما يقول !

* * *

(٤)

- طه .. ماذا قررت ؟

وهو السؤال الذى سمعته كثيرا فى ذلك الوقت من كل الذين أعرفهم ..

وكنت أقول : لا .. ونعم ..

ويسألوننى : ماذا تقصد ؟

هم يسألون : عن الذى سوف أعمله بعد التخرج . وأنا أجيب عن سؤال آخر : ما الذى نقوله للحياة ؟

قبل الجامعة : كانت الحياة بلا كتب .. وفى الجامعة : كتب بلا حياة .. وبعد الجامعة : كتب وحياة .. أو لا كتب ولا حياة .. طه حسين أو العقاد .. ولا هذا ولا ذاك .. أو هما معا ؟!



من هنا بدأت كل
متاعب المستقبل

من هنا بدأت كل متاعب المستقبل !

لم أعرف السلام فى بيتنا .

لم أعرف شيئا واحدا مضمونا . أو شيئا واحدا من الممكن أن يتكرر بصورة منتظمة . فاذا دق الباب ، وهذا يحدث كثيرا ، أصابنى الفزع . مع أننى ، وأننا ، لا نتوقع أحدا مخيفا أو كارثة .. أو حتى إذا كانت كارثة فما معناها .. لا أرض ولا بيت ولا دكان لنا ولا سيارة ولا حتى حمار .. ولكنه الخوف العام ..

فحياة الطفولة التى كانت متنقلة من بلد إلىّ بلد ، ومن مدرسة إلى مدرسة ومن أصدقاء إلى زملاء آخرين .. والتغير المستمر لوظيفة والدى ، وأننا دائما على سفر .. وأن كل الذى نملكه يوضع فى سيارة واحدة .. ويكون من نصيبى أن أضع ساعة الحائط على ركبتى .. وهى من الخشب كأنها تابوت .. أو نعش مات فيه الزمن ، أو لكى ندفن فيه الزمن .. وإن كنت أتمنى أن أدفن الخوف وألقى به فى النيل .. ولكن عاشت هذه الساعة ولا تزال على حائط البيت الذى تسكنه والدتى ، يرحمها الله .. فلم تكن تابوتا وإنما هى مثل احواض الزهور ، ينمو فيها الخوف إلى جوار اليأس إلى جوار المرارة والعزلة ومزيد من الخوف .

ولا حدث أن رأيت أبى وأمى يجلسان معا ويتحدثان فى أى شىء .. فأمى دائما فى حالة غضب . ولا أعرف سببا لذلك إلا أنها مريضة وإلا أنها شديدة الحساسية ، ولا أجد والدى إلا هادئا معظم الوقت صامتا .. أو يوقف هذا الذى لا أفهم من المناقشات الحادة بالصلاة أو بتلاوة القرآن بصوت مرتفع .. وأحيانا أسمع استئنافا لهذه المناقشة فى الليل .. ولكن لا أفهم . وفى اليوم التالى يختفى والدى . إنه يعمل بعيدا .. وهو دائما يعمل بعيدا حيث لا أعرف .. وأرى وأسمع لأمى وهى تتحدث إلينا بنفس الطريقة .. لا فرق بين الذى تقوله لنا وتقوله لوالدى أو لخادمتنا .. فهى فى حالة غضب ومرض .. غضب بسبب

المرض ، أو مرض بسبب الغضب .. ولم أسمع من والدتى بالخيط ما الذى يعجبها فى أى شىء .. إنما هى الأخرى تتوقع أن أخطىء فى كل الذى أفعل ، حتى فى المذاكرة وهى لا تقرأ ولا تكتب ، لها رأى أيضا ، وأجدنى أطيع أوامرها : اجلس الآن فأجلس . افتح الكتاب أفتحه . لا تنم قبل أن تنتهى من دروسك .. وكنت أنام وأنا أذاكر حتى أنهض كل يوم وقد أحرق المصباح الغازى رموش عينى وشعر رأسى ..

ولم استطع أن انظر إلى وجه والدتى فى تلك الوقت من الدراسة الابتدائية والثانوية لأرى إن كنت قادرا على الضحك أو حتى على الابتسام . ووجدت لها عذرا . فالضحك فى مثل هذه الظروف لا سبيل إليه ..

ومن أنواع المحاورات بين والدتى وبينى وبينها وبين والدى : انت تأخرت فى المدرسة اليوم .

ـــ .. ولكن فى الطريق من المدرسة وقفت مع زملائى نتكلم .

ـــ ولكنك لم تفعل بالأمس .. سوف تكون مثل خالك .. لن تنفع فى شىء !!

وتتركنى إلى أى شىء آخر .. فلا قالت شيئا ولا عندى فرصة لأن أشرح .. أو حتى لا داعى لهذه المناقشة نهائيا فأن أتأخر نصف أو ساعة لا أهمية لذلك .. فليس عندى ما أفعله غير الجلوس فى البيت ، حتى تجىء الساعة الخامسة فأخرج للنزهة مع زملائى .

ومثلا : هل قلت لخالتك شيئا عن الخُناقة مع فلانة ؟

ـــ لم أر خالتى ..

ـــ ومن أين عرفت هى ؟

ـــ وكيف أقول لها إذا كانت قد سافرت إلى القاهرة منذ أسبوعين .. والخناقة حدثت من يومين فقط ..

ـــ يمكن أرسلت لها خطابا ..

ـــ وهل أعرف عنوانها ؟

ـــ وكيف أعرف ؟

وينتهى الحوار .. فاذا انتهى فلا كلمة واحدة تدور بيننا .. هل هى على يقين من أننى كتبت خطابا ، هل لابد أن أكون متهما مهما كانت الظروف .. هل فهمت أنا شيئا .. لا شىء ..

أما هذا الحوار النموذجى بين والدى ووالدتى فلا استطيع أن أنساه . هكذا كان والدى وكانت والدتى وكنا نحن فى هذه الحيرة والقلق . مثلا هذا الحوار مع والدى :

قالت : كم يوما ستبقى هذه المرة ؟

ــ قال : ربما أسبوع وربما أكثر .

ــ وربما أقل ..

ــ لا أظن ..

ــ ولماذا فأنت كل مرة تقول أسبوعا وتبقى يوما أو يومين .. والأولاد يندهشون لذلك .. فلم يحدث فى مرة واحدة أن بقيت معنا أسبوعا .. حاول أن تفسر لهم ذلك ..

ــ أنت تعرفين أنها وظيفة جديدة .

ــ كل الوظائف جديدة .

ــ صحيح . ولكن ما الذى أفعله ؟

ــ لا شىء طبعا .. إنه سوء حظ وقلة بخت ودوخة عيال .. فلا نحن موظفون ولا نحن فلاحون ..

ــ ....

ــ إنه فى حاجة إلى كتب .

ــ اشتريت له .. أليس كذلك ؟

فأقول : شكرا ..

والدتى : ولكنك لم تقل أن بابا اشترى لك كتبا .. أخذتها وأخفيتها فى غرفتك ..

هو : مبسوط .

أنا : شكرا !

هي : ما دام هو مبسوط خلاص .. ننفلق نحن .. وتستطيع أن تسافر الآن وفى أية لحظة ..

وترتفع نبرة الحوار وتكون مراجعة كاملة لحياتنا معا .. منذ ولادتى وقبلها .. وبعدها .. أما النهاية فهى معروفة : ينهض والدى هادئا ويفتح الباب ويخرج ولا يعود إلا بعد اسبوع .. يأسا من أمل فى حوار هادئ .. أو هدوء .. وعلى الرغم من أن هذا الحوار يتكرر كثيرا . فإن أحدا منهما لم يفلح فى الوصول إلى صيغة معقولة .. أو درجة معقولة من الخلاف .. أو تحديد موضوع يمكن الخلاف أو الاتفاق عليه .. وأرى أبى معذورا .. فهو لا يحمل كل هموم والدتى . فعنده هموم أخرى لا نعرفها ، ولم يجعلنا طرفا فيها .. إنها هموم الأعمال الحرة . الأعمال الزراعية عند أصحاب الإقطاع .. بكلمة يعمل وبكلمة يجد نفسه بلا عمل .. وقد لا تكون كلمة وإنما اشارة بيد .. وقد يكون سبب هذه الاشارة « دسيسة » من أحد .. فوالدى رجل طيب القلب حسن النية ، وقد تعذب كثيرا بسبب حسن ظنه بالناس . ولابد أن يكون والدى رجلا متسامحاً جداً . فهو يقبل كل شىء يجىء . فالناس أشرار . لا علاج . ولا مفر من ذلك . والحياة الزوجية لا هى خير ولا هى شر . وإنما هى كل ذلك ولا مفر لرجل طيب مستقيم من أن يقبل هذا المصير وما يأتى به من أولاد تكبر معهم مشاكلهم أيضا .. ووالدى ، هو الآخر ، لم يتسع وقته ولم يطل عمره ولم تستقر الأرض تحت قدميه ، حتى يكون قادرا على اصلاح الذى فسد ، وتقويم الذى انحرف ، واشاعة السلام فى المكتب والحقل والبيت وبين الأولاد .. فالحياة نفسها لم تنجح فى أن يكون لها مذاق حلو على لسانه .. فالحلاوة فى لسان أبى ، كانت الشعر الذى يرويه والنوادر التى يملكها وصوته الجميل يرتل القرآن ، وعبارة بسم الله الرحمن الرحيم عند بداية أى شىء والحمد لله عند نهاية أى شىء يأكله أو يوجعه .. فباسم الله بداية كل شىء والحمد لله نهاية كل شىء .. وكان الصفاء والرواء والبهاء على وجه والدى معجزة من معجزات علم وظائف الأعضاء وعلم النفس وكيمياء الإيمان بالله .. كيف كل ذلك ؟ لا أعرف .

أما مع والدى فكان الحوار بيننا هكذا ويكون فى الساعة الرابعة صباحا ، قبل صلاة الفجر .. أجدنى نائما إلى جواره أو على ركبته أو على صدره : أنت نمت .. يا راجل أنا أوقظك لكى أتحدث إليك .. ثم ..

وكنت أرى الدموع في عينيه .. وبسرعة تنتقل دموعه إلى عيني .. لا هو قال شيئا ولا أنا قلت ..

ويسألني : عامل إيه في المدرسة ؟ كويس ..

- نعم ..

بارك الله فيك .. أنت تعرف يا ولدي .. يجب أن تكون الأول .. فإذا كبرت كنت شيئا هاما .. أنت تعرف أن أمك تحبك جدا .. ولكن هذا الذي تقوله لك من شدة حبها .. إنها لا تكرهك .. أبدا .. أنت شاغلها الوحيد ..

- أعرف ..

- وهي تحبني أيضا .. عندما تزوجتها كانت تنظر لي على أني والدها .. فأنا أكبر منها بعشرين عاما .. ولكن الأيام والظروف وحالتها الصحية وخلافاتها مع إخوتها .. والتنقل من مكان إلى مكان بينما إخوتها جميعا على أرضهم وبين أقاربهم .. يأكلون ويشربون من الحقل وبسهولة .. ولكنها لابد أن تشتري من السوق وتنتظر الماهية حتى أبعث بها .. ثم أنها وحدها مع أولادها وحدهم .. حياتها شاقة .. إنني أعذرها .. ولكني عاجز عن فعل ما هو أفضل لنا جميعا .. لذلك فأنت وحدك القادر ، عندما تكبر ، على اراحتي وأمك .. وإخوتك .. وكل البيوت بها مثل هذه المشاكل وعندما تكبر سوف تعرف .. وسوف تجد العذر لأمك وأبيك ... أنت نمت يا ولدي ؟

ثم يقول لي : لماذا تبكي .. أنت رجل .. كنت أتحدث عنك .. وكل الناس يريدون أن يروك .. فبعد نهاية العام الدراسي سوف ننتقل إلى هناك لترى الأطفال في مثل سنك .. وسوف تعود ومعك كتب كثيرة .. وقد اشتريت لك عددا من البط الأبيض والأوز .. وهناك كلب صغير قد ربيته لك .. وهناك أشجار التوت والجميز .. أريدك أن تحفظ هذه الأبيات ..

ثم يلقى أبياتا جميلة . ويكررها . وأرددها وراءه . وقد حفظت ألوف أبيات الشعر قبل أن أدخل المدرسة . تماما كما حفظت القرآن الكريم قبل أن أذهب إلى المدرسة .. وأنا لا أفهم من معانيه وكلماته شيئا . وإنما هي الموسيقى السماوية والقدرة الفائقة على الحفظ عند الأطفال في مثل سني - أي في السابعة ..

ولم أكن أعرف فى ذلك الوقت كيف البيوت الأخرى .. وكيف الأباء والأمهات . وما الحوار .. وما الخلاف وما الاتفاق وما الأمل واليأس وما المستقبل . لا أعرف . فلا رأيت ولا أحد قال .. ولا عرفت كيف تكون أحسن وأسوأ . فكل واحد قد انطوى على حاله ، ولا أحد يقول شيئا لأحد .. ولا أحد يسأل أحداً . وعرفت فيما بعد أن كل الناس أمام كل الناس ممثلون : يكذبون ويبالغون ويقلبون الحقائق .. حتى لم يعد لمثل هذا التمثيل معنى .. فأنت لا تمثل أمام متفرج ، ولكن تمثل أمام ممثل آخر : لا متعة ولا لذة ولا معنى .. فلا أحد يصدق أحدا .

ولم أعد أجد أمى ، عجبا ، بين الأمهات والزوجات ، فكلهن كذلك .. وكل الآباء والأزواج أيضا !

وعندما كبرت ودرست علم النفس أصبحت هوايتى أن أعود إلى طفولتى ما كان وما لم يكن . وأصبحت متعتى أن أجرى وراء الأحداث الصغيرة وأطاردها وأستوقفها وأستوضحها .. لعلى أعرف كيف حدث ما حدث .. وكلما نظرت إلى نفسى ، رأيت من الضرورى أن أعود إلى الماضى البعيد لكى أرانى طفلا صغيرا فى البيت ، أى بيت ، وفى الشارع وفى المدرسة ، ووجدتنى أذاكر ولا أعرف لماذا أقبلت على الدراسة والقراءة بهذه الصورة الشرهة . لم يقل لى أحد : إفعل ذلك .. دائما وجدتنى وحدى مدفوعا إلى القراءة مدفوعا إلى المذاكرة ..حريصا على أن أكون الأول فى كل مراحل التعليم والشهادات العامة .. لماذا ؟ لا سبب . ما هى المتعة التى كنت أجدها ؟ لا متعة . ما هى المكافأة التى أتلقاها ؟ لا مكافأة .

عندما قرأت فى صحيفة ، الوفد المصرى ، أن ترتيبى الأول فى الابتدائية سارعت إلى البيت .. وجدت الباب مفتوحا .. دخلت وجدت أمى تنزف دما ، فهمت منها أن أستحضر طبيبا ..

وعندما جاء ترتيبى الأول فى الثانوية العامة ، عدت إلى البيت . دفعت الباب فانفتح . وجدت أناسا يرتدون الملابس السوداء . خالاتى وأولادهن . لقد ماتت خالتى . وعندما جاء ترتيبى الأول فى الليسانس ذهبت أنقل هذا النبأ إلى والدى وكان مريضا . سألنى إن كنت الأول قلت : نعم .. إن كان نجاحى بمرتبة الشرف الأولى . فقلت نعم وسمعته يحمد الله على ذلك ويموت !

ويوم عينت رئيسا لتحرير مجلة « آخر ساعة » ذهبت لأمى فى المستشفى فوجدتها فارقت الحياة . فنشرت صحيفة « أخبار اليوم » فى صفحتها الأولى نبأ تعييني رئيسا للتحرير ، وفى صحيفة الوفيات : شيعت جنازة والدتي .. وكنت أتلقى برقيات التعازى والتهانى معا إنها عملية حسابية : أخذ من هنا ، وخصم من هناك !

* * *

وتحيرت النظريات والتفسيرات فى يدى لما حدث زمان ، ولما هو حادث ، ولما يمكن أن يحدث ..

واهتديت بعض الوقت إلى تفسير مريح . ولكنه ليس مضبوطا تماما . ولكنها الصورة الأخرى التي وجدتها .. وهذا يدل على « حيرتى » .. وهذه الحيرة هى التى جعلتنى أختار أى تفسير يريح رأسى من دوامة الدوران حول نفسى ليلا ونهارا وتعذيبى لها أيضا ..

فقد قرأت عن قصة « أسرة برونتى » . وهى أشهر عائلة أدبية فى التاريخ . الأسرة تضم أبا أديبا شاعرا قسيسا اسمه باتريك برونتى .. وخمسا من البنات وولدا .. ماتت اثنتان وبقيت ثلاث بنات أديبات . وابن أديب ورسام أيضا .

الأب القسيس باتريك برونتى (١٧٧٧ - ١٨٦١) كان شاعرا غريب الأطوار . كان مزعجا متهوسا . عصبيا . لم يكن حساسا عطوفا رقيقا . وإنما هو رجل عصبى . وهو الذى توهم أنه شاعرى لأنه سريع التأثر والبكاء . والحقيقة أنه ليس كذلك . إنه عصبى عنيف غليظ . وهو يعامل بناته كأنواع من الحشرات والكلاب . وهو يغضب ويسخط ويسقط على الأرض ويلعن الأيام التى أتت بهن .. ثم ينهض ويطلق النار فى الهواء تخويفا ، أو تفريغا لغضبه .. وقد نشر الأب الكبير أشعاره .. ولكن لا قيمة لها . فهى منظومات موزونة .. وهى شعر كنائس أخلاقى . ليس فيها ذوق ولا إحساس . ولذلك كان لابد أن تموت فور ولادتها .. وهى ضرورية للدراسة إذا أردنا أن نعرف الرجل الذى كان أبا لثلاث أديبات مشهورات ..

أما البنات الثلاث فقد نشرن شعرا في ديوان واحد . لم تبق من هذا الديوان إلا نسخة واحدة .. والشعر يدل على الموهبة المبكرة وعلى سمو الحس وجمال الذوق وعلى الإبداع أيضا . والبنات نشرن هذا الشعر بأسماء مستعارة .

البنت الكبرى هي : شارلوت برونتي (١٨١٦ ـ ١٨٥٥) . وكانت روايتها « جين اير » . وتزوجت وتوفيت بعد زواجها بشهور .

والثانية هي : إميلي برونتي(١٨١٧ ـ ١٨٤٨) وهي التي ألفت رواية « مرتفعات وذرنج » وهي أكثر الثلاثة موهبة . وشخصيتها أقوى . وهي أكثرهن جمالا . وفي روايتها هذه كل صور العذاب والحرمان وقمة الرومانسية ..

ماتت ولم تتزوج ..

والثالثة هي : آن برونتي (١٨٢٠ ـ ١٨٤٩) وهي أقلهن موهبة . بل هي متوسطة القدر في كل ماكتبت . وروايتها الوحيدة هي « أنيس جراي » .. وهذه الرواية كانت نبوءة لما سوف ينتاب الشخصية الانسانية بعد ذلك بمائة عام .. فالشخصية ليست شخصية ولا ملامح لها .. وإنما يتشابه كل الناس حتى ليصعب على أحد أن يميز واحدا عن واحد .. ثم كانت الدعوة إلى أن يصبح الناس مثل قوالب الطوب .. لا خلاف بينهم ولا معنى للخلاف !

أما الأخ براتول برونتي (١٨٢٧ ـ ١٨٤٨) فقد كان أمل والده . وكان حريصا على أن يجعله هو الأديب وهو الفنان . ولذلك بعث به يدرس الرسم في لندن . وعاد من لندن فاشلا . ونشر شعرا ويقال أنه ساعد أخته في تأليف الصفحات الأولى من « مرتفعات وذرنج » وإن كانت الأخت هذه قد وضعته في روايتها .. ذلك الشاب المشهور المدمن للخمور والمخدرات والذى حطم نفسه في النهاية .. وعاش ومات في غيبوبة تامة لا يدرى بالضبط ما الذى فعله إخوته البنات ..

أما الأم فقد أنجبت هذا العدد الكبير من الأبناء ، ثم ماتت بعد تسع سنوات من الزواج .. وجاءت أختها تساعد في تربية هؤلاء اليتامى ، وتحاول أن تنقذهن من جنون والدهم . فكان الأدب هو الملجأ الوحيد للبنات .. وكان الخيال هو المأوى الأمين من طلقات النار وسورة الغضب وتشنجات الأب من حين

إلى حين .. وتهديده لهن بأنه سوف يترك البيت فيتعلقن به ويتوسلن عند قدميه أن يبقى من أجلهن !

وعلى الرغم من أن هذا الأب قد تزوج عن حب فإنه كان يلعن زوجته ويقول : اللعنة عليها إني تزوجتها .. اللعنة عليها أنها ماتت .. اللعنة عليها أنها أنجبت هذا العدد من الأبناء .. اللعنة عليها أن تركتهم .. اللعنة عليها أن جاءت أختها إلى البيت .. اللعنة على البيت أني ما أزال حيا أعاني وألعن كل الناس !

• • •

فأى وجه للشبه بين أسرتي وهذه الأسرة .. لم أتساءل كثيرا . وإنما ارتضيت هذه القصة تفسيرا لحياتي ..

لابد أن تكون اللامبالاة والقسوة معا هي وجه الشبه بيننا .. هناك قسوة .. وهناك لا مبالاة .. وهناك خوف من المرض ومن الموت .. ومن كل شيء ومن كل أحد .. وهناك الأبواب المغلقة على صغار هاربين ومن الواقع إلى الخيال .. هناك كتابة المذكرات سرا ، هناك الأمل في الخلاص .. هناك اختفاء الأم ، بعنايتها ورعايتها وحنانها وحضانتها .. وهناك اختفاء الأب .. فالأم وإن كانت موجودة ، فأى وجود هذا ؟ والأب وإن كان موجودا فأى وجود هذا ؟

ولو اخترت لونا يناسب هذا البيت لجعلت السواد هو اللون ..

لو أخذت طعما لهذه الحياة لكانت المرارة ..

لو أخذت رائحة لهذه الأسرة لكان الخل ..

لو أخذت أشجاراً لأجعل سوراً لهذه الأسرة لكان الشوك ..

لو اخترت نهاية لكل شيء لكانت النهاية هي البداية : لا شيء .. فالبداية غامضة . والغاية أكثر غموضا ..

ورجل الدين والشعر لم يفلح في أي شيء .. لا الدين جعله شخصية هامة ولا الأدب .. وإنما هو ضائع بين الدين والدنيا .. بينما الذين لا دين لهم ولا أدب ، هم الذين يملكون ويتحكمون في الذين يعرفون الدين ويتذوقون الأدب ..

وكذلك والدى كان رجلا مؤمنا شاعرا رقيقا يتذوق جمال الكلمة والنغمة ..

ولما كبرت وجدت أن هذه الصورة ليست منطقية تماما .. بعضها فقط .. ووجدت فى حياتى أنبياء وفلاسفة كثيرين ما يطابق حياتى . وبعد ذلك لم أعد فى حاجة إلى البحث عن أناس أكون شبيها بهم .. ولا هو من الضرورى . فكل واحد له حياته وكل واحد صنعته ظروفه .. والظروف سبقتنا إلى الوجود .. فلا أحد قد اختار أباه وأمه .. ولا أحد قد اختار صفاته الوراثية .. ولا أحد قد اختار دينه ولغته ووضعه الطبقى .. وبعد ذلك فإن هذه الظروف هى التى تشكلنا ونحن نسايرها ونتمرد عليها .. ومن المسايرة والتمرد تتكون ملامحنا النفسية والاجتماعية والعقلية أيضا .. فالظروف الواحدة التى عشت فيها مع أخوتى . لم تجعلنا متشابهين . بل إننا مختلفون أشد الاختلاف ..فليس بين إخوتى أحد له علاقة بصناعة الكتابة . ولا أحد اتجه إليها . ولا رغب فيها . رغم تطابق كل الظروف والأحداث ، والمجتمع والإطارات النفسية ..

فليس من الطبيعى أن أبحث لى عن نظير أو شبيه بين أنبياء وفلاسفة عاشوا فى ظروف أخرى وفى أزمات أخرى ، لمجرد أننى أريد تفسيرا ملموسا أستعين به على فهم نفسى وعقلى وآمالى ومخاوفى وكفرى بكثير مما يؤمن به الناس !

* * *

وفى يوم جعلت أتسلى بحياتى .. وتخيلت قلمى سنارة أدلى بها فى طفولتى أستخرج مخاوفى ، أو أسباب مخاوفى . إيمانا منى بأن المخاوف كالسمك . إذا أخرجناها من الماء ماتت ..

ووجدت عجبا ..

وأعجبنى من الذى وجدته ، أنه رغم معرفتى بالأسباب ، فإننى لم أفلح فى أن أعود إلى السلوك الصحيح .. أى لم أفلح فى التغلب على مخاوف الطفولة ..

مثلا : لم أفلح فى إن أتعلم السباحة . حاولت كثيرا . ولكن عقلى لا يطاوعنى . بل أن عقلى أصبح مثل الفرامل التى التصقت بالعجل .. لماذا ؟!

تعبت حتى وجدت السبب الذى كنت قد نسيته ..أى تعمدت نسيانه .. حتى كانت معرفتى به اكتشافا عظيما ..

فقد حدث ونحن أطفال أن نزلنا معا إلى النيل . وأتذكر أننى كنت أعرف السباحة بدليل أننى أفعل ذلك مع أقاربى الصغار كل يوم ..

وفى أحد الأيام غرق إبن خالتى . ولم أستطع أن أعود إلى البيت . فقد ذهبت إلى أحد المساجد ، ونمت فيه . وفى الصباح المبكر وجدت أناسا كثيرين وأطفالا ووجدت والدتى تبكى . ثم رأيت إبن خالتى هذا الذى غرق .. إذن لم يغرق .. فخرجت خائفا. وسمعت إسمي يتردد على شكل صراخ .. لقد ظنوا أننى أنا الذى غرقت . وتوهمت أيضا أن إبن خالتى هو الذى غرق ..

وقد فسر أحد أصدقائى من علماء النفس ما حدث بأننى قد نمت من التعب . وأننى نمت وظللت نائما .. أو أننى خرجت إلى الشاطىء ونمت وظللت هكذا بعض الوقت وأن إبن خالتى بحث عنى فلم يجدنى . وكانت السباحة ليلا . فلما صحوت من النوم لم أجده فظننت أنه هو الذى غرق ..

ولا أتذكر أننى نزلت إلى البحر بعد ذلك ، وكنت أقول : أننى لا أعرف السباحة فقط ..

ولم أكن أعرف الأسباب العميقة فى نفسى ..

وعلى الرغم من أننى رأيت أجمل شواطىء الدنيا بعد ذلك . فإننى لم أرتد مايوها ولا وقفت إلى جوار الشاطىء مرة واحدة ..

وأذكر بعد ذلك بسنوات عندما كنت فى جزيرة كابرى .. ودخلت بالزوارق فى المغارة المعروفة باسم « المغارة الزرقاء » أن اصطدم الزورق بالجدار .. وخيل إلى أننى سوف أغرق فصرخت وبكيت بسرعة . واندهش الناس . واندهشت أنا أيضا فادعيت أن شيئا لسعنى فى الماء .. وبسرعة اتجهت العيون إلى يدى التى لم تكن مبللة .. ثم أنه لا توجد حشرات أو أسماك من أى نوع ..

وخجلت من الذى حدث . وانشغلت بالتفكير فى ذلك ..

وعندما ذهبت إلى جزيرة هاواى ، ووجدت الناس يتمددون نصف عراة على الشاطىء .. وينامون فى انتظار مد المحيط الهادى الذى يصل إلى أقدامهم .. ثم أجسادهم فينهضون فى فزع .. هذا الفزع اللذيذ ، هو المطلوب .. !

ووجدت شجرة قريبة من الماء وصعدت عليها .. وكان جذع الشجرة على شكل مصطبة . وتمددت على هذه المصطبة .. وكان المحيط الهادى هادئا ، عسلا .. حصيرة .. حريرا .. وكان القمر فى السماء كبيرا جميلا .. ونمت .. لا أعرف كم من الوقت نمت وعندما صحوت وجدت المد قد زحف إلى منتصف جذع الشجرة .. فتولانى الخوف الشديد .. ونظرت إلى الماء .. ولم أجرؤ أن أقفز من الشجرة لأعود إلى الشاطىء . وإنما ظللت أنظر إلى القمر فى السماء وفى الماء حتى طلع النهار . واكتشفت مع ضوء الشمس أن الماء لا يزيد عمقه عن شبر واحد !

وأول مرة أنزل إلى الماء وبالمايوه كان فى مدينة الحديدة فى اليمن سنة ١٩٦٣ .. فقد كنت ضمن وفد الأدباء : يوسف السباعى ونجيب محفوظ وصالح جودت ومحمود حسن إسماعيل ومهدى علام . ولا أعرف من الذى اقترح أن ننزل إلى الماء . وكانت المايوهات جاهزة . ولم أجرؤ أن أقول إننى أخاف من الماء . ارتديت المايوه ونزلت إلى الماء .. وظللت واقفا .. والماء يصل إلى أعلى الساقين إلى الخصر .. وفجأة وجدت نفسى تحت سطح الماء أشرب أقذر ماء فى العالم .. لقد كان المرحوم صالح جودت يداعبنى ، فدفعنى من الخلف ولم يصدق أحد وأنا أصرخ وأقول كلاما غير مفهوم أننى سوف أغرق .. ولا أعرف كيف خرجت طينا من تحت الطين ..

وبعد ذلك حاولت أن أسبح .. لم أستطع . واقترح الأصدقاء أن يعلمنى السباحة أحد الأساتذة ..

وكان السباح الكبير عبد الباقى حسنين هو أول أستاذ لى . وذهبت إلى حمام المعلمين .. عندما يكون الماء دافئا .. وجلس عبد الباقى حسنين على مقعد عند حافة الحمام . وطلب منى أن أنزل إلى الماء .. وأحاول الطفو وأن أدفع رأسى إلى أعلى .. وأن أحرك ذراعى وساقى .. وأن أجعل رأسى فوق الماء .. ونجحت فى الحركة ولكن تحت الماء ..

ولم أتقدم فى السباحة ..

وأخيرا حاول السباح العالمى أبو هيف أن يقنعنى . ولكن لم أطاوعه ! ولاحظت أننى لا أستحم إلا بالماء الدافىء . ولما كان الماء الدافىء ليس

متوافرا دائما ، ولا كان ضروريا فى معظم أوقات السنة ، كان الحرص عليه رفضا مؤقتا للماء .. فأنا فى أعماقى لا أريد الماء عموما ، والماء البارد خصوصا أى أنه ما تزال محاولة عميقة من داخلى للابتعاد عن الماء !

ولكن أحدا لم يساعدنى على فهم ذلك فى سن مبكرة !

إننى لا أحب الشيكولاته .. ولم أذقها إلا أخيرا وإلا قليلا !

وفتشت فوجدت أن السبب هو أننى عندما كنت تلميذا فى الثالثة الابتدائية كنا ندرس تاريخ الشعوب .. دراسة سريعة .. ففى يوم قال المدرس : إن الأحباش ليسوا سودا .. ولكنهم فى لون الكاكاو ..

ورفعت أصبعى أسأل : يعنى إيه كاكاو ؟

- يعنى إيه ؟ لا تعرف الكاكاو ..

قلت : لا ..

قال : ولا شربتها ؟

قلت : لا ..

وضحك التلاميذ ..

وعاد المدرس يقول : أنت طبعا تعرف الشيكولاتة ؟

قلت : لا ..

وضحك التلاميذ ..

ولا أعرف كيف كان وجه المدرس ..

ولم أفهم ما هى العلاقة بين الكاكاو والشيكولاتة ..

وفى اليوم التالى جاء ناظر المدرسة وهو إبن خالتى ، وكان رجلا عنيفا . متعاليا . لا يحبه المدرسون ..

ودخل الفصل وإتجه ناحيتى وقال : أنت قلت أنك لا تعرف الكاكاو .. ولا تعرف الشيكولاتة ..

ثم أخرج من جيبه قطعة من الشيكولاتة ورمانى بها وقال : دى تبلها وتشرب ميتها .. هذه هى الكاكاو !

وخرج . وضحك التلاميذ والمدرس . فلم يجرؤ أحد أن يضحك فى حضوره !

وظللت طول عمرى لا أشرب الكاكاو ولا أذوق الشيكولاتة .. وإن فعلت الآن فالقليل جدا !

أذكر أننى كتبت مجموعة مقالات فى مجلة « الجيل » التى كنت رئيسا لتحريرها .. عن التفاؤل والتشاؤم .. ومما قلته : إن سقوط زجاجة العطر فى يدك مقدمة لأحداث سيئة !

ولا أعرف من أين أتيت بهذه المعلومات فى ذلك الوقت من سنة ١٩٦٠ . واستشهدت بحوادث وقعت فى بعض الأفلام ، وفى حياة الناس أيضا ..

ولاحظت أن شركات العطور حريصة على أن تجعل الزجاجات كبيرة غير قابلة للكسر حتى لا يتشاءم أحد من الناس !

ثم اكتشفت أننى كتبت مقالا فى « آخر ساعة » بعد ذلك بسنوات أتحدث عن تفاؤل بعض الناس إذا سقطت من يده زجاجة الكولونيا .. وكانوا يقولون : أخذت الشر وتركت عطرها الجميل ، لكى ننسى ما حدث .. أو ننسى الزجاجة ولا ننسى العطر .. ولم يكن ذلك إلا استنتاجا ..

ثم راحت زجاجات الكولونيا تتساقط من يدى .. دون سبب واضح لذلك .. فلا أنا ارتطمت بشىء .. أو أن أحدا دفعنى فسقطت الزجاجة من يدى ..

ويوم سافرت إلى باريس لأول مرة سنة ١٩٥٠ نزلت فى فندق متواضع جدا . وكان لابد أن أحمل ملابسى إلى الحمام العمومى كل يوم .. فاللوكاندة بها حوض لغسيل الأيدى . وليست بها حمامات . وتذكرت حكاية « السيد ومراته فى باريس » التى كتبها بيرم التونسى . وكان على زوجة السيد أن تذهب إلى الحمام العمومى وتغسل ملابسها وتبقى بالساعات دون أن تعرف أن دخول الحمام بالساعة ..

ولكن أهم ما اكتشفت فى ذلك الوقت أن الفرنسيين لا يستحمون وإنما يشترون زجاجات الكولونيا الطويلة الرخيصة .. وقطعة من الأسفنج ثم يستحمون بالكولونيا .. وفعلت ذلك يوما ويومين .. ولكن وجدت أننى لا أستطيع أن أمر بالأسفنج على كل جسمى ..

وصدقت في ذلك الوقت ما قيل أن الموسيقار محمد عبد الوهاب يفعل ذلك أيضا ، خوفا من الميكروبات التي في الماء !!

ويوم دخلت الكولونيا في عيني وفي أنفي كدت أموت . ولا أعرف كيف حدث ذلك . ولا كيف سقطت الزجاجة فانكسرت وتناثرت شظاياها على الأرض تحت قدمي العاريتين وعلى جسمي . وفزعت بعد ذلك . وعدلت عن استخدام الكولونيا بدلا من الماء !

وكما هي العادة رحت أفتش في طفولتي عن سبب لكل ذلك .. واهتديت إلى السبب الحقيقي ..

كان ذلك في مدرسة دمنهور الثانوية . وكنت أمتحن للشهادة الابتدائية . وفي مادة الرسم لم أكد أقرأ ورقة الأسئلة حتى رحت أبكي .. وتساقطت دموعي على الورق ..

وجاءني المراقب يسألني :

ماذا يا ولدي ؟

فقلت : لم أر زجاجة كولونيا في حياتي ..

فنظر المدرس إلى الأسئلة فوجد أنه مطلوب مني أن أرسم زجاجة كولونيا ووراءها قرص الشمس ..

وسألني الرجل : لم تر زجاجة كولونيا ؟

قلت : نعم !

قال : أبدا ؟

قلت : أبدا !

واندهش الرجل ونظر إلى الزملاء يستوضحهم فقالوا له : إنه أول المدرسة ..

فسألني الرجل : أي نوع من الزجاجات رأيت يا ولدي ..

فقلت : زجاجة الزيت .. زجاجة الفنيك ..

وظهرت الحيرة على وجه المراقب .

ولا أعرف بالضبط ماذا حدث .. فأخرج زجاجة صغيرة من جيبه وقال : مثل هذه ولكن اجعلها كبيرة يا ولدى .. انظر إليها جيدا ..

ومسحت دموعى . وضحك التلاميذ ..

وذهب هذا الحادث مع حوادث أخرى كثيرة ولكن لا تزال يدى ترتجف إذا أمسكت زجاجة عطر ..

وكان من الممكن أن يكون العكس كأن أقوم بكسر الزجاجة ، بدلا من إلقائها فى سلة المهملات عندما ينتهى استعمالها .. أو أتعمد كسرها ، دفعا لهذا الخوف القديم .. أو أنسى هذا الحادث تماما .. وأسخر من كل ما أصابنى عندما كنت طفلا !

* * *

مرة كنت أعرض نفسى على أحد الأطباء .. وطلب منى أن أفتح فمى وأن أقول آه .. ثم أن أضع الترمومتر تحت لسانى .. وبحركة عصبية ضغطت أسنانى على الترمومتر فتهشم تماما .. وبحركة لا شعورية حاولت أن أتخلص من بقاياه فى فمى .. فأدى ذلك إلى جروح كثيرة فى لسانى وفى حلق الفم ..

وظللت سنوات أجد صعوبة فى وضع الترمومتر فى فمى خوفا من أن يتكرر هذا الذى حدث ..

ثم وجدتنى أرفض أن يضع الطبيب الترمومتر فى فمى .. وإنما كنت آخذه أنا وأضعه تحت لسانى ..

وفى بعض الأحيان يكون حرصى على ذلك عصبيا .. فأخطف الترمومتر من يده ، أو أمنعه من أن يفعل ذلك .. وأحاول أن أتظاهر بالخوف ، كأننى لست خائفا . والطبيب لا يفهم هذه الحركة الطفولية ..

وبعض الأطباء يستخدم ملعقة لكى يضعها على اللسان ليعرف إن كان الحلق ملتهبا . ووضع الملعقة كان مشكلة عويصة .. فأنا لا أطيق ذلك .. ولكن لابد .. وأقاوم كثيرا ، أقاوم شيئا فى داخلى يمنعنى من الاستسلام لرغبة الطبيب ..

وكنت أندهش لهذا السلوك ولا أعرف السبب .. وحاولت . ولم أهتد ..

فقط عندما كنيت أخبرا عن علاقتى بجماعات الغجر حين كنت طفلا .. كان من بين أصدقائى طفل من الغجر .. وحاولت الهروب .. وطلبت من إحدى السيدات الغجريات أن تأخذنى ابنا لها وزوجا لابنتها . وكنت فى السابعة من عمرى أو دون ذلك ..

وكنت أحمل الطعام والسكر والشاى إلى هذه البنت الصغيرة التى طلبت يدها من أمها هكذا : أنا ويودينا نريد أن يكون عندنا أولاد صغار مثلنا نلعب معهم !!

ويبدو أن الأم انزعجت من هذا الطلب الغريب .. وبسرعة جرجرت يدى وجرجرت يد إبنتها وطلبت من كل منا أن يشرب من دم الآخر .. فأصبحنا هكذا زوجين !؟

وأذكر أننى مرضت وارتفعت درجة حرارتى وبدلا من أن أعود إلى البيت ذهبت إلى خيام الغجر . وأنا أبكى . وجاءت يودينا وأخذتنى إلى أمها .. وبسرعة راحت تدلك لى رأسى .. وفتحت فمى .. وقدمت لى مشروبا من النبت الساخن .. ووضعتنى فى حضنها وعلى صدرها .. ونمت ولا أعرف كم مضى من الوقت .. ويبدو أننى كنت مصابا بالحمى ، فكنت أهذى فرأيت أبى وأمى وأخوتى وجدى وجدتى .. ونهضت مفزوعا ، ولم أجد أحدا .. فقط يودينا والدموع فى عينيها .. ثم جاءت أمها .. وطلبت منى أن أنام .. ثم وضعت منديلا فى فمى حتى لا أصرخ وكان فى يدها مسمار أخرجته من النار حاولت به لتكوينى ، علاجا للحمى .. وقاومت ولكنها أحكمت المنديل على فمى حتى لا أصرخ وكوتنى بالنار !

لا أعرف ماذا حدث فى اليوم التالى . ولكن عرفت من يودينا أن أمى جاءت ورأتنى . وتركتنى على أن أعود إلى البيت فى اليوم التالى ..

ولم ألاحظ الأثر الذى تركه المسمار فى رأسى إلا بعد أيام ..

وبعد أن شفيت تماما ، حبستنى أمى حبسا إنفراديا ، وكانت تلقى لى بالطعام وتقفل الباب .. وإذا اتسع وقتها ضربتنى بالعصا ..

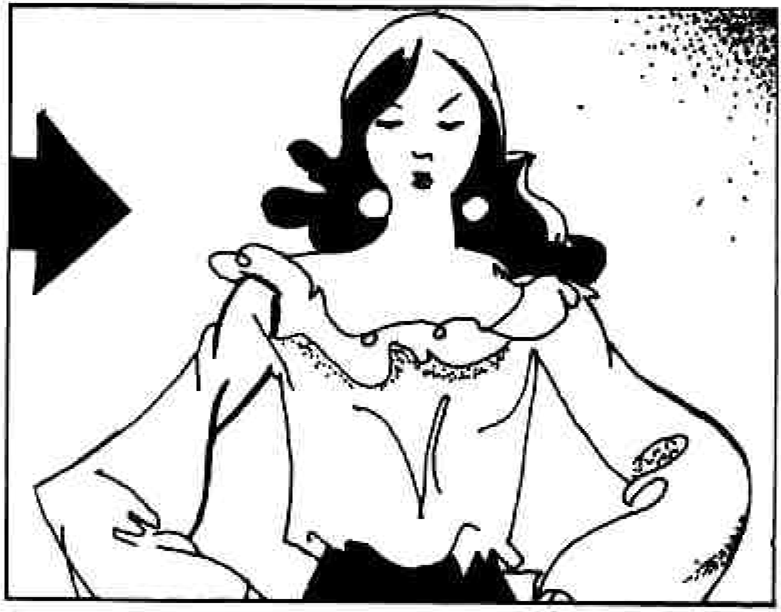
ثم جاء ما هو أقسى من ذلك فقد امتنعت عن الطعام . أو انسدت نفسى ، وأكرهتنى أمى على الطعام وكانت هى التى تضع الطعام فى فمى بالقوة !

.. فلم يتسع وقت أبي وأمي ، لكي ينبهني أحد إلى ما حدث .. وكيف يمكن التغلب عليه ..

ولم أكن مؤهلا عقليا لدراسة نفسي وإطلاق الأضواء في داخلها لأعرف الجوانب المظلمة والذى يتراكم هناك بعيدا عن متناول ما تعلمته في علم النفس ..

ولكن عندما أصبحت قادرا على الفهم ، لم أجدنى قادرا على أن أتخلص نهائيا من المخاوف القديمة .. والقلق القديم .. وافتقاد السلام والأمان .. والنموذج الحسن للحياة الاجتماعية .. وللعلاقات الانسانية ..

ولكن أبناء الطبقة الوسطى ، عندهم كل أحلام أبناء الطبقة الأرستقراطية ، وعندهم كل ويلات ومخاوف وعذاب الطبقة الفقيرة .. ومصيبتهم ثقيلة أنهم يريدون أن يكونوا طبقة أخرى ، لا هى تحت ولا هى فوق .. ولكنها تتسخ بوحل تحت ، وتكتوى بنار فوق .. ومن الدخان والنار والطين ، والأمل واليأس ، تتولد كل شرارات الإبداع عند الانسان . ولكن ما أفدح الثمن !



هؤلاء الصغار.. وآمالهم الكبيرة

هؤلاء الصغار .. وآمالهم الكبيرة

لابد من معجزة لانتشالنا جميعا مما نحن فيه .. فأمس عندما جلسنا معا ، أحسست أن كل واحد منا غرقان فى شىء ما .. وأننا هكذا وقعنا فى أول الطريق ..

هذا غرقان فى القراءة . أى فى الوهم وفى أفكار الآخرين .. وأنه يرى أن الحياة تبدأ بالكتاب وتنتهى به .. وأن الكتاب إذا كان يبدو محيطا فإنه فى نفس الوقت زورق النجاة ..

وأن هذا غرقان فى الجنس وفى الخمر وفى فلوس أبويه ..

وأن هذا غرقان فى الواقع .. فى الواقعية .. وأن الإنسان يجب أن يعيش « على قده » .. بمعنى أننا ما دمنا طلبة فكيف نفكر كأساتذة .. وإذا كنا من أبناء الريف الفقراء ، فلماذا الاصرار على أن نحقد على أبناء المدينة الأغنياء .. الفرق بيننا هو آباؤنا .. فلا نحن سبب فقرنا ولا هم سبب فى ثرائهم .. أى أننا يجب أن نفكر « على قدنا » أيضا .. وأن نؤمن بأن الفقر مرحلة .. والخوف مرحلة .. والتلمذة مرحلة .. وأن أعظم العظماء كانوا مثلنا وأسوأ .. يكفى أن نقرأ ما كتبه طه حسين فى « الأيام » وما كتبه العقاد بصورة رمزية .. ويكفى عذاب العقاد فى حبه وفى كبريائه .. فهو يرى أنه أعظم الناس ، ولكنه لا يلقى من متاع الدنيا إلا ما يجده بواب البيت المتواضع الذى يسكنه . بل إننى رأيت خادم العقاد يمسح الأكواب فى طرف جلبابه .. وليس فى البيت فوطة واحدة غير التى يمسح بها الأستاذ العقاد وجهه ويديه ..

وليس من الضرورى أن نكون أغنياء مثل أفلاطون وشوبنهور ، وإنما فقراء مثل سقراط وأرسطو وألف فيلسوف آخرين ..

وبيننا ثوار لهم دين .. وثوار ليس لهم دين : إلا الماركسية ..

والذين لهم دين يريدون أن تنقلب الدنيا على رؤوسنا جميعا وهم يرون هذا ممكنا . وأن الإسلام قادر على أن يحقق المعجزات . وأنه لا حل غير الإسلام ولا علاج بغيره . وأن الثورة آتية لا ريب فيها .. إنها مسألة وقت وظهور بعض الشخصيات البارزة المكلفة من السماء ، بإصلاح هذا الكون ويومها ..

ويومها سوف يبدأون بشنقنا جميعا فى الميادين العامة :عبرة وعظة لكل الناس .

ولكن لماذا ؟

لأننا انشغلنا بالفلسفة عن ذكر الله ..

وأسأل : كيف ؟ إننا جميعا فى جماعة الإخوان المسلمين .

ويكون الرد : ليس كافيا ما نؤديه من فرائض . يجب أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنأخذ بأيدى الناس . وألا يكون لنا هدف وغاية غير ذلك . التضحية هى أول المبادىء والشهادة هى المبدأ الثانى .. وراحة الضمير .. والباقى على الله !

والذين يريدون الثورة بلا دين ، لأن الثورة هى الدين ، يطالبوننا بأن ننظر إلى ما فى أيدينا .. ما الذى فيها ؟لا شىء إلا بقايا الحبر ورائحة الطعام .. وقد لاحظ واحد منهم أن الفقراء هم الذين يمشون وأصابعهم مضمومة .. لأنهم يقبضون على الهواء .. أو يتوهمون أنهم يمسكون شيئا فى أيديهم . أو يحبون ذلك .. أما الأغنياء فأصابعهم مفرودة .. فكل شىء عندهم فى البيت .. فى الحقل .. فى البنك .. فليسوا فى حاجة إلى أن يضعوا أصابعهم .. والفقراء فى الدنيا أغلبية .. فهم قوة .. ولكنها قوة عمياء .. فى حاجة إلى عيون ، نحن عيونها ، وفى حاجة إلى جنة ، والجنة هى المستقبل .. المستقبل الممكن وليس المستقبل المستحيل .. ولا يمكن أن نخضع لقانون الصدفة .. فمن الصدف أن والدك تزوج أمك .. ومن الصدف أنك خرجت قصيرا كوالديك .. أو غبيا أو مريضا ، رفيعا أو حقيرا .. متشائما أو متفائلا .. إنها الصدفة التى جعلتك أفقر وجعلتنى أغنى .. ولا بد من أن نفرض العدل فرضاً .. بالقوة .. بالحديد بالنار .. لابد أن تكون هناك أفران .. وقودها الناس .. أعداء الناس هم الحطب

والخشب .. وغضبنا هو الكبريت ومرارتنا هى البنزين .. وسوف ننفخ جميعا .. هذه هى الثورة . ولا تزال الثورات هى أنبل وأطهر ما عرف الانسان ، علاجا للإنسان ، وتقويما للإنحراف ، واندفاعا للجنة الموعودة .. الجنة التى وعدنا بها أنفسنا لأنفسنا ..

وفينا فنانون وشعراء راضون بالقليل من هذه الدنيا .. يكفى أن يكون لدى الانسان إحساس بالجمال والحرية والعدل .. يكفى أن أقف أمام زهرة .. أمام عصفور .. أمام طفل صغير .. أمام فتاة جميلة أو صورة لها .. فالجمال لكل الناس .. والله سبحانه وتعالى قد جعل الهواء مجانا والضوء مجانا والماء مجانا والسير فى الحقول بلا رسوم .. أما السعادة فهى لذة الطعام : طعام العين والأنف والأذن .. وفتاة جميلة واحدة ، مثل زهرة أو وردة أو قطة تكفى .. إن الحياة مدينة للذين أحبوا الحياة ، والذين رأوا أن البناء أروع من الهدم ، والتسامح أعمق من الانتقام ، والسلام أعظم من الحرب ، ورضا النفس أعمق من المرارة .. وحب الوالدين أشرف من إنكارهما والبحث عن آباء آخرين فى الكتب أو فى الشارع .

وفينا من يؤمن بأن هذه الدنيا هى كل ما لدينا لا قبلها ولا بعدها .. هذا يومنا وهذه حياتنا .. فيجب أن نعيش هذه اللحظة . هذه اللقمة .. هذا الفراش هذا البيت .. ويجب ألا نشغل أنفسنا بما لا نعرف من الماضي ومن الغد .. اليوم هو البداية والنهاية .. فإذا صحونا من النوم .. قبلنا أيدينا وجها وظهرا لأننا ما نزال أحياء .. وأننا سوف نعيش يوما آخر .. وأن نرتبط بالشمس ، نصحو معها وننام معها .. وفي ضوئها نجرى ونلهث ، ثم نرتمي ونستريح ، ونحن يجب ألا يكون لدينا أمل فى يوم آخر .. فإن كان يوم آخر ، فلتكن سعادتنا متجددة ..

ومن بيننا أناس أراحوا أنفسهم .. قالوا : نحن لا نعرف شيئا عن هذه الدنيا .. ليس عندنا وقت .. وليست لدينا قدرة على فهم ما حدث وما سوف يحدث .. فكل أى شيء .. ونحن لا نعرف إن كان هذا الذى نقول أو نسمع صادقا أو كاذبا .. فمعلوماتنا عن أنفسنا ليست دقيقة .. ولذلك فنحن فى شك من كل شيء .. لا نعرف ما البداية وما النهاية .. وهذا الشك عندنا مثل ، عاهة نعيش بها .. كما يعتاد على الحياة من ضاعت عينه وانسدت أذنه وانكسرت

ساقه أو ذراعه .. أو مات أبوه وهو طفل .. ثم ماتت أمه بعد ذلك وتنقل بين « البدائل » .. بديل الأم والأب والأسرة والإخوة والأقارب .. ولد غريبا وعاش أجنبيا وسوف يموت شريدا .. فليس طبيعيا أن نشعر بالامتنان لأحد من الناس .. فنحن جميعا قد أسقطنا من طائرات مجهولة على هذا الكوكب .. ولا نعرف من أين وإلى أين .. ولا لماذا ولا ما هى الحكمة .. هل نحن ممثلون حقيقيون فى دراما الكون ، أو أننا كومبارس .. أو أننا متفرجون عندما وجدنا الفوضى على المسرح وغياب المعنى وضياع المنطق ، فقفزنا إلى المسرح .. فلماذا لا نمثل نحن أيضا ما دام لا فرق بين المتفرجين ، والممثلين ، فكل شيء بلا منطق ولا حكمة !

• • •

وفى يوم خرجنا من بيت دكتور طه حسين بعد أن أسمعنا بالحديث عن الشعر الجاهلى ، وبعد أن أشاع فيه النور والذوق والشجاعة والنبل .. تماما كأنه أقام لنا خيمة فى الصحراء .. ثم أدخل فيها الكهرباء والراديو والثلاجة والمروحة .. إنها خيمة من الخارج ولكن فى داخلها آخر ما وصل إليه العلم فى المعمار والديكور والأثاث .. ثم اننا عن طريق الراديو والتليفون على صلة بالعالم كله .. تلك براعة طه حسين ..

ولكننا أحسسنا بخيبة الأمل ، فهو رجل شاطر ولكنه ليس مفيدا .. إنه رجل قادر على أن يستخرج اللؤلؤ من البحر والماس من الأرض .. ثم ينظم ذلك عقودا وأقراطا .. وبسرعة يلقى بها من النافذة .. أو يسحقها بأصابعه السحرية فتكون ترابا ودخانا .. كأننا فى « ألف ليلة » ..

وجلسنا فى حديقة الأسماك فى الزمالك .. وشغلتنا جريمة نشرتها الصحف .. وكانت هذه الجريمة مثل غزال جميل تكاثرنا عليه كمجموعة من الوحوش والضوارى والكواسر نريد أن نفترسه جميعا . وافترسنا هذه الضحية ..

سؤال : هل كنت ترتكب هذه الجريمة لو ضمنت أن أحدا لن يدرى بك ، وتكسب ألوف الجنيهات والدولارات ؟

قال واحد بلا تردد : نعم .

وكان هذا الجواب السريع أو المتسرع فريسة أخرى . وتساءلنا : كأنك لا تتردد فى أن تكون مجرما ولصا ما دام أحد لن يكتشف أمرك .. كأن الذى يخيفك هو العقاب .. ولكن الجريمة مقبولة ..

فأجاب : نعم ! وكلنا ذلك الرجل . واللص الفاشل والمجرم الغبى هو الذى يقع فى أيدى البوليس !

قال أحدنا : من الصعب أن يتصور الإنسان نفسه قاتلا .. مجرما .. إننى عندما كنت أقرأ رواية « الجريمة والعقاب » لدستوفسكى كان شعر رأسى يقف فى اللحظات التى قرر فيها الطالب أن يقتل صاحبة البيت .. وهذا الطالب اسمه راسكلنيكوف ..

وكان الرد عليه : أنت شعر رأسك يقف لأن طالبا يحاول أن يقتل صاحبة البيت ، تخلصا من دفع الايجار .. ولكن شعر رأسك لا يقف إذا نسفت هذا البيت بمن فيه من الشيوخ والأطفال والحيوانات إذا كانوا يتسترون على أحد أعداء الثورة الحمراء التى تريدها .. شعر رأسك يقف للاصرار والترصد .. ولكنه لا يقف وإنما تصبح أصلع مثل لينين إذا أعدمت كل أصحاب البيوت .. كل أصحاب الأرض والمصانع كل الأغنياء .. يا أخى شىء عجيب .. إننى لا أفهمك !

قال آخر : القتل هو القتل .. وهو جريمة .. حرمها الله .. إلا فى الحرب دفاعا عن الإسلام ، وإلا فى الدفاع عن الوطن .. وعن الشرف .. وإلا فى القصاص .. وإلا فى تنفيذ الحدود التى شرعها الله !

وقلنا كثيرا .. وكانت هذه الجريمة مثل نار اشتعلت تحتنا بسرعة ولم نفلح فى الهرب منها .. فرحنا نخلع ملابسنا .. نتعرى أمامها .. لقد انكشفنا حقا .. إنها مثل جزيرة المغناطيس فى ألف ليلة ، فلا تقترب منها سفينة إلا انخلعت مساميرها ، وأصبحت السفينة ألواحا خشبية طافية ، يعلو بها الموج ويهبط .. فى لحظة واحدة ، وفى جلسة واحدة ، كشفنا أنفسنا ، واكتشفنا أعماقنا مرة أخرى .. لم تكن هذه هى المرة الوحيدة .. وإنما نحن مسلطون على أنفسنا .. لقد رأينا أنفسنا كثيراً فى أضواء كثيرة .. كأننا محبوسون فى صندوق باندورا ، ذلك الصندوق الذى أهدته آلهة الاغريق لأول مرة .. ففى الصندوق كانت كل الرذائل : الجشع والجبن والأنانية والانتقام والغيرة والحسد والكذب

والسرقة والزنا والخيانة .. وفى داخل الصندوق تلاقت كل الشرور وضاقت بنفسها . فلا حياة لها إلا فى الناس ومن الناس تمزقهم وتحرقهم ، وتضربهم بعضهم ببعض ..

وتقول الأسطورة الإغريقية أن الفتاة « بندورا » قد فتحت الصندوق فخرجت كل الشرور . وفى آخر لحظة أغلقت الصندوق . فلم يبق فيه إلا : الأمل .. الأمل فى الخلاص من كل هذه الشرور ..

ولكن صندوقنا الردىء الصنع .. أو صندوقنا المصنوع من الورق ، خرج منه كل شىء .. وأول الخوارج كان : الأمل !

* * *

فى تلك الأيام كانت لنا زميلة « صعلوكة » .. هى التى تقول عن نفسها ذلك . وتقول : أنها سمعت من والدها ، أنه كان أسعد صعلوك فى باريس .. فأبوها مصرى وأمها فرنسية ألمانية يهودية مسلمة .. ولم نكن نعرف ما معنى الصعلكة . ولكن ننظر إليها ونقول : هكذا الصعلكة .

فهى تمشى بسرعة وتتكلم بسرعة وبصوت مرتفع وهى إذا تحدثت تحرك كل شىء فى فمها .. قامت وقعدت . وأشارت بذراعيها النحيلين وساقيها الجميلتين وحذائها الذى يشبه أحذية الرجال . ثم اخرجت علبة سجائر وأشعلت سيجارة .. وكان تدخين الطالبة شيئا نادرا .. وبهذه الصورة الشرهة شذوذا . ولكنها صعلوكة . أما شعرها الذهبى فكان قصيرا .. وسط بين شعر الرجل وشعر الفتاة .. أو كان « ألاجرسون » .. أى على طريقة الشبان . وكانت تقول : أن تكون الفتاة ألاجرسون .. غلاما .. هو نوع من التمرد على فكرة حريم السلطان .. حريم الرجل الشرقى .. فهى تقترب من الرجل وتظل فى نفس الوقت أنثى ..

وكانت هى التى تحدثنا عن لياليها .. ترقص وتشرب .. وليس فى نيتها أن تتزوج .. وكانت ترفع يدها بالتحية لكثير من الطلبة والمدرسين ومن لا تعرف من الناس .. إنها اجتماعية وعلى صلة بكثيرين .. ولكنها طالبة مجتهدة جدا .. تعرف خمس لغات .. وتذاكر وتتفوق على كل زميلاتها ..

فهل الصعلكة هى الحرية المطلقة ؟ أو هى الحرية الأوربية التى تتنافى مع الحرية الشرقية ، أو الحرية التى تضرب حريتنا بالجزمة .

قالت وقد صرنا وحدنا فى حديقة الأورمان : فكرت ؟

- فى أى شىء ؟

- فى الهجرة إلى فرنسا ، كما تناقشنا .

- ما الذى سوف أجده هناك ، ولا أجده هنا .. إننى مرتبط بلغتى العربية .. ثم أسرتى .. مات أبى ، ولا يمكن أن أعتمد على إخوتى الأكبر ، ولا على خالى وخالتى .. وأن قلبى لينقطع فى كل مرة أجد أخى الأصغر يمشى على قدميه حتى يصل إلى الأتوبيس ليعمل فى آخر القاهرة .. إنى أراه يتعذب فى صمت .. لابد أنه يتوقع أن أساعده ، فقد ساعدنى كثيرا جدا .. إن كل ورقة مالية أقبضها منه .. تشبه « قنديل البحر » .. إنها ملساء ناعمة ولكنها تفرز نارا فى يدى وفى جسمى .. إننى أريد أن أنهى هذا العذاب .. عذابنا نحن الاثنين !

- ولكنك غيرت رأيك بسرعة .. ألم تقل أن لك أقارب فى منطقة الالزاس واللورين .. إننى أعرف كثيرين هناك .. وأعرف ما الذى يمكن أن تعمله .. أو نعمله معا .. والذى نراه غريبا هنا فى القاهرة سوف تجده مألوفا هناك .. وسوف تكون مثلى ربما أكثر انطلاقا .. وأول شىء سوف تعمله هو أنك سوف تتخلص منى .

- ومع ذلك تريديننى أن أهاجر إلى فرنسا ..

- نعم .. من أدراك ربما سبقتك أنا إلى الخلاص .. منى ومنك ؟!

- ليس بهذه السهولة .. فلا أنا قادر على الحركة والانتقال مثلك .. فأنت هناك لست غريبة .. وإنما أنا أشعر بالغربة فى بلادى ..

- لأنك تريد أن تبقى غريبا .. لأنك غير قادر على أن ترتبط بأحد أو بهدف .. أنت الذى تقوم بتقطيع العلاقات بين الناس .. هل هناك سبب واحد مقبول أن تصدم زميلتنا : أ .. لا سبب . ولكنك أنت الذى لا تريد أن ترتبط .. لا تريد أن تكون مربوطا بأحد .. ألا تذكر القصة القصيرة التى كتبتها فى مجلة الكلية وكان موضوعها وعنوانها : « ليتنى شجرة على ترعة تعيش وتموت واقفة » .. ليس لها إلا معنى واحد هو أنك ترفض الأبوة والأمومة والأقارب ..

بل ترفض الإنسانية .. وتريد أن تكون شجرة تعيش وحدها وتموت وحدها .. إنك اخترت شجرة .. كأنك اخترت علامة تعجب لها أغصان وأوراق .. إنها علامة تعجب منك ولك .. وأحب أن أطمئنك أن كل الصعاليك بدأوا حياتهم هكذا .. انك تفكر مثل أبى تماما .. والآن تعال واجلس معه .. إنه قد أسرف فى الارتباط بالآخرين حتى أصبح مثل جليفر فى بلاد الأقزام مربوطا بالخيوط والحبال من كل شعرة فى رأسه وشاربه ولحيته .. فلم يعد قادرا على الحركة .. ولكن فى هذه الخيوط سعادته .. تماما كما يجد فقراء الهنود نومهم العميق على المسامير .. وكما يفعل « الرفاعية » فى ريف مصر يضربون أنفسهم بالسيوف ويدخلون المسامير فى وجوههم وبطونهم .. وتقشعر أبداننا لذلك ، أما أبدانهم فقد ودعت الخوف والألم منذ وقت طويل ..

* * *

شىء غريب حقا هل جاء الخريف قبل الأوان .. فالأرض تغطت بأوراق صفراء ذابلة .. كأنها قطعت من كراريس الطلبة بعد الامتحان .. أو كأنها عملات مزورة طارت من أحد أقسام الشرطة .. أو كأنها كلمات فارغة .. أو كأنها بقايا معركة بين السماء والأرض .. فالأرض غطتها جثث لم يدفنها أحد بعد ..

حتى وجوه الناس هى الأخرى ، كأنها قاربت نهايتها .. فالوجوه شاحبة والعيون ذابلة والأصوات كسيرة والخطوات ثقيلة .. والدنيا « انكتمت » .. شىء ما كتم أنفاس الكون .. فلا صوت ولا نفس ولا حياة ولا حركة .. وأنا أيضا « انكتمت » .. فلا ألتفت حولى ولا أنظر ولا أتأمل ولا أسمع ولا أفكر ولا أريد .. ووجدت الكثير من المقاعد الفارغة .. كأن الناس ، لسبب ما تركوها .. واختفوا .. كأن هجوما مفاجئا وقع على هذه المنطقة من « منيل الروضة » .. كأنهم المماليك البرجية أو المماليك البحرية ظهروا واستولوا على المنطقة ونقلوا الناس مرة أخرى إلى تركيا كأن هذه المنطقة انشقت وابتلعت الناس .. كأن القاهرة كما وصفها هيرودوت تسبح فى نيلها وشوارعها التماسيح فالتهمت الناس .. ولم يبق سوى شاهد على العصر .. والمذبحة .. وعلى تفريغ الشوارع والبيوت والحدائق من الناس ..

وفجأة ظهر الناس .. وصحوت من هذا السرحان أو هذا الإغفاء أو الإغماء أو الإعياء .. لقد ذهبوا جميعا إلى بائع الآيس كريم .. ثم عادوا ولابد أنهم استغرقوا دقيقة أو اثنتين .. ولكن هذا الوقت القصير جدا ، أحسست كأنه أبدية .. شيء غريب وعجيب إحساس الإنسان بالزمن .. إن احساسنا هو الذى يجعل الزمن يكون فى سرعة عقارب الثوانى ، ويكون فى بلادة عقارب الساعة .. فالزمن هنا .. فى داخلى ولا علاقة له بهذه الساعة فى أيدينا ..

ومددت يدى إلى الكتاب الذى تركته ، الصعلوكة ، الفرنسية وهى تقول : إنه يضم مجرد مقترحات رديئة لا تشرفك ولا تساعد أحداً على أى شيء .. ثم إنك لست شيئا بعد .. !

الله يلعنك يا ليليان .. كل شيء فيك ومنك يلسع .. أنت مثل السمك الرعاش ، من يلمسك تصعقينه .. أنت مثل نحل العسل .. إن أعضاءه التى تمتص الرحيق وتفرز العسل هى التى تكوى من يدنو منها .. السم والعسل فى مكان واحد .. كيف أنت هكذا .. أجمل الكلام وأجمل الملامح والحيوية والشباب والشجاعة والانطلاق والمنطق الحديدى والبساطة والنار والنور .. أنت أسطورة ..

ومددت يدى إلى الكتاب الذى هو اقتراحات رديئة لا تشرفنى ولا تسعد أحدا من الناس .. وبسرعة قلبت فيه وضحكت .. ثم أقبلت عليه من بدايته .. أعوذ بالله .. ما هذا إنهم شعراء وأدباء كيف كانت نهايتهم التى وقعوا فيها والتى اختاروها .. الكتاب عنوانه : « نهايتهم العجيبة » :

الشاعر الإغريقى انكاريون الذى عاش فى القرن السادس قبل الميلاد كان يأكل العنب ، فانحشرت حبات فى حلقه فمات !

• • •

والشاعر تربنادر رماه أحد أصدقائه بحبة من التين ، فاستقرت فى فمه وفى حلقه ، فمات !

• • •

والأديب اسكيلوس كان يجلس أمام بيت عندما حلق نسر يحمل سلحفاة بين مخالبه ، فأسقطها فنزلت على رأس هذا الأديب فمات فوراً .

والمؤلف المسرحي يوربيدس هاجمته الكلاب فمزقته ومات !

• • •

والفيلسوف نيوجانس طلب أن يدفن على رأسه ، إيمانا بأن العالم سوف ينقلب ، فإذا انقلب صار واقفا على قدميه !

• • •

والفيلسوف العظيم أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق . م) ألقى بنفسه في البحر ، عندما عجز عن تفسير سبب التيارات البحرية ولماذا تتغير في اليوم الواحد عشرين مرة !

• • •

والملك الأديب متير يانس (١٣٢ ـ ٦٣ ق . م) كان يخاف أن يموت مسموما ، فطلب إلى خادمه أن يضع القليل من السموم في طعامه . حتى اعتاد الجسم على ذلك . وفي يوم قرر الانتحار . وأخذ كمية من السم ، ولكنه لم يمت ، فطلب إلى أحد حراسه أن يدق رأسه بحجر !

• • •

والفنان كالخاس مات من الضحك . فقد عاش يوما بعد اليوم الذي حدده العرافون !

• • •

والفيلسوف هرقليطس غطى نفسه بروث البقر ، حتى مات !

• • •

والفيلسوف زينون قطع أحد أصابعه عندما بلغ التسعين .. وراح ينزف ثم يدق الأرض بقدميه ويديه مرددا بيتا من الشعر القديم يقول :

جئت إلى هنا ، فلماذا أتيت بي ؟!

حتى مات !

• • •

والمفكر الروماني الساحر برجرينوس أشعل نارا ضخمة ، وراح يدور حولها وأبدى إعجابه الشديد بألوانها وأصواتها ثم ألقى بنفسه فيها !

والأدباء الرومان : سنكا ولوكان وبترونيوس ، مزق كل منهم عروق يديه وانتظر الموت تنفيذا لأوامر الطاغية نيرون الذى جلس يتفرج على هذه النهاية !

• • •

أما الشاعر هلفنوس سبينا ، فقد ظنته الجماهير واحدا من السفاحين فتكاثروا عليه وقتلوه !

• • •

وأبيوس أول من ألف كتابا عن الطهى فى التاريخ .. فقد استدرجه أصدقاؤه إلى اقامة وليمة ضخمة ، فأقامها . ولما عرف أن الفلوس التى تبقت لديه لاتكفيه شهرا ، ظل يأكل من هذا الطعام حتى مات !

• • •

والشاعر الصينى لى بو (٧٦٢ - ٧٠٠ ق . م) ركب زورقا فى ليلة مقمرة وشرب نبيذا وغنى ونظم شعرا ، وعندما حاول أن يقبل صورة القمر على سطح الماء انقلب وغرق ومات !

• • •

والشاعر الإيطالى بترارکه (١٣٠٤ - ١٣٧٤) تمدد على فراشه وأعلنوا أنه مات وتركوه يوما بناء على وصيته .. وفوجئوا بأنه اعتدل وقام وعاش بعد ذلك ثلاثين عاما !

• • •

والفيلسوف الانجليزى فرانسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) كان يحشو الحيوانات الميتة بالجليد ، لكى يعرف كم من الوقت تظل هذه الطيور بلا عفونة .. فمات من شدة البرد !

• • •

والأديب بن جونسون (١٥٧٣ - ١٦٣٧) طلب أن يدفن واقفا .. فدفنوه تحت كنيسة كانتربرى واقفا !

• • •

والمؤلف الانجليزى روبرت برنز (١٥٩٥ ـ ١٦٤٠) توفى فى نفس اليوم الذى توقعه !

• • •

والشاعر المجرى والزعيم السياسى ميكلوس زرينى قد هاجمه خنزير وقتله !

• • •

ومات شيكسبير والأديب الأسبانى سرفانتس فى يوم واحد ـ ٢٢ أبريل سنة ١٦١٦ !

• • •

وموليير (١٧٢٥ ـ ١٧٨٣) كان يمثل دورا فى إحدى مسرحياته . الدور هو أن يتظاهر بالمرض فظل يسعل وينزف . وعندما نزل الستار مات . المسرحية اسمها « المريض بالوهم » !

• • •

والأديب الأمريكى جيمس أوتس (١٧٢٥ ـ ١٧٩٣) .. تمنى أن يموت فى السماء بأن يحمله أحد النسور ثم يموت بين مخالبه ـ كان يمشى فى الحقول فأصابته صاعقة فمات !

• • •

الشاعر الانجليزى لورد بيرون (١٧٨٨ ـ ١٨٢٤) مات عندما نقل منه الأطباء أربعة كيلو جرامات من دمه لعلاجه من الملاريا !

• • •

الشاعر الألمانى فون تومل مات أيضا سنة ١٨٢٤ وطلب أن يدفنوه فى جوف شجرة ـ الشجرة ما تزال حية !

• • •

الشاعر البريطانى شيللى (١٧٩٢ ـ ١٨٢٢) مات غرقا . وعندما أحرقوا جثته ، لم يحترق قلبه . فحملته زوجته معها فى كل مكان !

• • •

أمير الشعراء الروسي بوشكن (١٧٩٩ ـ ١٨٣٧) مات في معركة بالسيف والشاعر الروسي لرمنتوف (١٨١٤ ـ ١٨٤١) نظم قصيدة بعنوان « موت شاعر » هو أيضا مات في معركة بالسيف مع أحد خصومه !

• • •

والأديب الأمريكي هوثورن ولد سنة ١٨٠٤ كان يتشاءم طول حياته من رقم ٦٤ فكان يحذف رقم ٦٤ من كل كتبه ومنكراته . ويكتب بدلا منه ٦٣ مكرر . مات سنة ١٨٦٤ !

الأديب البريطاني ثاكرى (١٨١١ ـ ١٨٦٣) مات من التخمة ! والفيلسوف الإنجليزى بنثام (١٧٤٨ ـ ١٨٣٢) ترك ثروة ووصيته بأن يظل جسمه معروضا على طلبة الجامعة مرة كل سنة .. الجسم معروض الآن بصفة دائمة !

• • •

الساخر الأمريكي مارك توين ولد يوم ظهر المذنب هيلي سنة ١٨٣٥ وأعلن أنه سوف يموت عندما يظهر مرة أخرى . وظهر في سنة ١٩١٠ ومات مارك توين !

قال مارك توين : إن الله سبحانه وتعالى لابد أن يكون قد قال : ظهر هذان المجنونان معا ، وسوف يختفيان معا !!

• • •

والكاتب سلام عليكم (شلومو علينحيم) كان يخاف من رقم ١٣ .. لا يكتبه في كراريسه ولا في كتبه .. وانما كان يكتب « ١٢ مكرر » . مات في نيويورك يوم ١٣ مايو سنة ١٩١٦ .. كتبوا على قبره : توفي يوم ١٢ مكرر مايو سنة ١٩١٦ !

• • •

والشاعر الاسكتلندى دافيسون (١٨٥٧ ـ ١٩٠٩) كان قد اقترض مائتى جنيه من برنارد شو . قرر أن يعيدها بسرعة . فعمل ليلا ونهاراً على إكمال أحد أعماله المسرحية . فشلت المسرحية . فألقى بنفسه في بحر المانش !

• • •

الأديب الانجليزى أرنولد بنيت (١٨٦٧ ـ ١٩٣١) مات بحمى التيفود بعد أن شرب كوبا من ماء نهر السين مباشرة ليدلل على أنها مياه نقية صحية !

• • •

الشاعر الروسى سرجى اسنين (١٨٩٥ ـ ١٩٢٥) قطع عرقا فى ذراعه وكتب قصيدة بدمه ، ثم شنق نفسه !

• • •

الشاعر الانجليزى روبرت بروك (١٨٧٧ ـ ١٩١٥) لدغته بعوضة فمات وترك ثروته لثلاثة من الشعراء هم : جيلمان وابركرومبى ووالتردلامار !

• • •

الكاتب الإيطالى كارلوجويدى مات بالصدمة عندما قدم ترجمة لاتينية للبابا ، اكتشف فجأة أن خطأ مطبعيا لكلمة واحدة تكرر فى كل الكتاب ـ ولها معنى مختلف تماما !

• • •

الأديبة الأمريكية ألين جلاسجو (١٨٧٤ ـ ١٩٤٥) أوصت بأن تدفن مع كلابها .. وأن تنقل رفات هذه الكلاب إلى نعشها بعد ذلك .. وألا تدفن مطلقا على مسافة أقل من ألف كيلو متر من قبر والدها الذى كرهته طول عمرها !

• • •

فى سنة ١٩٣٣ أمر هتلر بأن يبتلع المؤلف أرنست تولر ، كتابه الذى كتبه ضد النازية ـ الكتاب من ٤٧٠ صفحة !

وظل يأكل كتبه حتى مات !

• • •

الفيلسوف أفلاطون فى ٤٥١ ق . م أحرق كل قصائده التى نظمها ، فقد قرر أن يكون تلميذا للفيلسوف سقراط !

• • •

الراهب الإيطالى سافونا رولا أحرق فى سنة ١٤٩٧ كل مؤلفات الشعراء : أوفيد تيرونوريرس وبوكاتشيو ودانته ـ هذا الراهب أحرق أيضا !

فى سنة ١٥٥٣ أحرقت فرنسا المؤلف ميشيل سرفيتوس ، مع كل كتبه !

• • •

ولويس الرابع عشر أحرق مؤلفات باسكال فى سنة ١٧٣٤ !

• • •

أكثر الكتب التى أحرقت فى القرن الثامن عشر فى كل الدول الأوروبية هى مؤلفات الفيلسوف الفرنسى فولتير !

• • •

دراسات فى لغة الجنس ـ للعالم هافيلوك إليس ضبطته جمارك نيويورك ، وأحرقته أمام عينى المؤلف !

• • •

ولاية ميسورى الأمريكية أحرقت رواية « عناقيد الغضب » للكاتب الأمريكى شتاينبيك !

• • •

رواية « عنبر إلى الأبد » للأديبة : كاثلين وينسور ، أحرقتها الجمارك البريطانية !

• • •

وبعد .. كل هؤلاء الناس وكل هذه المصائب .. ومطلوب أن أختار لى نهاية بيدى وبيد غيرى .. ولكن لماذا ؟ لأننى لا أريد أن أهاجر إلى فرنسا .. ولأننى لا أريد أن أتسلى بها ومعها إلى هناك .. حيث نفترق عند أول محطة .. هى فى طريق وأنا فى طريق .. ولكننا هنا فى مصر فى طريقين أيضاً .. أو لأنها تريد أن آخذ بوجهة نظرها بعض الوقت ، ثم أستحق العقاب الذى يعادل هذه الحماقة !

ولكن من كل الذى قرأت لم يتبق إلا هذا المعنى : يجب أن أقطع صلتى بالماضى .. لا كل الماضى وإنما بعضه .

ووجدت الماضى هو مجموعة من الكتب القديمة التى حرصت على صفحاتها وألصقتها بالورق اللاصق والدبابيس .. وهى جميعاً كتب مدرسية وجامعية .. إنها تشبه ملابسى القديمة . ولا قيمة لها ..

واستبعدت أن أحرقها .. أو أن ألقي بها في النيل ، كما فعلت عدة مرات .. واستبعدت أن أبيعها بالأقة . فأنا لا أطيق أن أرى البائع يمزقها ويضع فيها الخيار أو اللب .

وأخيرا تذكرت قصة قديمة سمعتها .. ووضعت كل كتبي في شوال .. وطلب إلى أحد أن يحملها عني . ثم وضعتها على ظهر حمار وذهبنا معا إلى مكان بعيد من إمبابة .. ورحنا نحن الإثنين نحفر في جانب من الأرض ودفنت كل هذه الكتب .. مئات .. وقد يبللها الطين .. ولن يمضي وقت طويل حتى تكون طينا هي الأخرى .. هل نزلت دمعة من عيني ؟ نزلت دموع كثيرة .. كأنني واحد من الجاهلية رزق بنتا ، وهو يكره البنات .. ويراها عارا فراح يدفنها حية .. أما الولد فقط هو المفخرة .. وهي ابنته .. لحمه .. دمه .. ولكن هذا حكم المجتمع البدائي الهمجي العصبي .. دفنت بناتي وأهلت الطين عليها .. واشتريت صمت الطفل الذي كان يقود الحمار ، فأعطيته بعض المال ووعدته بمزيد .. وحمل الحمار كتبا أخرى إلى أماكن متفرقة .. وكان الوأد وكانت الدموع !

واسترحت نفسيا لذلك ، ولأسباب ليست واضحة تماما . ربما كان هذا قرارا مؤجلا يطالعني كل يوم .. أما القرار فهو : لابد من التخلص من الكتب ولكن كيف ؟ وتخلصت منها ..

وانتقلت من امبابة إلى القاهرة إلى بيت في مواجهة مسجد السلطان أبي العلا .. ومع البيت تغير الجيران والزملاء والأصدقاء .. وتغير الطريق ذهابا وإيابا وسط القاهرة .. وتغيرت المشاهد التي أراها من نافذتي فوق الأسطح ..

وتباعدت - دون تبرير وتفكير - المسافة بين كل الزملاء والأصدقاء .. وكنا نلتقي فيكون اللوم رقيقا .. كأننا قد سلمنا بأن هذا هو الطبيعي .. وكأننا قد قبلنا مقدما ، أننا لا نرى بعضنا البعض . ولا لوم على أحد .. فهذه هي الدنيا الواسعة .. التي امتلأت بأناس كثيرين .. وهذه هي المواقع الجديدة والعلاقات والمشاكل والصداقات الجديدة .

ولا أعرف كم مضى من الوقت .. ولا بالضبط ما الذي أعمله .. وما هو الطريق الذي سوف أسلكه .. وقد انشغلت تماما بالطريق عن نهايته .. المهم

ل أبدأ وأن استغرق وسوف تكون النهاية فيما بعد .. كل شيء سوف يجيء ، بشكل ما ، بدرجة ما ، في وقت ما ..

هل هو استسلام للواقع ؟

نعم .

هل هي تواكلية ؟

نعم .. تماما كما تسافر بطائرة وتستسلم في مقعدك وتنام .. فأنت لا تعرف الطيران ولا علوم الطيران .. وأنت اخترت الطائرة وسيلة للمواصلات .. واخترت معها أن تستسلم ، وليكن ما يكون .

• • •

وفي يوم ظهرت ليليان ، أكثر إشراقا وبريقا وحيوية ولمعانا ومرحا . قلت : كيف حالك ؟

قالت : كما ترى . كيف تراني ؟

قلت : في أروع حال . متى تسافرين ؟

قالت : بل أريد أن أهاجر !!

قلت : وأنا أريد أن أهاجر !

قالت : لا أنصحك . كنت أدعوك إلى الهجرة عندما لم يكن لك عمل .. عندما لم تكن قد بدأت .. أما الآن وقد بدأت ، فمن الجبن أن تهاجر .. ابدأ واستمر وأكمل وغير طريقك وأنت في نفس الطريق .

قلت : ما أعظمك .. ما أروعك .. ما أتعسنا بغير عقلك ..

قالت : أنت ساذج .. أنت صدقتني . إنني قررت ألا أهاجر سوف أبقى .. سوف نلتقي .. ومعنا ثالث : زوجي . فقد قررت أن أتزوج صعلوكا مثلي ومثلك ..

قلت : وأنا أيضا كنت أداعبك . فأنا غارق في عملي الصحفي .. أو عملي الأدبي .. وعندي رغبة قوية أن أعود إلى الفلسفة ..

قالت : اجعلها فاكهة .. لا طعاما أساسيا .

قلت : وكيف كان قرار الزواج هذا ؟

قالت : قرار صعاليك ..

قلت : كيف :

قالت : ولا حاجة .. هو سألني هل أتزوج ؟ قلت له : لا مانع .. وأتزوجك أنت بالذات .. وتكون العصمة في يدى .. قال : موافق .. قلت له وأصدقائي ؟ قال : هم أصدقائي أيضا .. ولا أريد أطفالا موافق على ذلك .. وطلبت إليه أن يعيش في بيت والدى فوافق .. هل تريد أن تعيش معنا أنت أيضا .. عندنا غرفتان فوق السطوح .. إحداهما يسكن فيها رءوف ..

- من رءوف ؟

- صديقنا ..

- رءوف حسان ؟

- مجانا تعال .. سنة أو سنتين حتى تجد لك مكانا مناسبا .. ودع والدتك وحدها واذهب لزيارتها من حين إلى حين . ولدينا مكتبة ضخمة بها ألوف الكتب واللوحات والأسطوانات .. تعال .. كأنها بعثة دراسية في فرنسا التي تقع في قلب القاهرة . ما رأيك ؟

- موافق .



موعد فى الكباريه

ولكن الملك لم يحضر

موعد في الكباريه.. ولكن الملك لم يحضر

المكان مظلم . إلا من أنوار خافته .. صفراء وحمراء .. وقرقعات الضحك . والموسيقى عالية في كل مكان .. وفتيات كثيرات يجلسن إلى المناضد وحدهن .. ثم ينتقلن إلى مناضد أخرى .. ولم أستطع أن أتابع واحدة منهن . فالدنيا مظلمة . ولا أعرف ماذا يحدث لو جاءت واحدة وجلست معى . مصيبة وقد سمعت أنه من الممكن أن يقال لها : اسف .. إننى أنتظر ضيوفا ..

ويقال إنها لاتجلس ولاتفرض نفسها .. لم تكن مشاعرى واضحة . ولا حتى رغبتى فى أن أجيء إلى هذا المكان . وارتفع الستار .. وأضيء المسرح . وظهرت فرقة موسيقية .. وبعدها راقصة . أول راقصة أراها فى حياتى . لا أعرف إسمها . ولا أعرف جسمها . فقد كتبت عنها كثيرا . قصة وراء قصة حتى نبهنى أحد الزملاء إلى أننى أسرفت . مع أن هناك أشياء أخرى تستحق هذا الاهتمام أو هذا العشق ..

وظهرت راقصات أخريات .. وكل واحدة مثل موجة البحر ، تمسح الموجة التى قبلها . ولم تحتفظ ذاكرتى بملامح كل واحدة . وكان لابد أن أذهب مرة أخرى . وذهبت ولكن بعد أن أصبحت أكثر شجاعة . ورافقنى زميل لا أخجل منه ، فهو الآخر ليس صغيرا . ولكننا معا ، أصبحنا رجلا شجاعا وجريئا أيضا . وكانت الترابيزة التى جلسنا إليها قريبة من المسرح . وجاء الجرسون أكثر بشاشة . فهو قد عرفنا . وقدم لنا المزة من الترمس والجبنة بطماطم والسودانى والبطاطس . ومن تلقاء نفسه أتى بالبيرة لصديقى . أما أنا فقد أتى بشيء غازى ، لأنه لاحظ أننى لا أشرب ..

والتفت ناحيتى وقال : أنت معجب بماريا ؟

- من هى ماريا ؟
- الراقصة ..

وكان ذلك صحيحا . ولكن كيف لاحظ ذلك ؟ وكانت ماريا هذه من أصل إيطالى . وهى تعمل موظفة فى إحدى شركات القطن نهارا . ولكنها فى الليل ترقص . ورقصها أوروبى محترم .. فهى لاتتعرى ولاتتحدث إلى أحد ولاتجلس إلى الزبائن . ويقال أنها تكمل تعليمها فى الجامعة . ويقال أنها عندما تجمع مبلغا من المال سوف تهاجر إلى أمريكا .. ويقال أنها تنفق على والدتها المريضة .

وفيما بعد سمعت مثل هذه القصص كثيرا . فكل راقصة تحاول أن تؤكد أنها أرغمت على هذا العمل . أى أنها لا تحترمه . فالضرورة أقوى من كل الظروف . وماريا كانت مثل كل الراقصات . ولكنها جعلت لنفسها نوعا من « المناعة » أو « درعا » لوقايتها .. هذا الدرع هو هذه القصص التى تحكيها عن نفسها . والحقيقة أنها تحب رجلا ، وهذا الرجل يأتى اليها آخر الليل يأخذها هى وفلوسها ويختفى ..

أما ماريا فكانت تظهر على المسرح سمراء طويلة رشيقة حركاتها انسيابية .. والألوان تتغير على وجهها وجسمها .. ولكن أفضل النظر إلى عينيها . فنظراتها بلا معنى .. خرزتان محايدتان : لاتدعوان أحدا ولاتصدان أحدا .. وليس فيها مايدل على ماتقوم به .. ولاصدى لما تشعله من نار فى المتفرجين عليها .. وجسمها يدور ويتكوم وينفرد مثل أفعى يتحرك مع مزمار هندى .. وبعد ذلك ، يدخل الكيس الذى خرج منه .. وكان يعجبنى أنها تقف على حافة المسرح وتوهمك بأنها سوف تسقط . ولم أفهم لماذا تعجبنى هذه الحركة .. واخيرا عرفت أنها مثلى تماما عندما وقفت على حافة السجن الجامعى أمام الباب .. فهى تمثل لنا خطر الوقوع ولكنها لاتقع .. أما أنا فقد وقعت فى المحيط الذى هو خارج الجامعة .. وليس ذهابى إلى الكباريهات إلا نوعا من حب الاستطلاع والتعرف على معالم الدنيا ليلا ..

وكتبت عن الرقص وأنواع الرقص .. القديم والجديد .. والرقص فى المعابد .. والفن والجنس .. والموسيقى .. والقرف من كل ذلك .. فقد كان الذى أشربه ينسونا بالثلج . كما حدث فى أول مرة ذهبت إلى الكباريه . فعندما

ذهبت إلى أول كباريه وجدت واحدا من الجرسونات يعمل ساعيا فى جريدة « الأساس » وقلت له : لا أشرب !

قال ولا يهمك !

وأتى بالينسون ـ الذى هو فى لون الويسكى ـ ووضع فيه الثلج . وقال لى : إشرب .. أو حاول !

وكان طعمه لعينا . وهذا يفسر القرف الذى أصابنى فى أول ليلة ..

وعرفت فيما بعد أنه يمكن أن نشرب الكوكا ـ وأن الخمور ليست إجبارية . وأسعدنى ذلك ..

وعندما حاولت أن أفسر بالضبط ماالذى أصابنى . وجدت أننى تخيلت نفسى مطربا فى أحد الكباريهات . وكنت اتمنى أن أكون مطربا . وليس من المعقول أن أكون محمد عبد الوهاب من أول أغنية .. ولابعد مائة . إذن لو كنت قد حببت الطرب أسلوبا فى الحياة ، لكان من الممكن أن أكون مطربا متوسط الفن .. وأن يكون الكباريه هو المكان الذى سوف أغنى فيه .. ففيه الناس لايسمعون . وإنما هم مشغولون عن المطربين بالفتيات والخمور .. ووراء هذا العدد الكبير من الفتيات والراقصات صاحب المحل الذى يريد أن يجمع أموالاً بأى شكل وبسرعة .. فهو صاحب هذه السلخانة البشرية .. وسوف يكون مستقبلى محددا برضاه وغضبه .. واستجابة الناس لصوتى .. وأفزعتنى هذه الفكرة وهذه الصورة وهذه النهاية .. فكان التفكير فى ذلك أسوأ طعما من الينسون بالثلج !

وفى يوم اقترحت إحدى موظفات البرنامج الأوربى أن أرافقها إلى كباريه « سكارابيه » ـ وهو كباريه عظيم الاحترام . وقالت : على حسابى .. وسوف ترى الملك فاروق .. والمطلوب هو ألا تنسى الكرافتة !

وقبل الموعد المتفق عليه ذهبت أقف امام الكباريه .. العربات كثيرة .. وهناك منادون وسائقون .. وسفرجية . وموظفون يرتدون اليونيفورم .. وجاء رجال الشرطة .. وأصبح الوقوف أمام الباب صعبا .. ثم إننى لا أعرف إن كانت هناك تذاكر للدخول .. أو كانت هناك ترابيزة محجوزة ولا إن كان من

الممكن أن ادخل وأن انتظرها . ثم من الجائز ألا تجيء في موعدها .. ولا أعرف إن كانت عندها سيارة أو أنها سوف تجيء بالأتوبيس ..

وجاءت بعد ساعة طولها مئات الساعات !

ولم تكد تراني حتى وضعت ذراعها في ذراعي ودخلنا .. ولكن لابد أنه الموقف الذى يحتم أن يكون الناس اثنين اثنين .. ولا أظن أننى قلت شيئا مضحكا أو حتى قلت شيئا يجعلها هكذا تضحك وتتمايل ناحيتي وتخفى رأسها في ذراعي .. هى أمامي وأنا وراءها . وجلسنا . وقالت لى : ياأخى أنت خيبة ثقيلة .. طول الوقت أكلمك وأنت لاترد .. إنت إيه .. ألم تر الحرس الملكى أمام الباب ووراءه .. إن الملك سوف يجيء .. إذن لابد أن ساميه جمال سترقص أو كاريوكا .. حظك من نار .. لقد جئت هنا أكثر من مرة .. فلا جاء الملك ولا واحدة منهما رقصت لنا !

لابد أنها الكرافتة هى التي جعلتنى أشعر طول الوقت أننى مخنوق .. ثم إننى لست مستريحاً لأى شيء .. لا المكان ولا الموسيقى الأوربية .. ولا لأنها تشرب كثيرا وتتلفت حولها أكثر .. كأنها في انتظار أحد .. وأنا لست إلا « نمرة » ... ثم إن كثيرين يعرفونها .. ويصافحونها .. وتقدمني لهم على أننى إبن خالتها ، وأننى غريب عن القاهرة . وكثيرون يحدثونها رمزا . أى أن بينهم حكايات مشتركة وبعضهم ترك بطاقته وكتب رقم تليفونه . وبعضهم طلب إلينا أن ننتقل إلى مائدتهم . وسألتنى إن كنت أحب ذلك . ويبدو أننى رفضت وبقينا وحدنا طول الليل . أو على الأصح بقيت وحدى فهى قد وجدت أشياء تتسلى . فهى في حديث مستمر مع المناضد المجاورة بالايطالية والفرنسية والانجليزية واليونانية .. ودون أن أستأذن منها ، انسحبت وعدت إلى البيت . ولم تسألنى . فلعلها ظنت اننى سوف أذهب إلى دورة المياه ..

وحاولت بعد ذلك أن تنبهنى إلى أنها سكرتيرة إحدى الجمعيات الدينية . وأنها مسئولة عن إقامة حفلها السنوى ، ولذلك فهم جميعا يعرفونها .. وعرفت بعد سنوات أنها كانت مسئولة حقا وصدقا . وعرفت أن ضيقى بها دليل على سذاجتى فليس لى حق عندها . ولا لها عندى . وإنما هى دعوة إلى سهرة . وإذا طلع النهار ، فكأن شيئا لم يكن ...

وبعد ذلك وجدتنى أختار الكباريهات التى أذهب إليها . وأدخلها وحدى واثقا مطمئنا تماما . قادرا على أن ارى كل شىء بوضوح . وعندى إجابة عن كل سؤال . وأحيانا أسأل وأستنكر مثلا : ألا يوجد مفرش أنظف ؟ ألا يوجد مقعد ليس مخلوعا !

وكانوا يغيرون المفرش . ويأتون بمقعد سليم . أو أقول : هذا السودانى قديم .. هذه البطاطس لها رائحة الجاز ! أين المدير ؟ أو أين الست صاحبة الكازينو .. مش معقول ؟ !

وجاءت صاحبة الكازينو . وقدموها . وقدمت نفسى . قالت :

- أنت تجىء هنا كثيرا .

- ليس كثيرا .

- ولماذا لا تجىء كثيرا .. هذا أحسن محل .. وأحسن نمر .. إنت إيه ؟

- صحفى .

- تعرف فكرى أباظة .. وإحسان .. ومصطفى أمين .. التابعى عرفته زمان قوى ..

- نعم

ولم أكن رأيت واحدا منهم حتى ذلك الوقت . وانما هى أرادت أن تقول أنها تعرف من هم أكبر منى .. وأن وجودها معى ليس إلا تفضلا عظيما منها .. و تشجيعا أو جرجرة لرجلى .. أو مجاملة لصحفى مثلى . دعنى أصف لك ملامحى : نحيف جدا .. أرتدى قميصا وبنطلونا .. القميص واسع والبنطلون ضيقاً وشعرى قصير جدا .. وتراني جالسا يخيل إليك أننى أستعد للخروج .. فأنا أجلس على طرف الكرسى .. وأتحرك يمينا وشمالا .. وإذا نظرت تجدنى ، فأن هذا القلق يضايقك .. وفى إحدى المرات ، هددتنى هذه السيدة بأنها سوف تربطنى فى الكرسى .. حتى لأبدو كأننى شربت وأكلت وأريد أن أهرب قبل أن أدفع !

وفجأة قالت لى : تعرف أننى أحب الكتابة .. لقد كتبت شعرا .. تحب تسمعه ..

ونادت على أحد الجرسونات وأتى بدوسيه من أحد أدراج مكتبها ..

وأخرجت الورقة الأولى . وقرأت ولاحظت أننى أتشكك فى أن يكون ذلك من نظمها . وقالت : معك حق .. فأنا لم أتعلم الشعر .. ولكنى أحس أن عندى رغبة في أن أقول كلاما موزونا .. أنا عرضته على صالح جودت .. تعرفه .. وعلى مأمون الشناوى .. تعرفه .. أنا عندى لك مفاجأة فقد أحضرت العدد الذى صدر من جريدة « الأساس » وكانت لى قصيدة مترجمة من الأدب الألمانى .. وكانت موزونة ولكن لم تكن لها قافية .. فإذا بها قد جعلت للقصيدة قافية .. نفس القصيدة مع تغيير بعض الكلمات !

ولم أكن أتصور أنها تعرفنى . ولكنهم فى الكباريهات يعرفون كثيرا . وأكثر مما تتصور .. ولم أستبعد أن يكون أحد الجرسونات قد أخبرها بذلك !

وبعد ذلك بسنوات طويلة سألت الشاعرين صالح جودت ومأمون الشناوى عنها ، فأكدا أنها شاعرة ممتازة وأنها اخطأت الطريق إلى المجد .. وأنها لا تريد أن تصحح المسار .. فتختار الشعر والفقر !

وقرأت كثيرا عن علاقة الادباء والشعراء والفنانين بالغانيات . وعن حياة الليل والكباريهات والحانات والمواخير . ووجدت هؤلاء الفنانين سعداء فى هذا الجو البعيد عن عيون الناس .. البعيد عن قيود المجتمع .. على هامش القانون والخروج عليه .. ففى استطاعة كل إنسان أن يفعل ما يريد .. وأخطاؤه كلها مقبوله .. وكل هؤلاء الناس هاربون .. لاجئون .. جاءوا ينسون أنهم آباء وأزواج .. إنهم مسئولون عن شىء أو عن أحد .. مثل الذين يهربون إلى أحد المخابىء أثناء الغارات الجوية .. فهم فى حالة فرار من الخطر .. من الموت .. إنهم مساهمون فى أكذوبة عامة : فلا أحد يرى أحدا على حقيقته .. ولا يريد ذلك .. وكلهم يكذبون .. ولكن الكذب لا يكلف شيئا . وهم بعقولهم .. يدخلون هذه الأماكن ليفقدوا عقولهم تماما كالذى يحب ليفقد عقله .. والذى يدمن ليفقد إرادته .. والذى يستسلم ليفقد كرامته .. انهم جميعا مرضى وأطباء .. والأطباء مرضى .. والدواء هو الداء .. وأكثر من رواد الكباريهات ومن كل الأكواب والزجاجات والفتيات : الوعود الكاذبة .. فالناس يتنفسون وعودا بالتوبة ووعودا بالحب ووعودا بالزواج .. ولكنهم ينسون كل ذلك عندما يطلع النهار .. فإذا طلع النهار ، بدأوا يستعدون لليل ، هربا من النهار ، وقبل أن يطلع عليهم نهار جديد ..

وكنت على يقين من أننى لا أستطيع أن أستمر طويلا فى السهر . فلابد أن أصحو مبكرا ، وأن أقرأ وأن أكتب . لابد . هذه عادة . وهذا أسلوب حياتى . ثم إننى لا أستطيع أن أكتب كل أسبوع عن مشاعرى فى الكباريهات .. ثم إن فى دنياى أشياء أخرى كثيرة تستحق إهتماما مماثلا أو مضاعفا .

وفى يوم ذهبت مع بعض الأصدقاء إلى هذا الكباريه . وجاءت صاحبته وجلست إلينا وقالت : أنتم ضيوفى ! ثم التفتت ناحيتى : لا مؤاخذة . هذه المرة ضيوفى أنا .. والمرة القادمة أنا معهم ضيوفك !

وكانت هذه السيدة لا تشرب الخمور ، ولا تأكل . واقتربت منى وسألتنى :

- هل أنت تحب ؟

- قلت : لا ..

- قالت : أقصد إحدى البنات هنا ؟

- لا ...

- وأنت لا تشرب .. فلماذا تجىء كثيرا . إننى لم ألاحظ أى تطور عليك .. ولا حتى .. الانبساط .. فلماذا تجىء .. تعال فقط عندما تكون مرهقا وتريد أن تفرفش .. لاتعد مرة أخرى !

ولم أعد إلى هذا الكباريه ، ولا إلى أى كباريه آخر . وكتبت هذه التجربة وتعمقتها وحددت مكانى منها .. وبعد سنوات ذهبت أبحث عن هذه السيدة الطيبة التى أدهشتنى نصيحتها ، وهزتنى أيضا . ويقال إنها فعلت ذلك مع كثير من الشبان الذين توسمت فيهم أن يكونوا أحسن ..

وهذا ما سمعته من الأستاذ محمد التابعى بعد ذلك !

وفى ذلك اليوم أمضينا ليلة ممتعة جميلة . تفرجنا . وتحدثنا معها ومع غيرها . وضحكنا . وعند الفجر عدت إلى البيت .. وعندما ذهبت إلى مكتبى وجدت رئيس التحرير قد ترك لى رسالة عاجلة . وترك أرقام تليفوناته فى كل مكان . وأزعجنى ذلك . وفى التليفون قال لى : البوليس يبحث عنك . أين كنت بالأمس ؟

ولم أنتبه ونحن فى الكباريه إلى أن خناقة نشبت وأنهم بسرعة قد أخمدوها . والتفوا حول أطراف الخناقة بسرعة ، لدرجة أن الزبائن لم ينتبهوا إلى ذلك .

وأن رجال البوليس قد عرفوا أننى كنت أحد الموجودين وأنهم يريدون أن يأخذوا أقوالى .

وفى نقطة بوليس الأزبكية التقيت بأحد الضباط وكان زميلى فى المدرسة .

وهو الذى يريد أن يستوضحنى ما الذى حدث . وكان الحوار هكذا :

- أنت كنت موجوداً ؟

- نعـــم .

- بالضبط ماذا رأيت ؟

- لاشيء .

- كيف . إنها الترابيزة المجاورة لك .. وكانوا يلاحظون أنك تتابع كل ما يقولون .. ولما وصلت الخناقة إلى حد التراشق بالزجاجات كنت تنهض .. ولكنك عندما لاحظت أن رجلا جاء من الخارج وألقى ماء النار على إحدى الراقصات الجالسة وراءك إنزعجت وكدت تنهض ..

قلت : هذه أول مرة أسمع فيها وصفا تفصيليا لما كان حولى .. فأنا لاسمعت ولا رأيت .. أنت تعرف من أيام الدراسة أننى أسرح كثيرا .. وأبدو كأننى أسمع وأنا لا أسمع وكأننى أرى ولكنى لا أرى .. وهذا يسبب لى مشاكل كثيرة .. هذه واحدة منها !

- لولا أننا زميلان من أيام الدراسة وأعرف عنك ذلك ما صدقت كلمة واحدة ..

ثم روى لى تفاصيل ما حدث .. وهو أن إحدى الزجاجات كادت تصيبنى فى رأسى .. وأن واحدة استشهدت بأننى كنت أتابع ذلك .. وكأننى أعرف الرجل الذى ارتكب هذه الجريمة البشعة التى قضت على مستقبل هذه الراقصة الجميلة !

هل أردت أن أغرق كل الذى قرأت وتعلمت فى كهوف الليل .. تمنيت ذلك ولكن لم أستطع .. لقد عشت نائما أقرأ ، فهل قررت أن أستأنف النوم ولكن بصورة أخرى ؟ ربما !

ثم عندما أطلت الكلام الآن عن تلك الأيام ، أردت أن أغرق ذكراها أيضا ؟ يجوز ..

وعلى مدى كيلو متر واحد من شارع الشواربى توجد دار الأوبرا .. مديرها الفنان الكبير سليمان نجيب .. ووكيلها صديقى الشاعر عبد الرحمن صدقى .. وسكرتيرها الأديب الصديق صلاح ذهنى .. ومدير المسرح الصديق شكرى راغب ..

وكان مكانى المفضل وراء الكواليس .. ومن غرفة شكرى راغب نرى ونسمع الأوبرات الإيطالية والباليه الروسى .. والمسرحيات الإنجليزية والفرنسية . ولم يكن هناك سبب من وقوفى وراء الكواليس الا أننى لا أملك بدلة قاتمة . لابد من بدلة ولابد أن تكون قاتمة ...

ولكن المسرح له مذاق خاص من الكواليس .. والممثلون والراقصات كائنات بشرية تضحك وتعرق وتخاف . ولكن إذا ظهر الواحد منهم على المسرح أصبح إنسانا آخر .. أو حيوانا آخر .. وانتقل من هذا العصر إلى عصر المسرحية ، كلاما وحركة .. ولم يعد يملك من أمره شيئا .. فهو أداة أطلقها المخرج بكلمات المؤلف فى قيود وقوالب محددة نهائيا ..

وكانت الأوبرا « من أهم أحداث حياتى » .. وأروع أحداثها .. وكانت قصة متصلة تبدأ كل ليلة ولا تنتهى .. قبل العرض المسرحى وأثناءه وبعد أن ينتهى ويبدأ الكلام عنها فى غرفة شكرى راغب . وفى المطعم بعد ذلك ...

وفى الأوبرا وجدت راقصة الباليه العالمية تمارا تومانوفا .. أعظم راقصات روسيا فى ذلك الوقت . إنها صاحبة أجمل ابتسامة . ولكن عندما تظهر على المسرح فهى إنسان آلى دقيق حساس . ليست فيها أية إنسانة من أى نوع .

وفى إحدى الليالى اكتشفت أن حذاءها قد سرقوه . وهى عادة مألوفة فى أوربا . يسرقون حذاء الراقصة التى يعجبون بها .. وأحيانا يضعون فيه النبيذ ويشربونه .. فسارت فى شوارع القاهرة حافية القدمين ..

ودخلت تمارا أحد المطاعم اليونانية . وأقسم صاحب المطعم أن يغسل قدميها فى طشت بالشمبانيا .. وأن يقدم ذلك لمن يريد من الضيوف . ٩٠ ٪ شربوا !

ورأيت المايسترو الألمانى فورتفنجلر أعظم قادة الأوركسترا فى أوربا كلها .. وقد أقنعه عبد الرحمن صدقى أن يذهب إلى مقهى الفيشاوى . وقرر

الرجل أن يذهب . ولم أعرف ما الذى أقدمه له . أو ما الذى أقوله .. ولم أكن أعرف أنه إبن نكتة إلا عندما نظر إلى حى سيدنا الحسين ورأى الناس فى حركة متصلة .. وضوضاء . ورائحة الشواء والبخور والشيشة .. وإذا به يتوقف قائلا : لابد أن يكون الكون عند بدء الخليقة هكذا .. ثم إن الله نظمه بعد ذلك !

وعرفت الممثلة الفرنسية ميشيل مورجان .. وجلست إليها . ووجدتها تتكلم فى الأدب كأديبة ، وفى الفلسفة كأستاذة ، وفى النحت والموسيقى وليالى باريس وحياة الكباريهات .. ومن هم الأدباء الذين فضلوا الكباريهات على أرفع الدرجات العلمية .. ومن هن الغانيات اللاتى تركن بصماتهن فى الأدب الفرنسى .. وكم عدد الأدباء الذين تزوجوا غانيات .. وكيف أن الأدباء يولدون مرتين : مرة فى البيت ومرة فى الكباريه .. وأن الأدباء يتناولون الخبز مرتين : مرة يتناولون الخبز المقدس المغموس فى النبيذ من يد الكاهن ، ومرة فى الكباريه من يد الأرتست ..

وقالت : إنه لولا الكنائس والكباريهات ما كان الأدب والفن .. فالكنائس حددت حرية الفن ، فثار عليها .. والكباريهات أكدت هذه الحرية ، فهرب إليها ...

وقالت : إن الأديب اندريه جيد قال إنه كان يستمد أحداث قصصه ورواياته من تحقيقات الجرائم فى الصحف .. لأن هذه الجرائم هى نتيجة الصراع بين القانون وحرية الإنسان . ولم يكن فى استطاعته أن يذهب إلى الكباريهات لأنه يفضل الشبان على النساء .. ولكن كل أدباء فرنسا العظام أمضوا نصف أعمارهم فى ظلمات الحانات .. وفى غياب القانون والعادات والتقاليد والضمير أيضا !

وقالت ميشيل مورجان : إن كل الذين أحببتهم وأخطأت فى فهمهم كانوا جالسين معها فى مقاهى باريس .. وكل الذين أحببتهم كانوا معها فى الكباريهات .. فالقهوة تفسد العقل ، والخمر تصلحه ؟ !

ومن ميشيل مورجان عرفت مالم أكن أعرف من دنيا الليل ومخلوقات الليل وعشاق الظلام الكافرين بالشمس والمنطق وكل المذاهب الفلسفية !

وفي يوم تلقيت بالبريد نسخة من كتاب « العلاقات الخطرة » للأديب الفرنسي لاكلو . أما الاهداء فهو : « إذا لم تكن لديك علاقات خطرة » ميشيل مورجان .

وعلى مدى امتار من الأوبرا : سور الازبكية .. أعظم معرض للكتب المصرية والعربية والأوربية .. وكلها كتب قديمة .. رخيصة الثمن .. كتب من كل لون ونوع وحجم وسعر .. وقواميس ودوائر معارف .. وأمام السور التقى كل أبناء مصر عشاق الكتاب .. عشاق السوق الثقافية .. وأصدقاؤنا الدائمون هم الباعة .. شبان وشيوخ .. يعرفوننا ونحبهم ويحبوننا .. وتربطنا جميعا صلة واحدة : القارىء .. فنحن عندما نذهب إليهم فنحن قراء .. جاءوا يتفرجون على الكتاب .. كم قاموسا اشتريت كم دائرة معارف بقروش .. كم كتب على السور وعليها إهداء المؤلفين .. هل باعها أصحابها ؟ .. هل هي سرقت منهم ؟ .

سألني الحاج إبراهيم : هل تريد مؤلفات أناتول فرانس كلها جلدة ذهبية ؟

أريدها طبعا . ولكن أن تكون في جلدة ذهبية سوف يجعلها غالية الثمن .

فقلت : أتمنى لو كانت من غير هذه الجلدة الذهبية .

قال كما يقول كل يوم : ولايهمك .. بكره إن شاء الله كتبك تباع في جلدة ذهبية .. خذها وإدفع على مهلك !

وكانت هناك بائعة للكتب اسمها « الست أم حنيفة .. زوجها مات عنها وترك لها عددا من الاولاد .. ووجدت صعوبة في أن تعرض كتبها على سور الأزبكية . ولكن كان هناك من يبيع لها كتبها . فكان يقول : أم حنيفة تسلم عليك ...

- الله يسلمها . ماذا عندها ؟

- عندها كتاب « الإمتاع والمؤانسة » لأبي حيان التوحيدي في طبعة بيروت .. ليس غاليا .. عندها « البخلاء » للجاحظ طبعة بغداد .. عندها « سيرة ابن هشام » طبعة بيروت .. وعندها ماكولي وهازليت وكاردوتش ورابليه وسرفانتس مجلدة تجليدا فاخرا .. ولكنها ليست كاملة .. ورخيصة الثمن .. يمكنك أن تذهب إليها في البيت وتتفرج على مهلك .. كان عندها العقاد والمازني وعبد الرحمن صدقي ومدام طه حسين ...

وكانت الست أم حنيفة لاتقرأ بأية لغة أجنبية . ولكنها تعرف أشكال الكتب وألوانها .. وتتساهل كثيرا جدا عند الدفع .. وعلى الرغم من أن حالتها المادية صعبة ، فإنها لم تكن تلح فى الدفع فورا .. فلا يملك الانسان أمام أدبها ورقتها إلا أن يدفع فى أسرع وقت .. ولم يكن ظهور أولادها ونحن نتفرج على الكتب وسيلة للضغط علينا لكى نقدر ظروفها .. وإنما البيت مكون من غرفتين فقط . إحداهما لعرض الكتب ...

ولم أنتبه لوجود تمثال إبراهيم باشا فى ميدان الأوبرا ، إلا متأخرا جدا .. ولا رأيت ، جروبى ، القريب من الميدان أيضا . ولاكباريه بديعة مصابنى إلا بعد أن أصبح إسمه كباريه صفيه حلمى .. فقد كان مسارى محددا تماما .. أخرج من البن البرازيلى وأمشى فى نفس الشارع إلى نهايته .. فأجدنى فى دار الأوبرا .. وبعدها عند سور الأزبكية ...

هنا إذن مسرح العمليات الصحفية والادبية فى ذلك الوقت .. إنه مستطيل يبدأ من شارع الشواربى والإذاعة والبن البرازيلى ومكتبة سميث ومطعم اكسلسيور ومطعم أرتين بالقرب من الأوبرا أرخص المطاعم وأنظفها وأصغرها أيضا . ثم سور الأزبكية ذهابا وإيابا .. أو وقوفا أو جلوسا .. هذه المساحة الضيقة من الأرض هى المسرح .. هى الورشة هى حقل التجارب .. هى المعمل .. هى ، البيت ، الذى تتحرك عليه الأفكار المتراقصة .. هذه هى منطقة إنطلاقنا إلى سماء الصحافة والادب والمسئولية من نهاية أربعينات هذا القرن ...

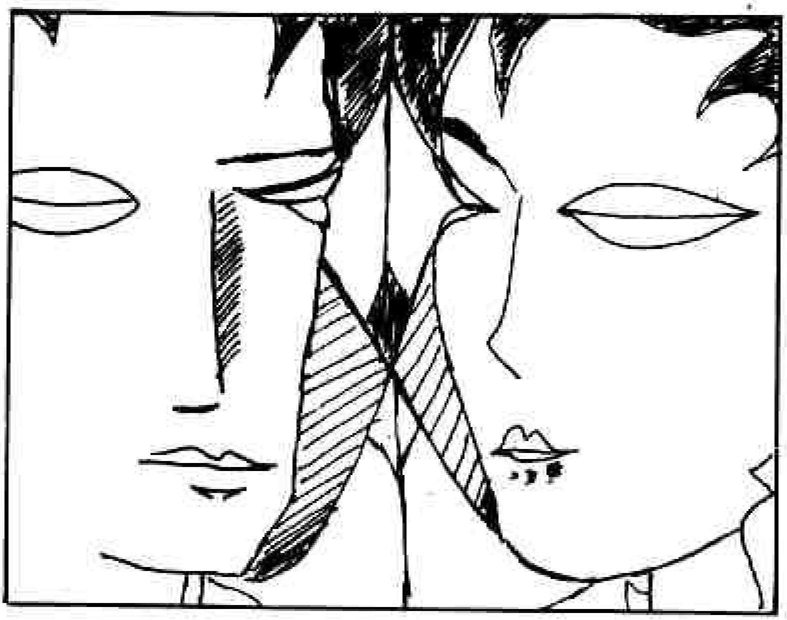
ومع بداية الخمسينات ذهبت إلى العمل فى جريدة الأهرام التى تبعد عشرات الأمتار .. ومنها فى ، روز اليوسف ، التى تبعد عنها مئات الأمتار .. ثم إلى ، أخبار اليوم ، التى تبعد مئات أخرى .. والتى أمضيت فيها ربع قرن وعلى مدى ألف متر من ، أخبار اليوم ، ذهبت إلى دار المعارف لإصدار مجلة ، أكتوبر ، ..

وكنت أتعجب كيف أنّ الراقصة تتحرك كأفعى فى مسافة صغيرة من الأرض .. تساير الموسيقى وتعانقها .. فإذا مشت فى الشارع فهى لاتعرف كيف تمشى ...

رأيت راقصات ينكسرن في الشارع ، وتكاد الواحدة تقع . ماذا حدث ؟ إنها قادرة فقط على الحركة في مسافة صغيرة ، ولكن إذا اتسعت المساحة ، وكان المطلوب أن تمشي لا أن ترقص ، ارتبكت خطواتها وتعثرت جزمتها ...

ونحن أيضا : قادرون على الحركة وعلى النشاط وعلى القراءة والكتابة في هذا المجال وفي هذه المسافة ، فإذا خرجنا منها لم نعد قادرين على فعل شيء آخر .. فقط القراءة والكتابة .. والتعليق على الذي قرأنا والكتابة عن الذي كتبه الآخرون .. فهذا هو عالمنا .. وهذا هو مجالنا .. وهذه القاعدة التي انطلقنا منها كل واحد في اتجاه .. انطلقنا واتخذنا مدارات عالية حول « الكلمة » . كأننا أحرار في كل ذلك ..

والحقيقة أننا مشدودون مجذوبون مجاذيب ، تجاوزنا مرحلة : الإرادة والإختيار .. وإذا حاولنا أن نفلت من الكلمة عدنا بها إليها .. فنحن محكوم علينا بالأفكار الشاقة المؤبدة حتى الموت !



في البدء كانت كارمن

فى البدء كانت كارمن

عندما رجعت إلى مذكراتى وأنا تلميذ فى المدرسة الثانوية أدهشنى ما كتبت وأدهشنى أكثر أننى كنت حريصا على إخفاء هذه المذكرات عن كل أحد فى البيت أو فى المدرسة مع أنه ليس فيها شىء شخصى . ولو قلبها أى إنسان فلن يلفت نظره شىء .. ولكن حرص الصغار على أن يبدوا كبارا . لهم أسرار . ولهم خصوصيات . وأن هذه « الأمور الشخصية » يجب أن تظل بعيدا عن عيون وآذان وألسنة الناس . ولاحظت أننى كتبت تحليلا لملامح المدرسين . ويبدو أننى كنت فى ذلك الوقت أعتقد أن كل صفات الانسان مكتوبة على وجهه : فالجبهة العريضة دليل على الذكاء .. والرأس الضخم والعينان اللامعتان والشفتان المضمومتان والصوت المليء والأصابع .. ولا أعرف من أين أتيت بهذه المعلومات ، أو حتى على أى أساس أقمت قواعد نفسية لفهم أى إنسان ..

وهى ولا شك أفكار ساذجة .. تدل على أننى إنسان خجول .. فبدلا من أن أجرى حوارا مع أحد ، فإننى أغلق باب غرفتى وأدير هذا الحوار كتابة وتحليلا .. فكأننى أتعامل مع زملائى وفى جيبى « دليل » صغير لسلوكهم ومفتاح أصغر لشخصية كل واحد منهم .. فإذا حدثنى واحد منهم ، فإننى بسرعة أضع لما يقول معنى خاصا .. كأن الذى يقال لى عبارة عن أفلام سلبية (نحاتيف) ، وأنا أقوم بتحميضها وتلوينها فى صندوق سرى فى غرفة مظلمة هى عقلى .. فكأننى معهم ولست معهم ..

وبنفس السرعة التى أحكم بها على الناس ، كنت أغير هذا الحكم . لأنه يخالف الواقع .. وهذا يدل أيضا على أنه من السهل التأثير على أحكامى .. فأنا إنسان عاطفى . ولكن محاولة أن أكون منطقيا تحليليا هى حيلة أخفى بها سذاجتى ، وخجلى ..

وفى هذه المذكرات آراء مضحكة وحكايات صغيرة ، حاولت أن أجعل لها معنى كبيرا ، ولكن لم يقع فى حياتى حادث كبير ، أو صادفت شخصا باهرا ، ولا قرأت كتبا خبطتنى فى رأسى وجعلتنى أفيق مما أنا فيه .. أو غيرت أسلوب حياتى .. أو حولت طريقى من جهة إلى أخرى .. فلم أكن فى ذلك الوقت إلا تلميذا مجتهدا .. دنياه هى الكتب المدرسية ، وآخرته أيضا .. والهدف أن أنجح وأن أكون الأول . لماذا ؟ لا أعرف . ولكن هذا هو السبيل ، وهذه هى الغاية .

وسمعت من زملاء لى أنهم يكتبون مذكراتهم أيضا . ولم أسأل ولم أعترف . فقد كانت هذه المذكرات حوارا خصوصيا . هل هى متعة ؟ هل كان لها أى هدف آخر .. كأن أنشرها يوما ما . أبدا .. إننى أقفل الباب وأخرج الورق وأكتب . وأسجل وأعتب على الزملاء وألعن الأيام . لماذا ؟ وأتحدث عن الحب وأنا لا أعرف ما هو .. ولا أحببت . ولا أعرف كيف أحب لو أردت . ولكن سمعت زملائى يتحدثون عن مغامرات وقصص . ولاحظت أن كل الذين يتحدثون عن الحب هم الذين لهم شوارب وهم الذين يدخنون أيضا .. وهم الأغنياء .. إذن التلميذ الغنى هو الذى يربى شاربه ويدخن ويحب ، وتحبه البنات !!

ووجدتنى أسجل الشعر الذى أحفظه ولا أعرف الشعراء الذين نظموه . وإن كنت قد عرفت فيما بعد .

مثلا كتبت فى مذكراتى وكنت فى الثانية الثانوية بالمنصورة . وأنا الآن أنقل من ورق أصفر صغير . هو ظهر البرقيات ، فقد كان أحد إخوتى يعمل فى التليفونات والتلغرافات ، وكان يمدنى بهذا النوع من الأوراق :

على قدر الهوى يأتى العتاب
ومن عاتبت يفديه الصحاب
ألوم معذبى فألوم نفسى
وأغضبها ، ويرضيها العذاب
ولو أنى استطعت لتبت عنه
ولكن كيف عن روحى المتاب

يلوم اللائمون وما رأوه

وقديماً ضاع فى الناس الصواب

إذا ما اعتضت عن عشق بعشق

أعيد العهد وامتد الشراب

كأن رواية الأشواق عود

على بدء ، وما كمل الكتاب ..

ولا أعرف الهوى ولا أعرف الشراب ولا أعرف لوم اللائمين ولا أدرى ما معنى أن يعجز الانسان أن يتوب عن الحب .. ثم ما هو هذا الحب ؟ ولكن لابد أن أعجبنى الشعر وموسيقاه ، ولا بد أننى كنت أكرر ذلك كالببغاء . فليس المعنى وإنما هى الموسيقى !

وفى صفحة أخرى وجدتنى قد نقلت بعض هذه الحكم ، ولا أعرف من هو صاحبها :

لا تطالب بظلامتى أحدا

عينى وعقلى فى دمى اشتركا

* * *

ولا رأى فى الحب للعاقل !

* * *

والجوع يرضى الأسود بالجيف !

* * *

وهكذا كنت فى أهلى وفى وطنى

إن النفيس غريب حيثما كانا !

* * *

وأصبح شعرى منهما فى مكانه

وفى عنق الحسناء يستحسن العقد !

والهجر أقتل فيما أراقبه

أنا الغريق فما خوفى من البلل

* * *

وقنعت بالقليل وأول نظرة

إن القليل من الحبيب كثير !

* * *

إذا ما الناس جربهم لبيب

فانى قد أكلتهم مذاقا

فلم أر ودهم إلا خداعا

ولم أر دينهم إلا نفاقا !

* * *

وصفحات أخرى كثيرة من الشعر الذى له مذاق الحكمة .. ولعلى قد نقلتها من كتب ، أدب الدنيا والدين ، للماوردى .. لعلى .

ففى ذلك الوقت كنت أرى ، بل كنت أعتقد .. بل كنت دون تفكير منى ، أذهب إلى المدرسة ثم إلى البيت .. ثم من البيت إلى المكتبة والعكس ، هذه هى الدنيا . ولذلك لم أتوقف لحظة أمام إحدى دور السينما .. سينما عدن أو سينما ركس .. ففى مداخل السينما توجد صور للنجوم .. والناس يقفون ويدخلون . ويخرجون . ولم أفكر مرة واحدة أن أدخل السينما . ولا معنى ولا سبب ولا مبرر . ولم أسأل أحدا عن السينما ولا ما الذى رآه . ولا حدثنى أحد . ولا دعانى أحد . وحتى عندما يعلنون عن الأفلام الجديدة بالطبل وحمل صور الجميلات فى الشوارع ، لم أكن أتوقف لأرى . فلا وقفت ولا رأيت ولا فكرت . وهو شىء غريب عجيب . كأن السينما طعام لا أذوقه . كأنها مكان محرم . كأنها لا وجود لها . ولكن لماذا ؟ لم أجد أسبابا واضحة . ولكن هذا ما حدث ..

وفى ذلك الوقت بالصدفة وجدت كتابا اسمه ، الحب والدسيسة ، للشاعر

الألمانى شيلر من ترجمة حسن صادق .. وقرأت القصة فى جلسة شغلتنى هذه القصة ولم أكن أستوعبها . عدت إلى قراءتها مرة أخرى . وجدت حوارا غريبا بين الأب وإبنته . حفظت جملة أو جملتين جملة تقول : إذا باض الشيطان بيضة أفرخت بنتا جميلة ؟!

وجملة أخرى تقول : إن الشاب الذى يطلب منى أخطب له ابنتى ، لا يلهمنى الثقة به ..

هذا كل ما أتذكره من تلك الرواية . فما معنى هاتين الجملتين . وما أثرهما فى نفسى ؟ ولماذا هاتان الجملتان . لا شىء إلا تركيب الجملة وغرابة المعانى . فلا فى حياتى حب ولا دسيسة . ولا أنا ذلك الشاب الخجول الذى ذهب إلى والد الفتاة يطلب مساعدته فى اقناع إبنته بالزواج منى .. لا شىء .. ولكن لابد أننى كنت أتلصص على عالم المرأة من بعيد .. لا عندى فرصة .. ولا وقت ولا عندى شجاعة .. ورغم القصص التى أسمعها ، ورغم الفتيات التى أراهن ، لا أجرؤ على النظر إلى واحدة ، وإذا نظرت لا أعرف ما الذى يمكن أن يحدث بعد النظرة أو الابتسامة أو السلام أو الكلام .. لا شىء من كل ذلك .. ولاحظت أننى أحب الاستماع إلى هذه المغامرات . وأننى عندما أعود إلى البيت أسجلها .. أى أعيشها مرة أخرى .. أو اقترب منها أو أشارك فيها . ولكنى فى ذلك الوقت لم أنفرد بواحدة أو بقصة أو مغامرة .. وإن كنت أتمنى ذلك .. وفى المذكرات وجدت أننى أحكى قصة من خيالى ومن وهمى .. قصة واحدة جارة .. ووجدتنى أصفها هكذا : شعرها أسود وعيناها أيضا . وحاجباها وشفتاها . ومشيتها كأنها بطة أو وزة . إذا تجاوزتنى كأنها لا تعرفنى . فإذا تابعتها استدارت لتنظرنى بسرعة .. ثم يتولاها الخجل . فقد ضبطتها ولذلك تندفع إلى بيتها وتغلق الباب وراءها بشدة . وفى المرة الثانية عندما اقتربت منها وهى تقول : أحبك .. حتى إذا لم تكن تحبنى !

وهى قصة لم تحدث . ولكن أريدها أن تحدث . وأن تكون هى البادئة . وهى التى تحب وأنا أتردد . أو أرفض . والمعنى : أننى أتوهم ما ليس كذلك !

وفى إحدى المرات وجدت هذه الفتاة تقف مع زميلات لها أمام سينما عدن ..

ووجدتها تشير بالتذاكر فى يدها ، أو هكذا توهمت .. أى أنها تقول : تعالى معى .. معنا .. أنا قطعت لك تذكرة !

ووجدتنى أكتب فى مذكراتى . أنها تهجمت ووضعت التذكرة فى يدى وقالت : تعال ..

وتذكرت زليخة زوجة بوطيفار وما فعلته فى النبى يوسف عليه السلام . إنها هى الأخرى قالت له تعال .. القرآن الكريم يقول : « وقالت هيت لك » !

وإننى رفضت .. وهى قصة أيضا لم تقع . وإنما أنا تخيلتها . أى أننى أتمنى لو تحدث .. أى أتمنى أن أرفض الحب والفتاة معا .. ويكون هذا الرفض تعاليا وكبرياء . وهى عقدة أن أحدا لا يكلمنى ولا أكلمه . ولا اقتربت ولا عرضت أنا ولا هى عرضت . لا شىء من ذلك !

والمعنى : أننى أريد ولكن لا أستطيع . لماذا ، لأن هذا يخرجنى بالقوة عن المألوف .. أى عن الذى اعتدت عليه .. وأنا اعتدت على أشياء أخرى غير ذلك .

ولم أناقش نفسى فى ذلك الوقت : ما هذا الذى أعمله أو الذى لا أعمله ؟ فمثل هذا النوع من التأمل ترف عظيم .. فلا وقت للتأمل : إننى أجمع المعلومات وأرتبها وأعيد ترتيبها من حين إلى آخر .. ولا وقت لغير ذلك !

ولما ذهبت إلى القاهرة ، لم يتغير شىء . كنت أمر على دور السينما والمسارح والملاهى . وأرفع رأسى ثم أديرها . وكنت أتمنى لو أن أحدا سجل هذه الصورة : شاب ريفى يمر بكل هذه الأماكن ويرفضها ويزهد فيها ويتعالى عليها . وأنه لذلك شاب مستقيم وأنه أفضل . وأنه قد تفرغ للعلم فقط . ولكن كل هذه أوهام أيضا . فلا أحد فى القاهرة يلتفت لأحد . ولا يدرى به ولا يهمه . ولا يدهشه إذا ذهب إلى السينما ، ولا يعجبه إذا لم يذهب .

حتى تخرجت فى الجامعة وانفتحت الدنيا شوارع وميادين ومطاعم ومسارح وأوبرا وسينما ومطارات وموانىء ورجالا ونساء .. وكانت حيرتى أعظم . ودوختى أكبر . وقلقى أعمق . وفزعى أشد ، وعزلتى مطلقة . ولاحظت أننى اعتدت إذا جلست أن أتساند على المقاعد . وإذا سرت إلى جوار حائط أن أتمسح

فيها .. والمعنى : أننى ازددت ضعفا ، ورغبة فى المشى ولمس الأشياء .. أن أقبض على هذه الدنيا الهائلة فى القاهرة .. وأننى غريق وأنى فى حاجة إلى من ينتشلنى . ولكن أخفيت هذا الشعور عن الأصدقاء .. وربما كان هذا الشعور الكاسح هو الذى دفعنى إلى التردد على الجمعيات الدينية والصوفية والفلسفية .. فإننى أريد أن أرتبط بأحد .. ألا أكون وحدى . ألا تنفرد هذه الدنيا الجبارة بشخصى الضعيف . فأنا أريد أن أستعين عليها بالآخرين .

وفى ذلك الوقت اعتدت أن « أقف » أمام محل البن البرازيلى فى شارع سليمان باشا .. وأقنعت الكثيرين من زملائى أن يفعلوا مثلى . وظللنا سنوات طويلة نقف أمام محل البن صباحا ومساء .. وكان الوقوف مريحا .. فلا نحن « فى » المحل ولا نحن خارجه .. وإنما نحن كأننا كذلك . أى كأننا فى داخله وكأننا خارجون منه .. وندور مع الوجوه التى نراها .. وندور مع الوجوه التى نتحدث إليها ، وعندنا حرية الدخول والخروج والوقوف .. عندنا حرية عدم اتخاذ القرار .. عدم الاختيار .. وفى نفس الوقت لدينا هذه الشجاعة فى مواجهة كل شىء دون أن نرتبط .. دون أن نلتزم . على أمل أن نفعل يوما ما ..

وفى ذلك الوقت أيضا لاحظت أننى أستطيع أن أنظر إلى الناس فى عيونهم . شىء غريب . لم أكن أقدر على ذلك . وأن أفعل ذلك مع الفتيات أيضا .. وكنت أبالغ . ولم يكن المعنى أننى أبحث عن معنى أو أتذوق جمالا . وإنما فقط أن أمارس شيئا لم أكن أجرؤ عليه .. تماما كما يكتشف الطفل كلمة فيظل يكررها .. وخاصة الألفاظ النابية التى تفزع والديه .. وكلما فزع الوالدان بالغ الطفل حتى يضربه أبواه .. وكنت أبالغ حتى سمعت من تقول : إنت إيه .. إنت تبحلق ثم لا تتكلم إيه ده ؟!

وعلى الجانب الآخر من « البن البرازيلى » يوجد فندق « أوتيل دى روز » . وكان اكتشافا مثيرا جدا .. ففى هذا الفندق تعيش فرق الرقص الأجنبية : شقراوات .. صغيرات .. يجئن كل يوم ويشربن البن السادة من « البن البرازيلى » .. يتكلمن الفرنسية والإيطالية والألمانية .. شىء غريب عجيب .. كائنات كأنها هبطت من كواكب أخرى .. لا يكاد الجرسونات يلمحونهن حتى يقدموا القهوة السوداء والقهوة باللبن والشاى .. إنهم يعرفون بالضبط ما يردن كل يوم . ودون كلام تخرج الفتيات يقفزن كأنهن عصافير

على أشجار مليئة بالشوك .. فهن لا يمشين على الأرض وإنما يلمسنها فقط .. ويطرن إلى حيث لا أعرف ..

صدفة فقط أن سحبت واحدة منهن فنجانها فتناثر على قميصى .. وهى شديدة الاضطراب وبالإيطالية : هل تعرف الإيطالية ؟

هززت رأسى وتذكرت الفتاة التى كانت تمسك تذكرة أمام سينما المنصورة . ووضعتها فى يدى ولكنى مزقت التذكرة ورفضت أن أجلس إلى جوارها فى داخل السينما . وتذكرت قصة زليخة ويوسف عليه السلام .. فلم أشأ أن أقول : إننى أعرف الإيطالية ولا أن أستعرض معرفتى بها .. وإنما هززت رأسى فقط كأننى أرفض أن تنشأ علاقة ما بيننا . مع أننى أتمنى ذلك .. وما دون ذلك ..

فعادت تقول وهى شديدة الخجل : عندنا فى إيطاليا يرون أن سقوط البن على الملابس دليل على أن شيئا جديدا سوف ترتديه قريبا . وأعتقد أن عندى شيئا جديدا لك .. قميصا فاخرا إنه لأخى زميلى فى الفرقة الراقصة وهو فى مثل طولك وعرضك .. لحظة واحدة وأعود إليك ..

واندفعت إلى خارج المحل .. كم مضى من الوقت ؟ ما الذى دار فى رأسى .. ما الذى أدارنى من أولى لآخرى .. وفجأة عادت ومعها قميص وبسرعة فكت زراير القميص .. وبسرعة نزعته وبسرعة كنت أرتدى القميص الجديد .. وبسرعة اختفت لتغسل قميصى وتعيده فى اليوم التالى .. استغرق هذا الحادث دقيقتين . وفى تلك الليلة لم يسعفنى كل ما حفظت من شعر . وما قرأت من قصص وخيالات وأحلام وأوهام .

وفى اليوم التالى جاءت ومعها قميص ملفوف فى ورقة ملونة .. ودعتنى إلى قهوة لأعرف أخاها فى فندق « أوتيل دى روز » .. ووافقت وعرفت أن الفرقة سوف تسافر فى اليوم التالى . وقد دعتنى لأن أتفرج عليهم فى « أوبرج الأهرام » وأنا ومن أريد من الأصدقاء ضيوف عليهم . ويسعدهم ذلك ..

ولم أذهب . لماذا ؟ يمكن تفسير ذلك اعتمادا على ما رويت من لحظات .

ولكن ما حدث فى محل البن البرازيلى ، ظل يتردد فى عينى وفى أذنى كل يوم . وبسرعة وجدت شريطا مسجلا فى أذنى وعينى لا يتوقف عن الدوران ليلا ونهارا .. بل إننى كنت فى بعض الأحيان أنظر إلى يدى .. ففى بعض

الأحيان أحس كأنها قد أمسكت يدى .. بل وأصحو من النوم على لمسة من يدها في يدى ومن شفتيها فى أذنى .. وكنت أسمع اسمها يتردد ألوف المرات فى أذنى . فعندما سألتها قالت : اسمى كارمن ..

ـــ وأنت ؟

ـــ فلان !

ـــ فلانو ؟

ـــ نعم ..

وكتبت أول قصة قصيرة .. وكان عنوانها : فى البدء كانت كارمن !

ولم تكن قصة جيدة . فقد كان شكلها عبارة عن مونولوج أتحدث فيه وحدى .. أناجى .. وأتغنى .. وأتمزق وأثير عطف الأشجار والأزهار .. على أفكار مثل فراشات ملونة ضعيفة تحوم بغير هدف .. وظلت هذه الفراشات تنتقل من حديقة إلى حديقة إلى غابة حتى أرهقها الطيران فأوت إلى إحدى الأشجار .. وانفتحت زهور هذه الأشجار واستدرجت الفراشات واعتصرتها وأكلتها .. وانتهت القصة !

والنهاية ليست صحيحة ، فلم تمت هذه الفراشات .. وإنما هذه الفراشات لا تكاد تمر على حديقة بها أزهار حتى تحول الأزهار إلى فراشات .. إلى سحب من الفراشات .. وتنعقد هذه السحب وتهبط مطرا .. دموعا .. طربا .. أسى على الذى لم يكد يبدأ حتى انتهى ! فما هذا الذى بدأ ؟ وما هذا الذى انتهى ؟ أليس الحب .. وإنما هىَ ، لسعة ، نار أو نور ..

وفى ذلك الوقت اعتدت الوقوف على أبواب السينما وأرى الاعلانات والصور .. شىء غريب حقا لقد وجدت ممثلات كثيرات يشبهن « كارمن » .. ووقفت طويلا أتفرج .. وامتدت يدى إلى الصور .. وإلى المجلات الفنية .. كلهن شقراوات .. أو أوروبيات طبعا .. رشيقات .. راقصات .. لهن عيون لا تنظر لأحد .. لهن أجسام تطير إذا سرن على الأرض .. فلا هن يمشين على الأرض ولا هن يطرن فى الجو .. انهن بين الأرض والسماء .. لا سائرات ولا طائرات .. تماما كالواقفين أمام البن البرازيلى . لا هم جالسون ولا هم منطلقون .. إنهم على الحافة بين الجلوس والانطلاق .. وأفكارهم فى السماء أيضا ..

وفجأة مررت على إحدى دور السينما .. ووجدت « كارمن » .. فيلم اسمه « كارمن » .. وكارمن هذه راقصة .. غجرية .. ألوانها وردية ووجهها صارم وعيناها فاجرتان .. وتوقفت أتفرج وأقرأ .. الممثلة هي ريتا هيوارث .. والصور لها فوق الجبال .. وهناك حمير وبغال وخيول وجنود .. ولكن كارمن هذه ترقص في كل الصور .. وقد وضعت رجلها على عنق أحد الرجال !!

المهم أن اسمها كارمن .. ولأول مرة قررت أن أدخل السينما ، وكنت قد تخرجت في الجامعة قبل ذلك بسنتين .. ولم أطلع أحدا على هذا القرار . فلا أحد يتصور أنني لم أعرف ما هي السينما ولا ما الذي يفعله الناس في داخلها ..

وذهبت إلى السينما فلم أجد أحدا أمام شباك التذاكر .. فانتظرت حتى جاء الناس ووقفت في الطابور لأرى ماذا يقولون وماذا يدفعون .. ومشيت وراءهم وجلست إلى جوارهم . ورأيت الفيلم . لم أستوعب تماما ما رأيته . لكن انشغلت به تماما .. وبعد يومين ذهبت مرة أخرى لكي أملأ عيني من كارمن .. وفي هذه المرة خبطتني في تماغي بعض العبارات العميقة ..

وبيني وبين نفسي أحسست أن هذا الفيلم هو « الزلزال » أو هو « البركان » .. فقد هزني بعمق .. وصدعني .. وجعلني أمشي على رأسي .. وأنقلب جالسا ونائما .. لا أعرف بالضبط ما الذي حدث .. ثم ذهبت أتفرج على الفيلم مرة ثالثة .. وكنت حريصا هذه المرة على أن أسمع بوضوح ما قاله البطل . لقد قال شيئا كهربني .. صعقني .. ما هذا الذي يقول ؟ لماذا ؟ كيف ؟ وما علاقتي أنا بذلك ؟ لا أعرف العمليات الكيميائية التي قلبت كياني من داخلي .. أهي كارمن ؟ أبدا .. هو البطل .. هو ما يقول سخطا وغضبا على كارمن .. وليس كل الذي قال .. ولا كل دوره في الفيلم .. ولكن عبارة واحدة ..

وظللت أكتب عن هذا الفيلم وعن هذه العبارة مقالات وقصصا وشعرا .. حتى نبهني أحد الأصدقاء أن أكف عن الكتابة فهناك أفلام أخرى كثيرة . ولم أكن قد لاحظت ذلك !!

هذا الفيلم من قصة أديب فرنسا بروسبير مريميه (١٨٠٣ - ١٨٧٠) . وقد

رأيت هذا الفيلم بعد أن ظهرت قصته منذ مائة عام تماما ..

القصة : مع الموسيقى الفخمة الأبهة والرقص الغجرى المجنون ترى الجندى دون خوسيه .. هو شاب جميل عنده طموح أن يكون شيئا ما يوما ما ..

وعندما وصل إلى مدينة أشبيلية رأى الفتاة الغجرية كارمن .. حلوة .. خمرية شابة .. كلها حيوية وتمرد .. التقى بها وأحبها . وفى إحدى الليالى أقنعته بأن يترك وظيفته كجندى وأن يعيش غجريا .. وكاد أن يقتنع .. ولما علم رؤساؤه عاقبوه بالسهر حارسا طول الليل . ذهبت وألحت عليه . وطلبت منه أن يهرب بها ومعها . وكان قد أحب الغجرية ، وغضب على رؤسائه وعلى حياته العسكرية . فدفعه الغضب والحب إلى الاقتناع ، والاستسلام لها . وهرب معها ..

وبعد أن أحبها راحت تسخر منه وكان يحلو لها ذلك كثيرا . وكلما عذبته ازداد حبا لها .

وفى إحدى الليالى ذهب إليها فى بيتها . وفجأة دخل أحد الضباط . إنه عشيقها . ولمعت السيوف بين الرجلين . وسقط الضابط ميتا ، وأصيب هو بجروح فى رأسه . وظلت كارمن فى غرفتها لا تأبه بالمعركة ولا بمن سوف يموت فى النهاية . ولما خرجت ووجدت الضابط قتيلا ، غضبت ولعنت دون خوسيه واتهمته بالغباوة . لأنهم سوف يطاردونه ويطالبون بدمه ..

ثم أحضرت له بالطو يتنكر فيه ويهرب بجلده .

وارتدى البالطو ، وخلع كل آماله فى أن يكون شيئا مما كان يحلم به .

فقد دفعه الحب إلى أن يكون مجرما .. وكان لابد أن يعيش خارجا على القانون قاطع طريق مع عدد من النشالين ..

وكان لكارمن أصدقاء كثيرون من اللصوص وقطاع الطرق ..

ولم يكن أمامه إلا اختيار واحد : أن يعيش معها لصا غجريا . وأن يجمع حوله عددا من اللصوص ليكونوا قوة . وكانت كارمن تتجسس لهم ..

وأعلنت الحكومة عن جائزة مالية لمن يعثر على دون خوسيه حيا أو ميتا .

وازداد غيظا وإصرارا على أن يكون كما أرادت الظروف مجرما ولصا .

واقتنع بأن الذى يمارسه هو الصحيح وأن الجندية هى السرقة الرسمية ..

صحيح أن هذه الحياة ، ليست هى الحياة التى كان يحلم بها ، ولكن لابد أن يعيش . كان لطيفا وهو الآن عنيف ، كان رقيقا وهو الآن خشن . كان نبيلا وهو الآن سافل .. كانت له كرامة ، ولكنه مع لقمة العيش وكلمة الحب ، بلا كرامة !

وكان على يقين من أن كارمن تخونه ، أو سوف تخونه فى أية لحظة ، ولكنه ابتلع هذا الهوان ، المهم أن يجدها ، أن تكون له بعض الوقت . ولكن عندما عرف أنها عشيقة لرجل أعور قتله . وجاءه أحد أفراد عصابته وقال له : أنت رجل مغفل .. أنك قتلت زوجها .. هذا الزوج كان على استعداد أن يبيعها لك بمبلغ تافه !

وكون دون خوسيه عصابة جديدة .. وقامت كارمن بدور الجاسوسة لهم . فكانت تذهب كل ليلة إلى مدينة غرناطة تجمع الأخبار وتشترى الطعام والسلاح . وهناك قابلت مصارع الثيران لوكاس . وعرف عاشقها ذلك . فنصحها أن تكون له . وأن تعيش معه وأن تهاجر إلى أمريكا . رفضت كل الذى طلب وقالت إنها تفعل ما تريد . الخيانة مع أى عدد من الناس وألا تكون له وألا تهجر الغواية وألا تهاجر من أسبانيا .. ثم إنها لا تتلقى أمرا من أحد .. أى أحد .. وأنها غجرية . عاشت وسوف تبقى غجرية حرة تفعل بنفسها وبالرجال ما تشاء .. فليقبلها هكذا ، أو يتركها فورا .. ولما أحست بأنه ينوى قتلها قالت له : قرأت فى الفنجان أننا سوف نعيش معا ونموت معا ..

ولم يصدقها !

وذهبت إلى لوكاس الذى أصابه أحد الثيران . ووجدها هناك وطلب إليها أن تعود له .. وأن تسافر معه إلى أمريكا . رفضت .

وذهبت إلى أحد الرهبان وطلبت إليه أن يصلى على روح إنسان مهدد بالموت .

وقتلها . وبنفس السكين حفر لها قبرا . وجاء القسيس يصلى على روحها !

انتهى الفيلم على الشاشة ست أو سبع مرات . ولكنه لم ينته فى داخلى فقد استمر العرض والموسيقى والحوار لسنوات طويلة .

أما الذى هزنى فى هذه القصة فليست الأحداث . ولكن بعض العبارات التى

جاءت على لسان البطل . فهناك عبارة تقول : اللعنة على من قال إن الانسان كما يكون !

ومعنى هذه العبارة : إن هذا البطل قاطع طريق . والحقيقة أنه ليس كذلك . وإنما هو قد اضطر إلى ذلك . اضطره الحب ، وكراهيته الاجراءات الانتقامية . أو هو الحب دفعه لأن يكون مجرما وهو ليس كذلك . أى أن الذى يحكم عليه من مظهره يظلمه . فكل حكم عليه ظالم تماما !

ولا أعرف كم عدد المرات التى ذكرت فيها هذه العبارة وعلقت على عمقها وعظمتها .. سخط البطل على كل من يسىء إليه وينظر إليه على أنه مجرم حقيقى .. إنه مجرم ، لكن ليس باختياره .

ومن الغريب أننى عندما شاهدت هذا الفيلم بعد عشرين عاما ، لم أجد هذه العبارة . إذن هذه العبارة قد قفزت من أعماقى . أنا الذى وضعتها على لسان البطل . أنا الذى قلت . أو أنا الذى فهمت الذى أراده البطل والمؤلف معا !

وأعجبنى أيضا أن يخلع الانسان ملابس الجندى أو ملابس القسيس ليكون أى شىء من أجل الحب . المهم أن يفعل ما يشاء باختياره وحريته وأن يكون مسئولا عن هذا القرار . المهم أن يكون حرا . فإذا كان حرا فهو مسئول . ثم إن الانسان لا يولد جنديا أو يولد لصا ، ولكنه يصير كذلك .

ولم أذكر عبارة واحدة على لسان كارمن . ولكن عندما رأيت الفيلم بعد ذلك ، وجدت أن عبارات جميلة وقوية قد جاءت على لسانها السليط .. ولكن لم ألتفت إلى ما تقول . وإنما التفت إليها .. إلى جمالها وحيويتها وتمردها .

فإعجابى بحياة الغجر له تاريخ طويل يرجع إلى طفولتى . يوم تمنيت أن أكون غجريا . وأن أهرب مع جماعات الغجر . ويوم تمنيت أن تتبنانى إحدى الغجريات ويوم شربت من دم غجرية وشربت من دمى . وكنت طفلا . وعندما كبرت أعجبتنى حياة الغجر .. حياة الانطلاق وعدم الارتباط بشىء أو بأحد .. عدم الارتباط بالأسرة .. فقط أن أظل أنتقل من مكان إلى مكان ، وأن أعيش على حافة المدن والحافة بين القانون والخروج عليه .. أن أعيش فى خطر - كما نصحنا الفيلسوف الكبير نيتشه .. أن نبنى بيوتنا على سفوح البراكين وعند فوهاتها .. لم أشعر بهذا المعنى إلا مرة واحدة عندما ذهبت إلى الفلبين وبحثت

عن المطاعم التى وضعت مناضدها فى فوهة البراكين الخامدة .. ولكن الأرض تحت المناضد لا تزال ترتجف .. كأن أحداً يقوم بتدليك ذلك الوحش النائم لعله يصحو .. أو لعله يظل مستغرقا فى نومه .. وكان شعورا عجيبا أن آكل الآيس كريم فى قلب جوزة هند .. الآيس كريم يتجمد .. والأرض من تحتى ساخنة ترتجف .. وأنا أحلم بما قاله الفيلسوف نيتشه .. وفى نفس الوقت أتخيل نفسى وقد قذفنى البركان فى الهواء والتقطنى واحد من النسور التى جاءت فى « ألف ليلة » ويدور بى حول الأرض ولا يهبط إلا ونحن معا - موتى فى فوهة بركان يتدفق بالنار والدخان !

ويوم استأجرت طائرة صغيرة فى جزر هاواى لنتفرج على بركان قد ثار فجأة بعد نوم قرنين من الزمان .. وكانت الطائرة تدور والوهج ينفذ من زجاجها وأنا أذوب عرقا .. أحسست أن اللحظة الفلسفية التاريخية البطولية قد جاءت : الطيران فوق القمم .. وأعظم قمم البراكين . والسقوط فى سعير النور والنار معا !

ولم أفكر فى ذلك الوقت عن معنى هذا الذى نادانا به الفيلسوف الألمانى ! وعن دلالة ذلك ! ماذا أضفت ؟ وماذا أخذت .. وما قيمة أن أموت أنا أو غيرى فى بركان ؟

لابد أن الفيلسوف قد أعجبته الصورة المروعة الرائعة .. فقط الصورة . وإن كانت بلا معنى كبير .

وكذلك صورة الغجرية كارمن .. جمالها ودلالها ووحشيتها وألوانها الوردية ..

وعندما ذهبت بعد ذلك أتفرج على الأماكن التى تم فيها تصوير فيلم « كارمن » لم أجد شيئا مما لخبط عقلى وشوشر على قلبى . وتخاصم الفكر والوجدان . وظللت ضحية لهذه المعركة غير المتكافئة وقتا طويلا ..

واتخذت هذا الفيلم عملا وجوديا كاملا . أنا الذى قلت ذلك . ورحت أتعسف فى تفسير كل حركة وكل عبارة . والبداية والنهاية . فقد كنت فى ذلك الوقت من الخمسينات فى حاجة إلى حجج قوية فنية لتدعيم الفلسفة الوجودية التى أدعو إليها فى الصحف وفى محاضراتى فى الجامعة .

وفجأة وجدتنى أذهب لأتفرج على فيلم آخر اسمه « شمشون ودليلة » البطلة هي هيدى لامار ، نمساوية جميلة . وقصة شمشون ودليلة جاءت في التوراة . فشمشون رجل قوى . وقوته في شعره . إذا طال تعاظمت قوة عضلاته . فأصبح قادرا على منازلة جيش وقهره أيضا . وأحبت دليلة هذا البطل الذى تقدم لخطبة أختها . فضايقها ذلك . وقررت أن تستولى عليه بالقوة وأن تقهره انتقاما منه . وتكاثر خصومه ورصدوا مكافأة لدليلة إن هى عرفت سر قوته . وظلت تستدرجه إلى أحضانها حتى عرفت . وقصت شعره . وأصبح رجلا عاديا . وضربوه وعذبوه .. وعلقوه في الطواحين يديرها لطحن القمح . ولكن دليلة حزنت علي حقدها الذى دفعها إلى تعذيب هذا الرجل الذى تحبه .. واشترطت على أعدائه أن يفعلوا به ما يشاؤون إلا إراقة قطرة دم واحدة منه .. ولكنهم أفقدوه البصر بوضع أعواد من الحديد الساخن أمام عينيه .. حتى صار أعمى !

وطال شعره .. وطلب إلى دليلة التى جاءت تساعده أن توقفه بين أعمدة المعبد .. وهدم المعبد على أعدائه وعلى نفسه .

أما هذا الفيلم فقد أعجبتنى دليلة وليس شمشون : جمالها ودلالها .. ولم أجد لها عبارة واحدة تهزنى . ولا وجدت لشمشون .. وبعد سنوات تبينت أن سبب إعجابى بدليلة هو أن جارة لى فى المنصورة كانت شديدة الشبه بها : الأنف والحاجبان والشعر الأسود والثقة بالنفس .. وكنت أراها جميلة من كتفيها التى فوق . فقط .. بينما دليلة كانت كاملة الجمال . فأنا لم أنشغل بشمشون ولكن دليلة ، ولم أنشغل بكارمن ولكن بدون خوسيه .

وفى الفيلمين : امرأة خادعة شرسة .. شريرة .. وأن الانتقام عندها أقوى من الحب .. وأنه ليس الحب هو الذى يهم المرأة وإنما « التملك » والتسلط .. فهى لا تريد رجلا ، وإنما تريده ذليلا .. فإذا أصبح ذليلا ، اتجهت إلى رجل آخر أقوى .. تعجب بقوته وتستمتع بأضعاف هذه القوة وسحقها وإذلالها . وتتجه إلى ضحية أخرى .. إنه تاريخ الاستعباد والذل والهوان الطويل الذى عاشت به المرأة .. هذا التاريخ جعلها تريد أن تنتقم من سيدها الذى حبسها فى البيت تنتظره يجىء أو لا يجىء .. ومن الممكن أن تبكى المرأة لأنها قتلت

رجلا تحبه . ولكن شرها أقوى من حبها .. فهى تحب الرجل ، وتحب أن يحبها الرجل وأن تخلص له وأن تموت من أجله .. ولكنها تحب أيضا أن تستولى عليه حيا أو ميتا .. فإذا مات بكت عليه .. فهى تحب عذابها معه ، وعذابها من بعده ، وتكره نفسها فى الحالتين .. فالمرأة مصاصة للدماء .. وضحيتها هو الرجل ، هكذا كارمن ودليلة !

وفجأة ظهرت فى حياتى ، مارلين مونرو ، أجمل من خلق الله وأتعس أيضا ..

لم أنشغل بأفلامها . ولكن بحياتها .. بها هى .. كيف عاشت كيف كانت فى الملجأ . من هى أمها ومن أبوها ؟ وكيف تزوجت مصارعا .. كيف تعذبت .. كيف تنقلت بين الأذرع والاستديوهات .. كيف يعرضونها لحما ورديا .. وهى لا تعترض على البائع والمشترى .. ثم كيف آلت فى النهاية إلى الزواج من أديب كبير هو أرثر ميلر .. إنه جراح .. إنه سفاح العواطف الانسانية حاول أن يدير رأسها ناحيته لم يستطع . حاول أن يضع رأسه فوق كتفيها ولو بعض الوقت .. لم يستطع ..

ودار حولها الرئيس الأمريكى كنيدى وأخوه وزوج أخته .. وتحالفت المخابرات الأمريكية والعصابات على هذه الجميلة التعسة وقضوا عليها .. وتولى الدفاع عن جمالها وشبابها وبراءتها وجنونها أبناء أكثر جنونا منها ، وأكثر سفالة من آخر أزواجها .

ولا أذكر أننى رأيت لها فيلما خرجت منه ، لكى أكتب سطرا واحدا .. فأنا راض أن أراها .. ولا يهم ما الذى تقوله .. هى تظهر وتروح وتجىء وتحب وتكره وتغنى وترقص وأنا أتولى عنها الحكاية !

وحتى عندما رأيت ريتا هيوارث فى القاهرة مع زوجها على خان ، ووقف الاثنان أمام فندق سميراميس القديم ، ولم يجدا سيارة تنقلهما إلى السفارة الأسبانية واستوقفا أحد التاكسيات .. وظن على خان أننى أحد المرافقين فسألنى إن كان معى فلوس .. وأعطيته خمسة وعشرين قرشا أخذها وأعطاها للسائق مقدما .. لم أجدها جميلة كما رأيتها فى الفيلم .. إنها أكثر نحافة ورقة ولم أجد الوجه الجميل الذى التصق فى عينى سنوات . وكنت مثل عقارب الدقائق

والساعات أتحرك ليلا ونهارا في داخل هذا الوجه الذى كان يتسع ويتسع حتى يكون في رحابة السماء .. وأنا حائر دائر دائخ بين ملامحه ..

ولكن انشغلت كثيرا جدا بهيدى لامار ولم أستطع أن أرى لها أى فيلم آخر غير شمشون ودليلة .. ولم تغب عن خيالي . حتى ظهر كتاب عن حياتها .. وأحزنني الكتاب عليها .. فهى تروى كيف أدمنت الخمر والمخدرات .. وكيف أن أحد أصحاب الملايين طلب إليها أن تظهر عارية تماما . مقابل مبلغ من المال . ثم هددها بعرضه على الناس إن هى لم تتزوجه فهددته هى أيضا بأن تروى كيف كانت علاقاتهما الجنسية .. وما هى عيوبه وعجزه .. ثم إنها روت علاقتها بعدد كبير من الناس بأسمائهم .. وهددت فى هذا الكتاب بفضح آخرين إن لم يدفعوا لها مقدما . إلى هذه الدرجة ساءت حالتها المادية .

وجمعت قصة حياة عدد كبير من الكواكب .. ربما مائة قصة وأكثر فى ثلاثمائة كتاب استعدادا لدراسة نفسية اجتماعية فنية تاريخية لهذه الكائنات شديدة الحساسية من الجميلات .

ولكن النصيب الأكبر من الكتب لمارلين مونرو .. فقد كان أثرها عميقا وموجعا .. وكتبت عن ذلك كثيرا وطويلا ..

ولم أعد أذكر من كل صور مارلين مونرو إلا صوتها فى خيالي يوم رأيتها فى هوليوود وقد خرجت من الحمام والتدليك وبخار العطور . لامعة براقة فراشة تطير ومن بعيد قالت لى : ازيك يا انت !

ولا يسعفنى قلمى أن أصف لك كيف اشترك فى هذه التحية : ذراعاها وإحدى ساقيها وعين غمزت بها وشفة ضغطتْ عليها وكتفها .. كل ذلك من أجل واحد جاءها من آخر الدنيا سنة ١٩٥٩ .. كانت هى فرقة راقصة غنائية موسيقية .. أغلبية ساحقة وأنا هناك بعيد أقلية مسحوقة غلبانة !!

فى ذلك الوقت كنت قد رأيت الممثلة راقية إبراهيم .. طويلة أنيقة .. فخمة .. ولكن لا أعرف ما معنى هذا الذى تقول وهى تتحدث فى الأدب وفى السياسة وفى الاقتصاد .. وكان الناس يستمعون إليها .. وكان صوتها أجمل ما فيها .. وكانت هى تعرف أن الأنوثة فى هذا الصوت .. ولذلك تبالغ فى تكسير الحروف وتقصيرها وتطويلها .. رأيتها أول مرة فى مكتب الممثل أنور

وحدى .. وقدمتنى لها هكذا : واحد من الشعراء الشبان الجدد .. يعجبك .. يتكلم عدة لغات .. وحاولت أن أقنعه أن يمثل فى السينما ، ولكنه رفض .. ما رأيك أنت !

ولم يعرض أن أظهر على الشاشة ، وإنما هى دعاية !

ونظرت راقية إبراهيم ناحيتى ، لترى إن كان صحيحا ما يقول . ولم تقل شيئا .

ورأيت الممثلة كاميليا ، وكانت تتردد على إحدى محلات الاسطوانات . ولم تعجبنى .. فهى غير مثقفة ولا تحسن الكلام . وإنما تشترك فى أى حديث ، إذا كانت هى موضوعه ..

ولا بد أن يكون سبب عدم إعجابى بها أننى معجب بغيرها تماما : هيدى لامار ومارلين مونرو ..

وهن جميعا بعيدات عنى . لا صلة . ويستحيل أن تكون صلة .. وفضلت الأكثر بعداً واستحالة .. فضلت الخيال الذى أعيشه على الواقع الذى لا أعيشه .

وانتقلت باهتمامى بالسينما إلى نجوم ايطاليا : سيلفانا مانجانو .. وسيلفانا بمبانينى .. واليانورة روسى دراجو .. وصوفيا لورين .. وجينا لولو بريجيدا .. ورأيتهن جميعا وتحدثت إليهن عن قرب .. وقرأت وكتبت كثيرا .. وهزنى فيلم « مرارة الأرز » بطولة سيلفانا مانجانو .. ورأيت فى سيلفانا هذه كارمن ودليلة معا . لولا أن سيلفانا كانت من عمال التراحيل فى ايطاليا . تكشف عن ساقيها طول الوقت .. ولكنها قوية بجمالها الصارخ ..

وأعجبتنى الممثلة الإيطالية اليانورة روسى دراجو .. وهى أجمل جميلات السينما الايطاليا .. أطلقتها السينما تضرب بها سيلفانا وجينا .. ولكن تزوجها أحد أصحاب مئات الملايين .. فلم تظهر إلا فى ثلاثة أفلام واختفت .. وكانت اليانورة هى كارمن + دليلة + مارلين + جينا + حواء الخالدة الأنوثة والغيرة والانتقام والكذب والخداع ..

وهى ليست كذلك إنما هو المؤلف والمخرج والمنتج تعاونوا معا على إطلاق كل طاقاتها الكامنة ووضعوها فى اطارات جميلة مثيرة !

وفى سنة ١٩٥٦ نشرت فى « آخر ساعة » حديثا عن الأدب والفلسفة والحياة

فى إيطاليا بعد الحرب مع اليانورة هذه .. وكان لابد أن يندهش القارىء كيف يمكن أن تكون فتاة جميلة جدا ، مثقفة جدا .. وكيف أن جمال الجسم والفكر قد جعلها واحدة من بنات آلهة الاغريق .. وكيف أن هذا الحديث بعد أن ظهر طلبت ترجمته إلى الإيطالية ثم بعثت لى بصورة من الترجمة ومعها هذه العبارة : كانت متعتى مضاعفة عندما قرأت ما قلناه سويا ! ألا يغرينا هذا بمعاودة الحوار ، إن كثيرين يريدون أن يشتركوا معنا .. مع أصدق وأخلص تحيات واحدة مبتدئة فى كل شىء .. الحياة والأدب والفن ومعرفة مصر .

وقد نشرت هذه العبارة مع صورة اليانورة فى مجلة « آخر ساعة » ..

وكان لابد أن أعرف من هو مؤلف « كارمن » أو « غراميات كارمن » .. إنه الأديب الفرنسى الرومانسى بروسبير مريمية . وقد عاش فى عصر الأدباء الفرنسيين الكبار : هيجو وديكارت واستندال وبلزاك وبودلير وزولا وفلوبير . وكان هادىء النفس . ميالا إلى التأمل حاول أبوه أن يجعله محاميا . واشتغل بالمحاماه بعض الوقت . ولكنه كان ميالا للأدب . واختاروه عضوا بالأكاديمية الفرنسية سنة ١٩٤٤ . وكان خبيرا فى الأدب الروسى المعاصر .

سافر كثيرا . وفى رحلاته إلى أسبانيا استلهم قصة « كارمن » . ثم انشغلت عن هذا الأديب بمتابعة « كارمن » هذه .. ورأيت أوبرا « كارمن » للموسيقار بيزيه على مسرح الأوبرا فى القاهرة . وكنت أغمض عينى وأنا أسمعها .. فالموسيقى هى الإضافة الجمالية الحقيقية لمعنى القصة وعباراتها المنقوشة بعمق فى أذنى وخيالى ..

وفى مكتب الصديق شكرى راغب مدير مسرح الأوبرا أشار إلى فتاة جالسة أمامنا وقال : هذه كارمن . يقصد بطلة أوبرا كارمن .

فتاة أسبانية خمرية الألوان العينين والشفتين والبشرة وكانت الأقراط مثيرة فى أذنيها وكذلك الخواتم والسلاسل فى عنقها وفى يديها .. والخلاخيل فى ساقيها .. والدخان يخرج من أنفها ومن فمها فى عصبية شديدة ..

هزنى شكرى راغب قائلا : مالك .. أنت عاوز تأكلها ؟!

ولم أفلح فى أن أشرح له الأسباب الحقيقية لهذه الفرحة والنشوة أن أرى « كارمن » لحما ودما .. وكلما حاولت أن أقول شيئا يمنعنى قائلا : عارف

ما سوف تقول .. ستقول أنك مشغول بالقصة والإخراج والموسيقى والديكور .. كذب .. أنت وأنا مشغولان بهذه الحلاوة والطعامة طبعا سوف تجيء غدا تتفرج عليها .. لابد من البدلة والكرافتة .. وإلا والله العظيم أنزل أشيلك هيله بيله وأرميك أنت وكمال الملاخ خارج المسرح !

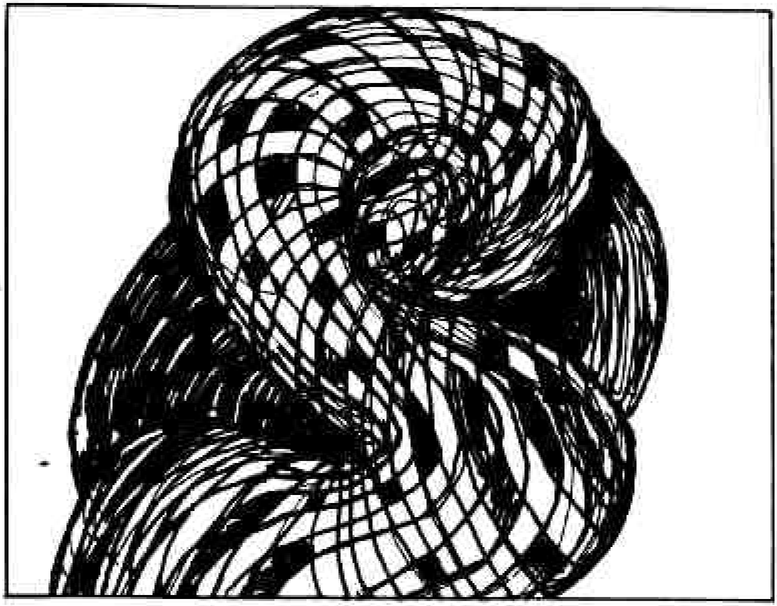
وفي تلك الليلة الساحرة أول مرة أشاهد أوبرا « كارمن » جلست في الصالة مسحورا مبهورا .. لا أعرف عن أى شيء سوف يرتفع الستار .. وقبل ارتفاعه بلحظات كانت الموسيقى .. زفة عروسة غجرية .. مظاهرة أوركسترالية .. أغمضت عيني أسمع واستسلم للموسيقى وللمغاني في رأسي .. وعندما ظهرت كارمن بفستانها الدموى الغجرى وورودها وعقودها وأقراطها والصاجات في يديها .. لم أعد في حاجة إلى شيء .. يكفيني هذا في تلك الليلة .. على أن أعود غدا .. ولكن لا أعرف كيف أقوم .. ووجدت أصابع تدق كتفي .. إنه شكرى راغب يقول : قم بلاش فضيحة !

وخرجت معه . فأنا لم أتمكن من العودة إلى البيت واقترح أحد مساعدى شكرى راغب أن ارتدى جلباب أحد السفرجية وعمامة كبيرة ملفوفة بإحكام ـ أى الزى الوطني لأبناء النوبة والسودان .

ونحن خارجون قال لي شكرى راغب : لازم النهاردة .. هل تعرف أنه يوجد ثلاثة من زعماء السودان من الحاضرين .. وأنهم في السودان لا يرتدون هذا الزى .. هذا زى بواب يا أستاذ !!

وأخذني إلى غرفة الملابس . وطلب منى أن آخذ معى بدلة سموكنج لأن الملك فاروق سوف يشهد الأوبرا غدا !

ورأيت كارمن بعد ذلك على مسارح برلين ولندن وباريس .. جميلات أنيقات متمردات ملعونات ـ كلهن كارمن !



وقررت إنهاء هذه الطفولة
المتأخرة فكتبت ونشروا

وقررت إنهاء هذه الطفولة المتأخرة فكتبت ونشروا

من المؤكد أن لا ضرورة لوجودنا ـ قلتها لنفسي ألف مرة .. حتى أصبحت أسمعها دون أن أنطق بها !

يعني لا معنى لأن أولد وأن أكون أي شيء .. فمثلي كثيرون جدا . وليست لي موهبة خارقة . ولا في إمكاني أن أصنع شيئا هاما للبشرية . إذن وجودي هو استمرار لسوء التقدير واستمرار لحكمة أن يكون من الناس والحيوان والنباتات : شيء زائد عن الحاجة لا ضرورة له .. ونحن واقفون أمام باب الجامعة : كل الوجوه واحدة .. كل العيون .. بل إن قدرا كبيرا من الغباوة والبلادة هي من أهم معالم الجميع .. وكأنني مطالب وحدي بالبحث في هذه النظرية ومدى صحتها وخطئها ، أخذت أتملى الوجوه .. والعيون والشفاه والأصوات ، وقد لاحظت أن أصواتنا قبيحة وأسلوبنا في التعبير عن أفكارنا سخيف .. وأنني لم أجد واحدا من زملائي يقول لي : إسمع تعال هنا .. لنذهب إلى حديقة الأورمان ولنفكر في حالنا .. ما الذي يمكن عمله في هذه الدنيا ؟ ما الذي تعلمناه ؟ كيف نستفيد من هذا الذي تعلمناه .. هل الذي تعلمناه يكفي لأن يكون الواحد منا إنسانا هاما .. مثلا : أنا أريد أن أذهب إلى المريخ ولكنهم لم يعلمونا إلا ركوب الحمير .. بالله عليك قل لي كيف أرتفع بحماري إلى السماء .. أو أنهم علمونا كيف نغسل أيدينا قبل وبعد الأكل ، فهل هذه العلاقة اليومية بالماء تجعلنا قادرين على الغوص في أعماق المحيط لمعرفة أسرار هذه السماوات المصنوعة من الماء .. السماوات التي تحتنا .. فالسماء فوقنا محيط من الغازات ، والمحيطات تحتنا سموات من الماء .. هل تعلمنا مثلا كيف نغير طريقنا وطريقتنا في الحياة ؟ ما الذي تعلمناه ؟ وإذا كنا لم نتعلم شيئا فعلى

أى أساس نغضب من نصيبنا المتواضع فى هذه الدنيا ؟ تماما كما يعطيك أبوك قرشا وتندب حظك لأنك لا تستطيع أن تشترى به سيارة وفيلا ؟ هل لك الحق فى أن تتمنى ذلك ؟! إن الذى أعطاك القرش، أعطاك فى نفس اللحظة مجالات ضيقة للإختيار .. أنت قادر على أن تشترى اللب والسودانى فقط .. هذه حدود قدرتك .. وهذه حدود قدرة أبيك .. وكذلك الذى تعلمته هى حدود قدرتك .. هى الجنيه الذى تسلمته من الجامعة ؟ هل أنت ضرورى لأحد ؟ لأمك وأبيك مثلا ؟ ماذا لو مت الآن .. ألست مثل هذه الأوراق التى تساقطت من هذه الشجرة .. وسوف تبقى الشجرة لتجدد شبابها وحيويتها فى الربيع القادم .. والشجرة هى المنبع أو هى الانسانية .. وأنت ورقة ذبلت .. سقطت .. أو سقطت قبل أن تذبل .. أو قطفتها إحدى الأيدى قبل أن تكون شيئا .. هل تستطيع أن تتوقف عن الجرى . فنحن نجرى منذ دخلنا المدرسة الابتدائية .. نجرى ونلهث .. فهل عندنا وقت لكى نمد أرجلنا ونسند ظهورنا إلى شجرة أو إلى حائط ونفتح عيوننا وننظر ونفكر فى مستقبلنا ؟ هل علمك أحد كيف تفكر فى مستقبلك ؟ هل فن التفكير الفلسفى والأدبى هو هو نفسه فن التفكير فى لقمة العيش والدور الاجتماعى الذى سوف يكون لنا ؟ هل لأننا تعلمنا السير نستطيع أن نرقص الباليه ؟ هل لأننا تعلمنا الجرى نستطيع أن نسابق القطار ؟

لم أجد أحدا يقول لى : ما رأيك نلقى بأنفسنا فى النيل .. ويكون موتنا المفاجىء رفضا للسماء التى وهبتنا الحياة لحكمة .. ونجىء نحن ونعلن أننا نرفض هذه الحكمة ، لأن وجودنا بلا حكمة ! وأن استمرار حياتنا ، هو تطبيق لنظرية خاطئة وتقول : إننا مخلوقون لحكمة .

ونحن لا نرى هذه الحكمة !

ولا وجدت أحدا يقول لى : لماذا لا ندخل ديرا من الأديرة .. سوف تقول أننا مسلمون .. فليكن .. نقول أننا مسيحيون وندرس الديانة المسيحية ونظل على إسلامنا .. المهم أن نحصل على هذه السكينة النفسية .. وفى نفس الوقت نعلن فيما بيننا وبين أنفسنا : إفلاسنا الفلسفى ..

ولا أحد يقول لى : ما رأيك لو قررنا النسيان .. نسيان كل الذى تعلمناه .. نذهب إلى الخمارة ونشرب ونشرب .. حتى نسقط على الأرض .. كل يوم ..

ويكون السقوط على الأرض سقوطا لكل الذى تعلمناه .. ويكون السكر والعربدة تحريرا للعقل من قيود المنطق الكاذب .. فإذا اعتدنا على ذلك ، رحنا نبحث عن مصادر للمال .. فلا نجدها بما تعلمناه ، فنبحث عن عمل يدوى .. وسوف نجده ..

ووجدتنى وأنا أجرى هذا الحوار فى رأسى أسحب جيوب بنطلونى إلى الخارج ليسقط منها بعض حبات اللب والحمص ..

ومن غير أى تسلسل منطقى وجدتنى أقول لإحدى الزميلات : ما رأيك ..

قالت . ماذا .

قلت : نذهب لسماع محاضرة د . ويفر فى كلية العلوم ..

من هو ؟

. أستاذ جاء من أمريكا يحاضر فى موضوع هام : السلوك الجنسى لذكور وإناث بعض الأسماك والطيور ..

وأدهشها هذا الموضوع وهذا الحديث المفاجىء .. وأدهشها أكثر أننى مصر على ذلك .. وأننى وضعت ذراعى فى ذراعها .. مع أننا لم نكن أصدقاء .. ولكن ابتسامتها الخافية تدل على ارتياح بأن يعرض عليها أحد رأيا أو قرارا أو يرغمها على الذى لا تريد .. وأن ذلك تطور مفاجىء فى سلوك نحوها .. كما أن نظراتى لها تدل على أن شيئا ما فى داخلى قد تولد لصالحها .. ولحسابها .. واستسلمت .. وانتظرت ما الذى سوف أقوله .. ومن العجيب حقا أننى لم أقل شيئا طوال ساعة فى الأتوبيس إلى كلية العلوم .. ولكن دون تفكير واضح كنت حريصا على أن أكون قريبا منها .. ملامسا لها .. إما لأننى أريد ذلك ، أو لأننى أحول بينها وبين ملامسة الركاب الآخرين .. وكانت سعيدة لذلك .. ثم إننى مددت يدى أقفلت حقيبتها التى انفتحت .. وعندما سقط منديلها سارعت بالتقاطه . ولم يكن نظيفا فاعتذرت عن ذلك . ولم أعلق . كأننى راض تماما ، وكأنه لا يهم أن يكون نظيفا أو قذرا .. يكفى أنه منديلها ، وأنها فرصة لكى أنحنى أمامها وأفوز بابتسامة . والحقيقة أننى لم أكن أعنى شيئا من كل ذلك . وإنما لدى شعور بأننى لا أريد أن أذهب وحدى . ولا أريدها أن تفكر لحظة واحدة فى العدول عن المحاضرة ، وعلى الرغم من أنها قد وافقت تماما . ولكن من يدرى ربما جاء واحد أو واحدة ، فى أى وقت ، وأقنعها بغير ذلك ..

وقد حدث كثيرا مع كثيرات . ولو فعلت لا سترحت للمرة المائة إلى نظريتى أن الطالبات تافهات . وهذه لم تفكر فى أن تذهب إلى هذه المحاضرة رغم أنها طالبة فى كلية العلوم ، ولكن الذى أقنعها ، أننى رافقتها ، وأننى عندما عرضت عليها ذلك كنت أبدو كمن يريد أن يستدرجها لكلام آخر أو قرار آخر .. فهى قد وافقت حبا لاستطلاع ماذا أريد .. وليس حبا لمزيد من المعرفة ..

لا يهم . وأقفلت جهاز التفكير في رأسى . وجلست فى الصف الأول . وهى إلى جوارى . وتحولت إلى شخص آخر . لا أتكلم . ولا أرد ولا أصد . وكأنها ليست هناك . ولم يكن شيئا هاما أن تكون هناك .. وكانت تهزنى .. فأتظاهر بأننى دائخ .

ولم تكن القاعة الكبيرة إلا إهانة كبيرة للرجل .. فلم يحضر إلا عشرون طالبا ومدرسا ورجلان أعرفهما .. أحدهما ساعى البوفيه والثانى سائق سيارة البروفيسور ويفر ..

نهض الرجل .. حيانا . شكرنا . تقدم بالإعتذار عن الذين لم يتمكنوا من الحضور لأن الوقت غير مناسب وأن الجو حار . وأن الاعلان عن المحاضرة قد جاء متأخرا . وأنه يرجو للمحاضرة القادمة بعد أسبوع ، أن تلقى من وقت الطلاب وعنايتهم نصيبا أكبر وأوفر .. وأن مثل هذه الموضوعات حتى فى أمريكا لا تلقى عادة أكثر من هذا العدد . ثم روى قصة الفيلسوف الإغريقى الذى فوجىء بتزايد عدد المترددين على بيته .. وفى أحد الأيام وجد زحاما من المعجبين . فقاطعهم متسائلا : ترى ما هو الخطأ العظيم الذى تتوقعون أن أسقط فيه اليوم ؟

وحكى لنا قصة الأديب الفرنسى الذى قاطعه المستمعون بالتصفيق كثيرا فتساءل : هل أخطأت أو أنكم تريدوننى أن أخطىء ؟

إنها بداية مريرة لعالم جليل جاء من آخر الدنيا ليعرض علينا نظريته فى السلوك الجنسى عند بعض الحيوانات ..

قال الرجل فى هدوء ساخر : إن الحياة قد كلفت الذكر بأن يمد الحياة .. وعندما شاءت الحياة أن يكون الذكر هو حامل هذه الحقيبة .. أو ناقل هذه الرسالة ، جعلته قويا .. أكبر حجما أقدر على المطاردة والمنافسة

والمشاجرة .. ففى عالم الأسماك نجد الذكر هو الأكثر حركة .. والأكثر انطلاقا .. وهو الذى يتضخم طولا وعرضا ويطلق أصواتا وألوانا .. تلفت الأنثى ، ويثير غيظ الذكور الأخرى .. إن الحياة قد أودعت فى كل ذكر هذه الحكمة : فتش عن الأنثى أعثر عليها ، عانقها ، تكاثر .. أى أن طريق الذكر ينتهى بالأنثى .. والذكر يطلق حيواناته المنوية التى هى أيضا كثيرة الحركة . ونهاية الحركة أن يستقر هذا الحيوان فى البويضة . وتبدأ دورة جديدة للحياة ..

ونشر الأستاذ أمامنا خرائط وصورا ملونة للأسماك فى البحر .. ولبعض الطيور أيضا . وقال : بعض الذكور تطلق أصواتا معروفة .. وبعضها يطلق الروائح ..

فأصبح ، الذكر ، هو هدف العلماء يتابعونه ويدرسونه ويحللون سلوكه . ويكون ذلك هو السلوك العام لكل الحيوانات والطيور .

أما الأنثى فلا أحد يهتم بها لأنها سلبية . ولأنها فى نهاية الطريق .

وتساءل الرجل : هل تعصب من الرجل الذى هو ذكر ، لهذه الذكور أيضا . فكأن الرجل يريد أن يجد نفسه فى الحيوانات والنباتات والطيور . لتؤكد أن الرجل هو الحياة وأن المرأة هى الجانب السلبى الذى لا دور له ؟ يجوز ..

والعلماء فى مئات السنين قد ركزوا عيونهم وأجهزتهم على سلوك الذكر فقط .. تماما كما تذهب للمسرح وتتفرج على روميو وجولييت ، فلا تنظر إلا إلى روميو ..

وسكت الأستاذ بعض الوقت . وقال : إلى هنا أريد أن أتوقف بضع دقائق . وسوف أعود إليكم بتفسيرى الجديد للسلوك الجنسى عند الذكور والإناث !

أى أن الرجل له رأى آخر فى هذا السلوك .. والرأى الآخر هو أن الأنثى لها دور .. وأن دورها ليس سلبيا ، كما اعتاد العلماء أن يقولوا ..

إن هذا التأصيل قد أنعش تفكيرنا وخيالنا ، وأيقظ روح التحدى عند الذكور .. أو عند الذين استمعوا إلى المحاضرة . ولم يكد يخرج من القاعة حتى بدأت المناقشات بين الحاضرين .. بين مؤيدين له تماما ، ومعارضين ..

وتمنيت لو أن الأستاذ قد تركنا اليوم على أن يحدثنا غدا . فيكون لنا بعض الوقت نفكر ونتأمل ونهضم هذا الذى قال فى ساعتين .. ملأهما بالنوادر

والصور والحكايات التاريخية ورحلات المكتشفين لأستراليا وجزر هاواى ودول أمريكا اللاتينية .. وعن حوادث الطاعون الذى اجتاح أوروبا وعن عمر الإناث والذكور وأقدرها على مقاومة المبيدات . الإناث طبعا . كانت المحاضرة متعة حقيقية .. وهواء مليئا بالأوكسجين الذى فتح كل خلايا العقل والجسم .. بل إنه يكاد يكون قد أخرج أحشاءنا وغسلها ونشرها وعرضها للضوء ثم أعادها إلى جوفنا مليئة بالعافية ومفتوحة الشهية ..

قالت لي جارتي : أنا سمعت كلامك وجئت إلى هذه المحاضرة ..

قلت : آه .. إذن أنت لا تريدين أن تستمعي إلى نصفها الثاني ؟!

وعرفت أن المحاضرة مطبوعة وأنه يمكن قراءتها كاملة .. وأسعدني ذلك .

قلت : إلى أين ؟

قالت : إلى هناك ..

قلت : أين ؟

قالت : حديقة الأسماك .. كما هي العادة !

• • •

هل هذه المحاضرة قد أراحتني ؟ هل كان هناك شك فيما قاله الأستاذ .. هل كانت هذه هي القضية التي تشغلني ؟ لا شيء من ذلك .. وإنما المحاضرة قد أمتعتني . هذه المتعة أراحتني . ولذلك أحسست كأنني في نصف عمرى .. وكأنني مضاعف الحيوية والحساسية . فلم أكد أصل إلى حديقة الأسماك حتى لا حظت أن الأعشاب قد ازدادت اخضرارا .. وأن الزهور تناثرت بألوانها المختلفة في كل مكان .. وأن الأطفال الصغار حولنا في غاية الجمال .. وجمالهم ونضارتهم وحيويتهم وبراءتهم وقوتهم وثقتهم في أنفسهم .. وشيء آخر ضرورى للسعادة : الإستغراق .. فالطفل الصغير يمسك زهرة أو لعبة أو يتابع فراشة .. فهو كله من أوله إلى آخره قد تابعها وانصرف إليها .. تماما كأحد العلماء أو الرهبان .. وبغير هذا الاستغراق والتركيز لا نجاح في شيء .. ولا سعادة أيضا .. والحب : استغراق وتركيز على شخص واحد .. أو كما قال الأديب الفرنسي استندال : الحب أن تتبلور كل احساساتك حول شخص واحد .. أو حول صفة واحدة في هذا الشخص فتحب هذا الشخص

كله ، من أجل الصفة الواحدة .. كأن تكون عيناها جميلتين .. أو شفتاها .. أو ساقاها .. وبعد ذلك تكتشف أنها غبية أو نفعية أو مغرورة أو متسلطة ..

هذه الزميلة مثلا أصفها لك : متوسطة الطول والعرض والذكاء والجمال . أنا الذى أقول ذلك .. ولكنها ترى نفسها أجمل واحدة فى الكليات النظرية : الآداب والحقوق والتجارة وأجمل من نصف طالبات الزراعة وربع كلية العلوم وخمس طالبات كلية الهندسة .. هى تقول ذلك ولا تسأل كيف حسبتها وكيف انتهت إلى هذه النتيجة وهى ترى أن كل الشبان يحاولون أن يتحدثوا إليها وأن يقدموا لها أية خدمة .. وعندها حكايات ونوادر . وهى لا تتعب من تكرارها . لأن تكرارها عبارة عن حفلة تكريم لشخصها . والمعنى : أنها أجمل الجميلات . وأننى يجب أن أحمد ربنا لأنها تجلس إلى جوارى .. سواء كان ذلك من اختيارها أو من إرغامى لها على ذلك . المهم أنها جالسة إلى جوارى وتتحدث وتغيظ ألوف الطلبة ..

قلت لها : ممكن ؟

قالت : ماذا ؟

قلت : أن يكون بيننا ..

قالت : ممكن .

قلت : ولمدة ؟

قالت : هذا يتوقف علينا .

قلت : واحدة مثلك فى استطاعتها أن تجد ألف معجب ، ما الذى يجعلها تترك كل هؤلاء لتجلس وتتحدث وتفكر مع واحد مثلى .. ليس عنده أمل فى أى شىء . لا فيك ولا فى غيرك فى هذه الحياة ولا ما بعد الحياة .. ما معنى أن تكون علاقة .. صداقة .. حب .. إذا كان الطرف الثانى ليس طرفا ولا يريد .. وإذا أراد فليس قادرا .. وإذا قدر فليس راغبا .. وإذا رغب فليس مصدقا .. وإذا صدق فليس مؤمنا بجدوى هذه العلاقات الانسانية .. لأنها إن لم تكن كذبا فهى مؤقتة .. مقلقة ..

قالت : إننى لم أتعمق فى الفلسفة ولا فى علم النفس .. ولكن ما سمعت يؤكد لى أن مثل هذا النوع من الرجال هم أضعف الناس .. لا أقصد أنه ضعيف ..

ولكن أقصد أنه سوف يقاوم ويعاند حتى يتعب فيسقط عند أول ابتسامة .. مثلا : أنت تناقشنى وترفضنى وتنكرنى وربما صارعتك .. ودافعت عن كبريائى .. وتظل هكذا .. يوما .. شهرا .. فمن المؤكد أننى لن أتعب ، فالمرأة صبورة .. علمها التاريخ أن تنتظر لأنها هى التى سوف تفوز فى النهاية .. أما هذا الرجل فلن يهدأ ولن يستقر . سوف يتعب .. فإذا تعب استسلم . وقد يكون الاستسلام لواحدة أخرى غيرى .. كسيارة نفد بنزينها قبل أن تصل إلى الإسكندرية فوقفت فى الصحراء أمام زريبة بهايم .. لم تقف خارج القاهرة ولا خارج الإسكندرية .. وإنما وقفت عندما نفد البنزين .. وكذلك هذا العنيد .. أنا لا أقول ذلك عن فلسفة ولا عن دراسة ولكن عن منطق بسيط .. وإلا فقل لى ما الذى فعله من هو أكثر عنادا وعداوة للمرأة .. انتقلوا من امرأة إلى امرأة أخرى .. أى استسلموا من واحدة لواحدة .. وأخيرا لزوجة هى أم لأولادهم !

- بايخ !

- تقصد هذا الحوار ؟ فعلا بايخ جدا !

* * *

قلت لها : قولى لى يا آمال

قالت : أنا فاطمة

قلت : يا آمال أى إنسان فى هذه الدنيا ..

قالت : إلا أنت طبعا !

قلت : صح !

قالت : كذاب !

قلت : صح !

وضحكنا نحن الإثنين ..

- تعرف - هى التى تقول بصوت هادىء جميل ناعم - أنا مختلفة عنك تماما . ولكننا نلتقى فى بعض الأحيان ..

- قولى وسوف أسمع لك .. قولى .. فمثلك يجب أن تقول .. وأن يسمعها كل إنسان عنده أمل فى هذه الدنيا .. قولى ..

وأنا أنقل من مذكراتي القديمة التي سجلت جانبا منها في أواخر سنة ١٩٤٧ بعد أن رحت أمشي في شوارع سليمان باشا وقصر النيل وشارع الجبلاية في الزمالك وكنت أسميه شارع التنهدات .. وبعد أن ترددت في أن أدق باب د . طه حسين .. وبعد أن تسللت من صالون الأستاذ العقاد .. كان يوما طويلا .. وكانت رغبتي في الكتابة قوية .. وكان عندي ما أقوله .. وقلته .. وتمنيت أن أسمعها .. وسمعتها .. وعدت فكتبت طويلا وكثيرا .

هي تقول : تعرف .. كلما رأيت شجرة .. تمنيت أن أجلس تحتها .. أن ألمسها بأصابعي .. أن أمرر أوراقها على شفتي .. على عنقي .. على صدري على ساقي .. كثيرا ما تخيلت نفسي أتمرغ عارية على أوراق الشجر .. على أوراق الورد .. وأتخيل هذه الأوراق قد تجمعت على شكل جناحين كبيرين إلى السماء .. أو على شكل مرجيحة تهتز بين الأرض والسماء .. فوق السحاب .. وكنت أترك نفسي أحلم بأن بيتي في السحاب .. أو هو السحاب .. وأن بيتي له نوافذ كثيرة .. وستائرها شفافة كالسحاب .. وأنني أدفع الستائر يمينا وشمالا .. لكي أطل من فوقها بحثا عنك .. وأجدك .. وأحيانا أضحك وأحيانا أحزن عليك .. ففي كل مرة أنظر إليك أجدك جالسا في هذا المكان وأجدك تتضاءل قليلا قليلا .. وأندهش لماذا ؟ ولكن أقول لأنك تأكل نفسك .. لأنك تحرق نفسك .. لأنك مفتوح على داخلك .. فأنت تنفق من مدخراتك .. فليست لك موارد خارجية .. لأنك قد أغلقت نوافذ وأبواب الإحساس بالغير .. أنت تتكلم من وراء الباب .. أنت تنظر من ثقب المفتاح .. إن أبوابي بلا مفاتيح .. بل وجدراني بلا أبواب ولا نوافذ .. إنها شفافة .. سألتني أمي يوما عن فتى أحلامي .. أي الفتى الذي أحلم به .. أو الفتى الذي هو بطل الأفلام والمسرحيات والأوبرات التي أديرها في رأسي وفي عيني عندما أكون وحدي .. فكنت أقول لها : لا أعرف كيف يكون .. الشكل لا يهم .. وإنما الحنان هو الذي يهمني .. ليس الذي يملأ العين ، وإنما الذي يملأ القلب .. الذي إذا مر إلى جواري أحسست أن قلبي يريد أن يقفز من صدري إلى يديه إلى قدميه .. دون أن يكون لي سلطان على هذا القلب .. إنه الذي أجد لقربه مذاقا خاصا ، وللمسة يديه معنى خاصا .. وحتى إذا لم يكن هناك ، فإنني أحسه وأسمعه وأراه وأتمناه ، كما لو كان إلى جواري . إنه الذي أشعر أمامه بالحيرة

والأمان .. بالحيرة لأنني لا أعرف لماذا هو وحده الذى أحبه .. لماذا هو ؟ ومن أين جاء وكيف ظهر ؟ إنه الذى لا أقارن بينه وبين أحد من الناس .. فليس فى الدنيا سواه .. ولا وجه للمقارنة .. إنه هو وحده وكفى .. والذى أشعر معه بالأمان .. فكل كلمة مخدة من حرير .. وكل نظرة سحابة ناعمة أتمدد عليها .. وكل ما يقوله وما لا يقوله صدق .. وكل ما يؤكده لى ، ليس فى حاجة إلى تأكيد .. إننى صدقته .. إننى وثقت فيه .. إننى أعطيته عقلى وقلبى وما يتبقى منى لا يهم .. إن شاء ، مشكورا ، قبله .. وإن شاء مشكورا ، رفضه .. وأنا السعيدة فى الحالتين ..

أمى قالت : مجنونة .

قلت : مجنونة إن لم أقل ذلك .. أنت لا تعرفين يا أمى .. المرأة فى الحب بدوية .. تماما كبنات البادية .. الحب لا علاقة له بالفيديو .. الحب صحراء ونخلة عند بئر وخيمة صغيرة مربوط بها حصان .. الحب هو الصحراء الشاسعة الواسعة يدق فيها قلبان . والحب مثل النخلة تنبت فى قلبين معا .. والحب هو أن ينفرد الانسان بمن يحب ، ويجد الخيمة جنة تجرى من تحتها الأنهار ... الحب هو أن يحلم الإثنان بأنهما وحدهما ، بعيدان عن الناس .. وأنهما سعيدان بهذه الصحراء .. وأنهما يتمنيان أن يهربا معا على حصان إلى آخر الدنيا .. حتى ولم لم يكن أحد يطاردهما .. وإنما هما يريدان أن يكونا معا .. فى الرمال تحت النخلة فى داخل الخيمة على ظهر حصان .. بلا سبب .. بلا منطق .. ولكن فى اللحظة التى يمسك كل واحد منهما قلما وورقة ويكتب : لماذا ؟ ثم يحاول أن يجد جوابا ، هنا يموت الحب .. تقولين مجنونة .. ليكن .. ولكن جنون الحب هو العقل .. عقل الحب هو جنونه .. صدقينى .. وأنت لن تصدقينى .. ولكنى لا أكذب على نفسى ولا عليك .. تعرف ؟

وقلت : أعرف ماذا ؟

قالت : تعرف هذا ؟

وفتحت ورقة أخرجتها من حقيبتها : تعرف هذا ..

قلت : ما هذا .. إنه قلم ..

قالت : ليس قلما ولكن ربع قلم .. وله ذكرى ..

قلت : لابد أنك كتبت به خطابا إلى الله تشكرينه على نعمة الإحساس الجميل والإحساس بالجمال الذى أعطاه لك ..

قالت : تعرف .. أنت محروم من أشياء كثيرة فى هذه الدنيا .. وأن هذا الحرمان باختيارك .. أنت الذى فعلت بنفسك كل الذى أفسد عليك حياتك .. ليس صحيحا أنك بهذه القسوة .. ولكنك تخاف أن تبدو ضعيفا .. ليس صحيحا أنك لا تدرك المشاعر الصغيرة والأشياء الناعمة .. إننى أراك تتوقف عند الزهرة وتلمسها بأصابعك كأنك تلمس شفتين .. وأراك تمسك الفراشة برفق تخاف أن تموت بين أصابعك .. أراك تفرح للقاء الأطفال الصغار وتقبل أيديهم وخدودهم .. أراك تحب القطط والكلاب .. أراك تعطف على الفقير وتبكى له أيضا .. أراك تحب الصدق والعدل والرحمة والحرية وكرامة الإنسان .. ولا تحقد على الأغنياء ولا تحتقر الفقراء .. ولا تحتقر نفسك لذلك .. بل أنت شديد الاعتزاز بعقلك ، شديد الثقة بنفسك .. وإلا ما الذى أعجبك فى الأستاذ العقاد ؟ علمه وكبرياؤه .. وما الذى أعجبك فى طه حسين ؟ فنه وتمرده .. وما الذى أعجبك فى والدك ؟ سماحته وشاعريته .. وما الذى أعجبك فى أمك ؟ فطرتها وتضحيتها .. إنك حفظت القرآن الكريم ، أجمل وأعظم كلام .. وإنك حفظت الكثير من الشعر .. أى من الكلام الجميل .. وإنك تحفظ الأغانى وترددها .. إنه إذن الجمال والإحساس بالجمال .. أى بموسيقى الكون .. أى بالانسجام .. أى بالعدل والخير والكمال والصفات الباقية فى الأشياء .. ولذلك أنا لا أصدق ما يبدو عليك وما تحاول أن تظهره للناس .. إننا نعرف الأطفال يصرخون وهم خائفون .. يصرخون لأنهم يريدون أن يخيفوا الآخرين .. إننى أذكر أنهم عندما كانوا يتركوننى وحدى فى البيت ، فإننى أضىء كل المصابيح وأفتح الراديو وحنفيات المياه .. وأغنى من غرفة إلى غرفة .. لكى أوهم من يفكر فى السطو على البيت ، أن جميع أفراد الأسرة موجودون .. وأن اقترابه من البيت مخاطرة .. كل ذلك خوفا من أن يكتشف أحد ، إننى وحدى .. وأننى خائفة .. إننى أراك وأسمعك هكذا !

تعرف .. إننى أحس أنك تقول من حين إلى حين مثل رجال الشرطة : مين هناك ؟! تقولها بصوت مرتفع وتقولها بصوت غليظ .. وتقولها بتهديد .. مع

أن أحدا ليس هناك .. ولكن تريد فقط أن تقول للصوص أن رجال الأمن ساهرون .. وأنك رأيت اللص .. وأنك قريب منه وأنك مخيف .. إنني أسمعك من حين إلى حين .. كأنك أحد رجال الشرطة تهدد وتنذر وتخيف .. أنت أولا تريد أن تقول : أنك لا تخاف .. وتريد أن تقول لغيرك : ألا يقترب لأنك مخيف ..

وأنا أضحك لذلك .. وكثيرا ما رأينا فى الأفلام رجل الأمن يصرخ وهو نائم : مين هناك ؟!

إننى أراك وأسمعك هكذا .. ولذلك فإننى لا أطالبك بأن تعتزل المسرح أو تخلع ملابس الشرطة وأن تبحث لك عن « مين هناك » أخرى .. أو لا داعى لها .. ولكن يكفى أن تعرف أننى أعرف .. وأنت أيضا تعرف .. تعرف ..

• • •

لم أجد عندى أى استعداد لأن أعرف أكثر ، لقد فضحتنى أمام نفسى .. ولم أعد أعرف كيف أنظر إليها .. أو أسمعها .. لقد جردتنى من كل ملابسى .. ثم لم تكتف بذلك بل نزعت جلدى وشعر رأسى .. بل أخرجت عقلى وفتحته وطلبت منى أن أقرأ .. وأخرجت قلبى ووضعته فى يدى فقفز إلى يديها .. لا أعرف بالضبط ما الذى فعلته .. لقد كسرت أسنانى وأظافرى .. وألقت بى عاريا فى الهواء .. إذن أنا هكذا .. وهى وحدها التى تعرف ذلك .. فلا عندى بساط الريح ولا خاتم سليمان ولا مال قارون ولا قوة شمشون ولا مزامير داود ولا عيون زرقاء اليمامة ولا قلب روميو ولا عقل سقراط ..

ولكن كلنا كذلك . وكل واحد يحاول أن يرتدى الأزياء التى تناسبه والتى يشعر تحتها بالدفء أو بالقوة أو بالإيمان أو بأنه ملك الملوك وأغنى الأغنياء وأقوى الأقوياء .. وكل ملابسنا مستعارة وكذلك أفكارنا ومشاعرنا .. وحتى كلامها هى الأخرى .. إنها حررتنى لتصفعنى .. لكى أبدو أمامها ضعيفا .. إنها أرادت أن تختصر المقاومة الطويلة .. فأبطلت مفعول كل الألغام التى أحطت بها نفسى وعقلى وقلبى .. كأنها أرادت أن أغرق أمامها ، لكى تنتشلنى .. لكى أطلب إليها أن تنتشلنى .. لكى أرجوها .. لكى أتوسل إليها .. تعبت .. عقلى تعب .. قلبى تعب .. ضقت بها وبكلامها وبأى كلام آخر ..

وكان من عادتى فى ذلك الوقت إذا جلست وحدى أن أجد دموعى على خدى .. وأندهش لهذا السلوك الطفولى .. ولكنه العلاج الطبى الوحيد لشفاء النفس من توتراتها العصبية .. وغسيل للعين من احتقانها المستمر .. وبكيت .. وبكيت ..

ووجدت فى جيبى ورقة مكتوب عليها عنوان .. د . عبد الوهاب عزام عميد كلية الآداب . لقد نصحنى أستاذى د . شوقى ضيف أن أذهب إليه .. ليساعدنى فى العمل فى جريدة « الأساس » .. ولم يكن واضحا عندى ما هو العمل فى صحيفة .. ولا الصحافة ..

ومزقت الورقة ..

وعاودت استخدام كل الملابس والدروع والأسلحة التى اعتدت عليها واسترحت إليها .. محاولا أن أنسى كل الذى سمعت فى هذا اليوم ..

وفى ذلك اليوم وعلى إحدى النواصى ، قررت أن أكون جادا فى أن أجد عملا . وأن يكون هذا العمل قريبا أو مناسبا تماما لاستعدادى .. واستعدادى هو الكتابة والقراءة ..

فى ذلك اليوم ، واختصارا لطفولتى المتأخرة ، وإنهاء لليأس والتشاؤم الفلسفى ، وتسترا على فضيحتى النفسية هذه ، قررت أن أكتب .. وأن أذهب إلى جريدة الأساس وأن أطلب نشر الذى سوف أكتبه ..

وكتبت .. ونشروا !



شاعر الكوخ: لم يلتفت إليه أحد

شاعر الكوخ: لم يلتفت إليه أحد

أول ما حفظت من الشعر الحديث : شعر محمود حسن اسماعيل .. حفظت ديوانه ، أغاني الكوخ ، لا أعرف سببا واضحا لذلك .. ولكنه أدهشني أعجبني بهرني . واعتدت وأنا طفل على حفظ القرآن الكريم في السابعة من عمري وحفظت ، البردة ، النبوية وألوف الأبيات من الشعر الصوفي . فقد كان أبي شاعراً متصوفا . ولا أدعي أنني كنت أفهم الذي أحفظه . ولكني أهتز طربا وأتباهى به بين زملائي الصغار الذين لا يروعهم هذا الذي أتلوه طويلا على مسامعهم بل كان يشغلهم أي شيء عن مواصلة الاستماع .. وكان يغيظني ذلك ، فكنت أمسك بشجرة وأكمل لها القصيدة .. أو كنت أصرخ غيظا وأمضي في إلقاء الشعر ..

إنها الصدفة التي جعلتني أشتري ديوان ، أغاني الكوخ ، الذي نظمه محمود حسن اسماعيل من خمسين عاما ، وكان وقتها طالبا في كلية دار العلوم . وهو شاب أسمر نحيف واسع العينين طويل مجعد الشعر . قادم من الصعيد .. من إحدى قرى الصعيد . أما عالم هذا الشعر فهو الكون كله وقد تجمع في قريته .. أما أهم معالم هذه القرية فهو المقابر والغربان والبوم والساقية والثور والقطن والقمح .. وهو يرى فيها الدنيا .. في غدها وازدهارها . وفي بكائها وعويلها ونحيبها ونعيبها كل ذلك هي دنياه .. ودنيا كل الناس ..

إنه شاعر الكوخ الوحيد في الأدب العربي الحديث .. فالكوخ أي ذلك البيت المصنوع من الطين وأغصان الأشجار .. لا هو بيت ولا هو مقبرة . ولكنه الإثنان معا .. محمود حسن اسماعيل صاحب البرج الخشبي .. أو البرج الطيني .. إنه يحمل هذا البرج معه إلى القاهرة .. تماما كما تحمل السلحفاة أحجارها ، والفيل خرطومه ، وحيوان اللؤلؤ أصدافه ..

ولا أدعى أن هذا الديوان قد أحدث دويا فى الشعر الحديث ، ولا فى الأدب الحديث .. ولم نعرف فى تاريخ الشعر كله ان ديوانا هز مجتمعا أو فتح طريقا أو أصلح كونا .. فالذى يبحث عن صدى ديوان كالذى يلقى بورقة من طائرة ثم يخرج أذنيه من نافذتها ليسمع انفجارها على الأرض .. ولكنه كان بداية المتعة الأدبية ، وبداية الطريق إلى البحث عن الشعراء والشبان .. الشعراء المحدثين فى مصر .. وفى كل كتاب عن الشاعر الحديث ، لا أجد سطرا واحدا عن هذا الشاعر محمود حسن اسماعيل ..

وعلى الرغم من أننى ولدت فى بلد الشعر والادب والفلسفة والغناء فى مصر : المنصورة فلم أجد أحدا من أبنائها يتحدث عن هذا الشاعر الذى اكتشفته لنفسى .. ففى المنصورة ولد الفلاسفة لطفى السيد وعبد الرحمن بدوى وزكى نجيب محمود والأدباء على باشا مبارك ومحمد حسين هيكل باشا وأحمد حسن الزيات ورشاد رشدى والشعراء على محمود طه والهمشرى وكامل الشناوى وصالح جودت وولدت أم كلثوم والموسيقار السنباطى .. وولدت ام الأستاذ العقاد .. ففى هذه البيئة الثقافية كنت أسمع وأنا طفل كل اسماء الأدباء والشعراء .. ولكن لم يذكر لى أحد إسم الشاعر محمود حسن اسماعيل ..

شىء عجيب . ولكنه شاعر ممتاز رغم أن أحدا لا يذكره . بل إننى أحسست أنه شاعرى الخاص ، فأنا الذى أتحدى به الذين لا يحفظون إلا شعر شوقى وحافظ وعلى طه وغيرهم . . وعلى الرغم من ان محمود حسن اسماعيل قد أصدر دواوين أخرى : هكذا أغنى . . ولابد . . وصوت من الله . . وأين المفر . . ولكنى أراه شاعر ، الديوان الواحد ، فقد قال كل مالديه فى ديوان واحد . أما بقية الدواوين فهى مذكرات تفسيرية أو بلغة الموسيقى : تنويعات على لحن واحد . أو روافد لنهر واحد . إنه شاعر الكوخ الذى لم يبرحه !

● ● ●

وفى الشعر العالمى ، تجد كثيرين قد أودعوا كتابهم الأول كل ما لديهم من حكمة وملأوا كتابهم الأول بالوعود . وليس من الضرورى أن يفوا بها . يكفى أنهم وعدوا فى عبارة جميلة . ولا يهمنا كثيرا شكل الوفاء بالوعد . والأدب الرومانتى ملىء بالتساؤلات ، بلا إجابة .. وبالدهشة وبالأحلام

والرؤى .. إنهم حالمون لما سوف يجيء ثم لا يجيء شيء .. والذى يهمنا هو واقع الأحلام وموسيقاها .. يقول محمود حسن يصف الكوخ :

يعثر عليه الدمع ما صفقت
في قلبك الألحان يا شاعر
واحرق له الأجفان ، ما مسها
برح الضنى ، والحزن يا ساهر
ضمت حواشيه على عابد
محرابه من فاقه داثر
ينعى عليه تحت جنح الدجى
شبح الليالى بومها الصافر
ويشتكى بلواه رأد الضحى
حمامه المسترحم الذاكر
سماره فى الليل أنعامه
والنجم ، والنابح ، والخائر
تبكى سواقى الحقل أشجانه
وما بكاه مرة شاعر !
والبائس الفلاح فى ركنه
عريان يشكو ضنكة خائر !

واقرأ ما يقوله عن زهرة القطن :

حين ذاب الطل فى كاساتها
لؤلؤا يجرى على كف الشعاع
لثمت خد الضحى ، وابتسمت
كابتسام الطفل فى عهد الرضاع
وبدت صفراء تحكى غادة
نبلت نضرتها يوم الوداع

يا عـروسا لـم تزينهـا يـد
غير كف المبدع الفن ، الصناع
عقدت إكليلهـا مــن سوسن
باهت الأفواف ، تبرى القناع
مستعار من ضنى العشق ، ومن
لوعة الهجر ، ومن لون الوداع
يسجـد الشاعـر مـن فتنتـه
سجدة الفن زها حسنا وراع
عانقت طيف الضحى ، واكتأبت
لأصيل لاح مختنق الشعـاع
ورنت للشمس يخبو سحرها
بعد ما أذهل أجفان القـلاع
فبـدت حانيـة الـرأس أسى
ترمق الغرب بمض والتيـاع
مثل صوفـى تـراءى خاشعـا
مطرق الرأس بمحراب التلاع !
ذاك تاج النيل ! فانتدب عنده
أمل الفلاح ، والجهد المضاع
نامت النعمـة عنـه ! وجـفت
معدما ، لم يرعه في مصر راع
غرت ريح الأسى كسرتـه
وطوت نعماءه دنيـا الصراع
رقص القصر علـى أكتافـه
وهوجاث .. بين ذل واقتنـاع
وسطا البؤس عليه ، فغـدا
زورقا في اليم محطوم الشراع !

أما الفلاحة حاملة الجرة فيصفها :

سارت إلـى جدولها الدافـق
سير الكرى فى مقلة العاشق

وعرفت الشاعر محمود حسن اسماعيل فى الخمسينات . وكان صديقاً . وكنت أجد متعة ، ويجد هو أيضاً ، عندما ألقى شعره على مسمع منه .. وكان يطلب منى أن أمضى فى ذلك ..

ومحمود حسن اسماعيل متشائم بطبعه . وشعره حزين . ودنياه قاتمة . وهو يشعر ، أنه لم ينل حظه من التقدير .. وكان يدهشه أن دواوينه يشتريها الكثير من الناس - إلا النقاد . وبعض قصائدها غناها محمد عبد الوهاب ، ولكن قصائد اخرى لم يقبل عليها المطربون والمطربات . ولم أجد له حقاً فى هذا الغضب .. فشعره جميل ولكنه حزين قاتم الألوان حول محمود حسن اسماعيل : فى الغروب والشروق والزهر والفراشات والطيور ، فإنه لم يكن يستخدم فى رسمها إلا اللون الأسود القاتم والأسود الفاتح والرمادى .

وعندما لحن محمد عبد الوهاب أغنية للشاعر السورى نزار قبانى لتغنيها نجاة الصغيرة ، قال النقاد أن الشاعر السورى هو أول من استخدم كلمة « الفستان » فى الشعر الحديث .. أى أنه شاعر يستخدم الكلمات الاجنبية ، ومع ذلك فشعره جميل . وقابلنى محمود حسن اسماعيل حزيناً : ألم أنظم قصيدة عن « الفستان الأحمر » ؟ وكنت قد نسيت ذلك . ونشرت قصيدة محمود حسن اسماعيل التى جاءت فى ديوانه « أغانى الكوخ » يقول :

إن تكن ناراً ، فما أشهى خلودى فى سعيرك
أو تكن ورداً ، فيالهفة روحى لعبيرك
طـــرفك الهفهـــاف يبـــدى
لوعـــة خلـــف ستـــورك
ولـــهث روحـــى فطـــارت
ترتـــوى مـــن فـــيض نـــورك
تتمنـــى لـــو تهـــادت
موجـــة فـــوق غديـــرك
أو خيـــالا مـــن هواهـــا
سابحـــاً طـــى ضميـــرك !
لـــيت يا « فستـــان » لمـــا
لـــحت تزهـــو فـــى حريـــرك !

كنت ذرا نـــــــابض الإحساس
يجـــرى فـــى أثيـــرك !
بلنـــم الـــحسن ويهـــوى
فانيـــا بيـــن عطـــورك

ويقول فى وصف الساقية :

نـاحت .. فـلا الزهـر علـى عـوده
ألقـى عقـود الـطل مـن جيـده
خـرساء ، لكــن صوتهــا صارخ
يـذيب قلب الصخـر مـن جـده
لهـا طنيـن النــحل فــى قــرة
بهمـاء لـم تبـق علـى شهـده
لهـــا عيـــون دائعـــات البكـــا
بمدمـــع كـــالسيل فـــى رفـــده
تفنـــى دموع النـــاس مـــن فيضهـــا
ودمعهـــا بـــاق علـــى عهـــده
ويزدهـــى الزهـــر إذا ما جـــرى
منهلهـا الصافـى علـى خـده

ثم يصف الثور الذى يجر هذه الساقية :

نؤوبـــة الشكـــوى علـــى راسف
فـى الـذل مفجـوع علـى جـده
دارت بـــه البلـــوى ، فمـــا راعـــه
إلا مـــاء غـــال مـــن رشده
اعمـــى .. رمـــاه البيـــن فـــى داره
لم يدر نحس الخطو من سعده
شدت حبـــال الـــذل فـــى رأسه
وفت صرف الدهر فـى كبـده

والسائـــــق الأبلــــه لا ينثنـــــى
عن ضربه العانى وعن كيده
كتبــــوا علـــى آذانـــــه سورة
من قسوة السيد على عبده
كأنـــه الدهــــر يزجـــى الـــورى
قسرا إلـى مائد عن وجده

وكان الشاعر محمود حسن اسماعيل عابدا عاشقا لكل ما فى هذا الوجود .. وحاول أن ينظم في السياسة ، فضل ضلالا بعيدا - فقد كان مرغما على أن يقول .. ولذلك فإننى أسقط كل الذى قاله في السياسة ، حتى لو تكررت فيه كلمة الحرية ألف مرة .. فقبل هذه الكلمة جاءت أسماء وألقاب .. وعلى الرغم من جمال البناء وروعة الألوان ، فإنها كلها منقوشة على جدران سجن فخم أرغم الشاعر على أن يدخله وأن يتغنى به .. لم يرغمه أحد .. ولكن الجو ، قد أرغمه على ذلك ..

اما شعره الصوفى فهو أيضا مثل شعره السياسى : نوع من الهرب .. فالشاعر فى الستينات قد تقدمت به السن ، ولم يعد قادرا على أن يمضى فى شعره الرومانسي يتغنى ويتعذب ويبكى شعرا جميلا ..

وهو يردد كثيرا ما قاله الشاعر حافظ إبراهيم يائسا من بلده ومن النقاد ومن مهنة الأدب :

حطـــمت اليــــراع فلا تعجبــــى
وعــفت البيـــان فـــلا تعتبــى
فمـــا أنت يـــا مصر دار الأديب
ولا أنت بالبلـــــد الطـــــيب

يقول محمود حسن اسماعيل :

ولى على الدهـر قلب يائس أبـدا
لهفان !! يصرخ مضا من عواديه

معـــذب ! كلمـــا رنت مواجعــــه
بكيت إن عز فى دهر مواسيـه
كأنـــه نـــاسك طـــافت بعزلتــه
سود الذنوب فهاجت حزن ماضيه
تسبيحـه مـن نثـار الدمـع منتظـم
والروح ثورة هـم فـى أغانيـه ؟
على الصبا كدت يا قلبى تمـوت أسى
فكيف لو شبت تحيا فى لياليه ؟ !

وحاول محمود حسن اسماعيل كثيرا أن يردد هذه المعانى التى جاءت فى قصيدة له عن « الأنوثة » ، ولكنه لم يبلغ هذه الروعة التى بلغها فى شبابه يقول :

هـى الخمـر ! ما سكبت فـى الدنـان
ولا عصرت مـن رحيـق العنب
ولا شعشعت جامهـــا فاغتـــدت
عـــروسا مكللـــة بالحـــبب
ولكنهـــا مـــن عبيــر الجمـــال
ومـن نـوره الساحـر المختلب
لهـا نكهـة مـن جنـون الشبـــاب
وإحساسه الهائـــج المضطـــرب

ويقول :

أنــــا ظمـــآن ! فهاتـــــى
خمـــر عينيـــك الشهيــــة
أنهلينــــى سحرهـــا السامـــى
وروى شفتيـــــــــــــــه
واسكبـــــى روحك فـــى
روحـــى بكـــأس الأبديـــة
قـــبل أن تغـــرب شمسي
بيـــن أطبـــاق المنيـــة !

خمــــرة مـــــن هالــــــة
النـــور بعينـــيك رويـــه
نـــمسح الآلام مـــن دنيـــا
بآلامـــــى ثريـــــة
وتنسينـــى ضنـــى عمـــرى
وأيامـــــى الشقيـــــة
أنـــــا ظمـــآن فهاتـــــى
خمـــر عينـــيك الشهيـــة
قـــبل أن تغـــرب روحـــى
فـــى سحابـــات المنيـــة !

ويقول فى وصف خصلة من شعرة الذهبى :

كـــم تمنـــيت لـــو أنـــى
بيـــن طيـــاتك ذرة
أنهـــل العطـــر لديهـــا
وأناغـــى كل شعـــره

وفى صدق وسذاجة ورومانسية وغضب يروى ما الذى أصاب فتاة تركت الريف ثم ذهبت إلى المدينة وراحت ضحية . يقول :

واها على دنياى .. ما صنعت
بالحسن فى كنف الصبا الفانى ؟
فتكت بعصمته !.. ولو عدلت
فتكت بقلب الآثم الجانـى !
فى الريف فتح للورى زهرى
وسرى بطهرى فى مغانيـه
كحائـم البستـان ، لا أدرى
من سفره أو هـى معانيـه
عذراء كم لوعت مشتاقـا
فنيت حشاشة قلبـه الدامـى !

ولكم مررت بعابد لاقى
وضح الهدى بعفافى السامى !
ونزلت فى بلد شهدت له
قدس الحجاب ممزق الستر
مشت الفضيلة من كواعبه
مشى الذليل بربقة الأسر
يمررن والأجسام عارية
تغرى بحسن القد والقامة
فضحت معاطفهن أردية
كحبائل الصياد .. نمامة
وشبابه غاو .. قصاراه
من عيشه لهو وتجميل
سلب الأنوثة من عذاراه
ومشى ..عليه العار مسدول !
وجرت على حسنى المقادير
فوقعت فيما كنت أخشاه
عبثت بفتنتى القوارير
وصبابة الشاكى ونجواه
سرق الأثيم قداستى ومضى ..
ومضيت أندب حظى الكابى
حيرى ! أروم القبر لى عوضا
عن خسة الدنيا ، وأوصابى ..
فأبى التراب لما يدنسه
من لوثة الآثام والعار
فنزلت .. ما أقذى وأرجسه !
ببيت الفجور ، وعش أوزارى !
أفتر فيه لمن يساومنى
عرضى .. بما يلهى الطوى شبعا

وبـد تصافـح مـن يكلمنـي
ويد تصون القلب أن يفعـا !
ورد جنـاه المـرء مـن كمـه
واستـاف منـه الـروح للـقلب
حتـى اذا اضوع مـن شمـه
ألقـاه مبتـذلا علـى التـرب
ويقال فى حكم الهوى : سقطت !
ونعـم ! ولكـن مـن خداعكـم
ولـولا أذى الإنسان ما حـملت
إثم الهـوى عذراء .. ويحكم !

وكان كوخ الشاعر محمود حسن اسماعيل قريبا من المقابر فى قرية « النخلة » ، واحدة من ألوف القرى المصرية الحزينة الكئيبة . ولذلك فالموت والنعش والغربان والبوم مفردات لا يمل تكرارها فى كل قصائده بعد ذلك .. يصف الغروب فيقول :

مات النهار وهذى الشمس جازعة
عليه تخطر فى دامى الجلابيب
كأنها نعش (خوفو) مال منكنا
على سرير بذوب النور مخضوب
أهرامة الأفق ، يجرى فوق ساحله
على دم من عيون الشرق مسكوب
رايات مصر تهادت كى تشيعه
بلاعج من أساها جد مشبوب !

ويقول فى وصف النعش :

يازورق الموت ماذا
دهـاك مـن ذى الحيـاة
فـرحت عجـلان تجـرى
لضجعـة فـى فـلاه !

غادرت دنياك لم تحفل بضجتها
حول الركاب ، ولا بالمدمع الجارى
يمشى اليتامى بأكباد ممزقــة
من الجوى !ورحيل الموكب السارى
ولـلارامل صرخات لهـا ضرم
تحت الاضالع مشبوب من النار
لاحت مناديلهـن السود خافقــة
كأنما فصلت من حالك القـار
كأنها فى سماء الحزن أغربـة
تنعى حياتك فى لهف وانـذار
يا حامل النعش لا تعجل .. فان اسى
من حيرة الموت أعيى بطش أفكارى
هذا الذى ضاقت الدنيا بمطمعه
نصيبه كان منها عشر أشبار !!

★ ★ ★

وتستــــــوى إن تــــردت
فـــــى هاويــــات الحتـــــوف
جماجـــــم البلـــــه فيهـــــا
ومخـــــــة الفـــــــيلسوف

ولم أعرف فى أدبنا العربى الحديث شاعرا كان لديه الحساسية اللغوية مثل محمود حسن اسماعيل ، ولا أديبا مثل مصطفى صادق الرافعى .. حتى لقد تخيلت أول الأمر أن الشاعر قد تأثر بالأديب العالم الشاعر الرافعى .. ولكن أغلب الظن أنهما يشربان من ماء واحد .. ومن الماء كل شىء حى ، زهرة القطن وزهرة البنفسج .. ومنه شجرة التفاح وشجرة الصبار .

والرجلان عاشقان لجمال الطبيعة ، وعاشقان لعبقرية اللغة العربية ..

ومحمود حسن اسماعيل يمتاز شعره بالصورة الرقيقة الشديدة التعقيد أيضا ولكنه ينفجر بالشعر أو يفيض بالمعنى .. يتدفق بالخيال .. وحتى عندما يتكلم محمود حسن اسماعيل فهو يهتز .. فجسمه النحيف النحيل لا يقوى على تحمل هذه المعانى التى تهبط عليه . . أو التى تتزاحم فى فمه .. ولذلك كانت عباراته متقطعة ، ومعانيه ضخمة .. ولو أراد أن يكون سهل العبارة فإنه لا يستطيع .. فالشعر لا ينساب منه كما ينساب الماء من الحنفية ، او كما ينزل المطر من السماء .. وإنما هو أمواج وهدير وعواصف .. وهو قادر بموهبته العظيمة على أن يجعل لها هذه الموسيقى القوية الحزينة ..

وليست لمحمود حسن اسماعيل قضية .. إنه شاعر يتغنى . ثم يلتفت حوله ينظر إلى عيون الذين يسمعونه .. ومع الأسف الشديد لم يجد كثيرين يبهرهم هذا الذى قال وهذا الذى أبدع ..

وهكذا انضم محمود حسن اسماعيل إلى عدد من الشعراء الذين مروا بعالم الأدب ، لم يلتفت إليهم أحد .. ولابد أنه فى ذلك مثل الشاعر الحضرمى على أحمد باكثير : فقد كان أديبا مفكرا شاعرا ومؤلفا مسرحيا ورائدأ للشعر الحر أيضا . ولا صدى له !